



28.3.2015



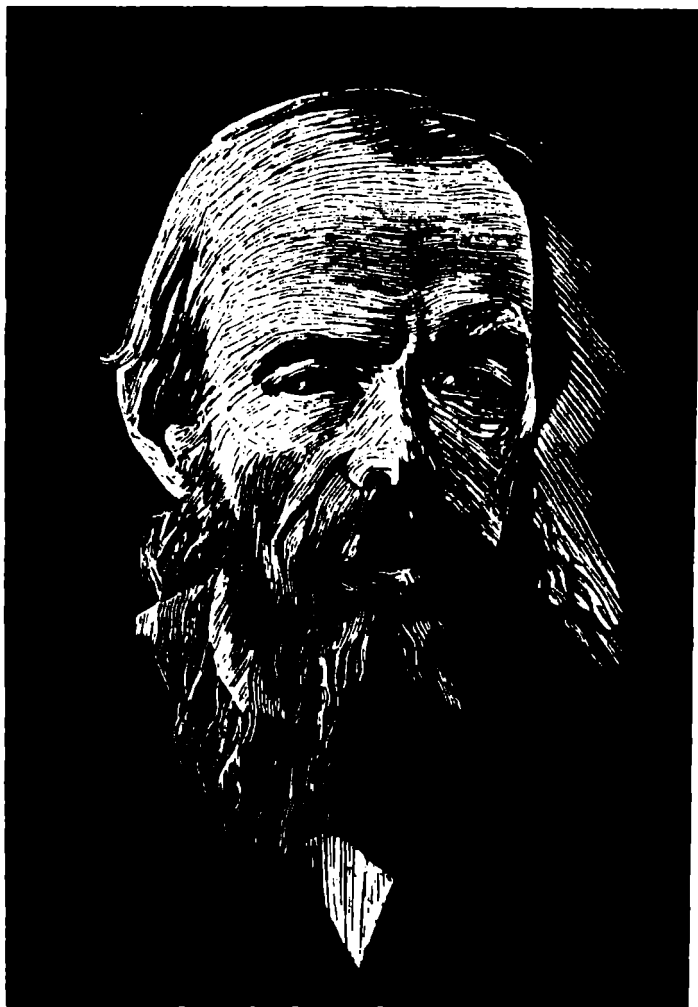
دوستو یفسکی



روایۃ
(مذکراتہ شباب)



دار «رژا و وفا»
مولکو



ع. سعیدی

ترجمة الدكتور سامى الدروبي
مراجعة د . ابو بكر يوسف
رسم نيقولاى أليكسييف

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ،
وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن
رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧ موسكو ،
الاتحاد السوفيتى

© المراجعة والمقلمة والرسم — دار «رادوغا» ١٩٨٧
طبع فى الاتحاد السوفيتى

ISBN 5—05—001194—9

Twitter: @ketab_n

٢٦ يوما من حياة دوستوفسكى

بقلم : ايجور فولجين

ربما لا نجد سيرة حياة أديب آخر ، اذا قصدنا بالحديث الأدباء الروس فى القرن التاسع عشر ، تحفل بهذا الكم من التحولات الدرامية وحالات الصعود والسقوط المفاجئة ، والانتصارات الابداعية والمآسى الحياتية ، مثلما نجد فى سيرة حياة فيودور دوستوفسكى . فخلال التسعة والخمسين عاماً التى عاينها له القدر استطاع دوستوفسكى ان يصمد لضربات لا حصر لها ، وان يتغلب على قدر هائل من المواقف التى بدت بلا مخرج تقريبا ، حتى ان حياته لتبدو لنا وكأنها أكثر رواياته اثاراً .

كان عام ١٨٦٦ — عام كتابة «المقامر» — بالنسبة لدوستوفسكى نقطة تحول فى حياته وابداعه . ففى هذا العام كتب «الجريمة والعقاب» ، أولى رواياته الخمس العظيمة . وفى هذا العام نفسه وقع الحدث الذى غير مصيره الشخصى . ولكن ما هى الخبرة والحصيلة التى جمعها دوستوفسكى عندما وصل الى هذه النقطة الفاصلة ؟

لقد ولد فيودور ميخايلوفتش دوستوفسكى فى ٣٠ اكتوبر (حسب التقويم القديم الذى كان معمولاً به فى روسيا حتى ١٩١٨) من عام ١٨٢١ ، فى مدينة موسكو . وظهر الى النور فى أحد أجنحة مستشفى القديسة ماريا للفقراء ، حيث كان أبوه ميخائيل دوستوفسكى يعمل طبيباً حكومياً ، فهذا المستشفى

كان تابعاً للدولة .

وكان والد الكاتب قد شق طريقه بنفسه ، اذ ترك منزل الأسرة في غرب اوكرانيا وهو في الخامسة عشرة من عمره (وكان أبوه ، اى. جد الكاتب ، قسيساً) ، والتحق بقسم الاكاديمية الطبية الجراحية بموسكو . وبعد أن حصل على لقب مطبب تزوج عام ١٨١٩ من ماريا فيودوروفنا نيتشايفا ، ابنة أحد سراء التجار في موسكو .

وفيودور دوستوفسكى هو الابن الثانى فى الأسرة (كان عدد أطفال أسرة دوستوفسكى سبعة : أربعة أخوة وثلاث شقيقات) ورغم ارتباط اسم دوستوفسكى وابداعه ارتباطاً وثيقاً بمدينة بطرسبرج ، حتى قيل عنه انه «أكثر الكتاب بطرسبرجية» ، فقد عاش فى موسكو حتى السادسة عشرة من عمره ، ثم فارقتها بعد ذلك الى الأبد .

كانوا فى روسيا القديمة يضعون موسكو فى مواجهة بطرسبرج . فموسكو هى العاصمة الروسية القديمة ، اما بطرسبرج فلم تصبح عاصمة حسب مشيئة بطرس الاكبر الا من عهد قريب نسبياً ، يزيد قليلا عن مائة عام قبل مولد الكاتب . وقد عادت موسكو الى رونقها شيئاً فشيئاً بعد حريق عام ١٨١٢ الرهيب ، المرتبط بغزو نابليون الذى انتهى باندحاره . وبخلاف بطرسبرج ، المدينة الامبراطورية ، بعظمتها الباردة ، وطابعها الرسمي وتوجهها الى الغرب /كانوا يسمونها بالميرا الشمال/ كانت موسكو فى طابعها ونمط حياتها الأسرى الأبوى وثيقة الصلة بروسيا الريفية العريقة العميقة الجذور . وكان مجرى الحياة ينساب فيها على مهل ورويةً ، على وقع زنين الأجراس الرخيم المنبعث

من مئات الأبراج المذهبة . وفي بيوتها الخشبية الواطئة كان الناس يأوون الى فراشهم مبكرا ، ويستيقظون مبكرا ، والبوابات البلوطية توصل ليلاً بالمزايح الحديدية الثقيلة .

كانت أسرة دوستوفسكى متوسطة الدخل . ومن الممكن بالطبع أن ننسبها الى ما يسمى بالمجتمع المهذب ، ولكن ليس الى المجتمع الراقى . فلم تكن لآل دوستوفسكى /ولا كان بوسعهم أن تكون لهم/ علاقة بالنبالة العريقة ، وبأرستقراطية موسكو الاصلية التي يملك أفرادها آلافاً من الفلاحين الأقنان . وفي هذه الأسرة التي وان لم تكن غنية فليست بالفقيرة أبداً ، والمعتمدة فقط على راتب عائلتها ودخله من الممارسة العلاجية ، امتزجت ملامح نمط الحياة الموسكوفى القديم لصغار البرجوازيين والموظفين والتجار . وكان الاطفال يربون تربية صارمة فى جو دينى تقليدى . وكانت هية الأب ، ذلك الرجل الصعب المعاشرة ، السريع الغضب والكثير الارتياب هية طاغية . اما الأم فكانت رقيقة المعشر ، حساسة لبقه ، وكما يبدو من رسائلها ، كان لديها شيء من ملكة الكتابة .

ويبدو ان خالة دوستوفسكى أ . ف . كومانينا ، التي تزوجت من تاجر ثرى وملكته رأس مال كبيراً ، كانت لها بعض الصلة برواية «المقامر» . فحسب شهادة ابنة الكاتب ، لوبوف فيودوروفنا ، فقد صور والدها خالته كومانينا «فى شخص الجدة الموسكوفية العجوز ، التي وصلت الى المانيا وقامت فى لعبة الروليت وخسرت نصف ثروتها» . ومضت ابنة الكاتب تقول «انه فى ذلك الوقت الذى ازدهرت فيه الروليت فى ألمانيا كانت أخت جدتى عجوزاً الى درجة لا تسمح لها بالأسفار .

ولكن من الجائز انها كانت تلعب الورق في موسكو وتخسر مبالغ كبيرة»

يبد أنه ينبغي النظر الى شهادات لوبوف دوستوفسكايا بحذر شديد ، اذ ان ذكرياتها تنطوي على أشياء غير دقيقة كثيرة وعلى أخطاء . فلو أخذنا بشهادات أخرى مثلاً لوجدنا ان كومانينا كانت نموذجاً للعجز ، أم التاجر روغوجين ، في رواية «الأبله» ، أى لشخصية مختلفة تمام الاختلاف . ومع ذلك فليس من المستبعد ان بعض ملامح خالة دوستوفسكى /كانت اثناء كتابة رواية «المقامر» قد وصل بها الكبر الى حد الخرف/ قد استخدمها الكاتب بصورة محوَّرة في رسم شخصية «الجدة» ذات الطابع المميز في الرواية . فذكريات الطفولة لم تغب ابداً عن ذاكرة دوستوفسكى . . .

في عام ١٨٣٧ بعد وفاة والدة الكاتب وهي بعد في سن مبكرة ، اذ كانت في السادسة والثلاثين /وقد تزامنت هذه الوفاة مع المصراع المفجع لبوشكين ، الشاعر الذى ظل دوستوفسكى يعده طوال حياته/ ارسل الأب أولاده الكبار الى بطرسبرج ، حيث التحق فيودور في بداية العام التالي بالمدرسة الهندسية العامة ، التى كانت ستؤهله ليصبح مهندساً عسكرياً

وفي عام ١٨٣٩ يموت والد الكاتب ، ميخائيل دوستوفسكى في ظروف غامضة . . وثمة شكوك قوية فى أن تكون الوفاة طبيعية ، اذ ربما قتله أحد أقنانه . وهزت وفاة الوالد والظروف التى أحاطت بها ، والتي ظلت الى الأبد سراً عائلياً ، دوستوفسكى بشدة وتركت أثراً عميقاً فى

حياته ووعيه الابداعى .

وحصل دوستوفسكى على رتبة ضابط ، ولكنه لم يمكث طويلا فى صفوف الجيش الروسى ، اذ قدم استقالته فجأة ، دون أن تكون لديه أى موارد او علاقات فى الوسط الأدبى ، ودون أن يكون قد نشر باسمه سطرا واحداً . وأثارت هذه الخطوة الجريئة دهشة المحيطين به . وأغلق دوستوفسكى على نفسه باب شقة صغيرة فى بطرسبرج وسهر الليالى /وظلت هذه العادة لديه طوال حياته/ فى كتابة أول عمل أدبى .

لقد ولد دوستوفسكى وشب فى جناح مستشفى للفقراء ومن ثم أطلق على اولى رواياته عنوان «المساكين» .
والكلمة فى الأصل الروسى تحمل معنى الفقر والتعاسة .
ورغم حلم دوستوفسكى بالانسان السعيد فلم يكد يصور أبداً فى رواياته أبطالاً سعداء .

لقد جعل النجاح المذهل «للمساكين» من الأديب الشاب ابن الاربعة والعشرين عاماً كاتباً مشهوراً على الفور ، وأدخله دائرة الكتاب الشبان الذين بدأوا تدريجياً يحتلون موقع السيطرة فى الأدب الروسى . ورأى جيل الاربعينات — جيل نيكراسوف^(١) وتورجينيف^(٢) وجريجوروفتش^(٣) — فى دوستوفسكى وريثاً جديراً لـ «جوجل»^(٤) . وتنبأ له ييلينسكى^(٥) ، أعظم نقاد عصره ، بمستقبل زاهر .

^(١) نيكولاى نيكراسوف (١٨٢١ — ١٨٧٧) شاعر روسى عظيم ، أحد مؤسسى الاتجاه الوطنى فى الشعر الروسى . أصدر فى عام ١٨٤٦ «مجموعة بطرسبرج» حيث نشرت رواية دوستوفسكى «المساكين» لأول مرة . كان ناشراً ورئيس تحرير اثنتين من أكبر المجلات المعارضة

لقد تغير الموقف كثيرا تجاه الكاتب الشاب فيما بعد ،
واستقبل دوستوفسكى ، الذى كان سريع التأثر بالاهانة ، هذا
البرود نحوه من جانب الأصدقاء والمحبين السابقين بمرارة وألم .
ولكن بدايته الباهرة بقيت فى الذاكرة الى الأبد .

وفى عام ١٨٤٩ أُلقي القبض على دوستوفسكى وقدم
إلى المحاكمة بتهمة «التحريض الاجرامى» ، اذ كان منتما
الى جماعة من الشبان عرفت باسم «البتراشيفسكيين» نسبة الى
مؤسسها بتراشيفسكى . وكانت هذه الجماعة تناقش بحماسة
مشاريع تحرير الفلاحين وأفكار الاشتراكية الطوباوية الوافدة من

للحكم القيصرى وهما «سوفريمينيك» (المعاصر) ١٨٤٧—١٨٦٦
و«اوتيتشستفنى زايسكى» (المذكرات الوطنية) ١٨٦٨—١٨٧٧ ،
وكانتا لسان حال الديمقراطيين الثوريين—الروس .

^(٢) ايفان تورجينيف (١٨١٨—١٨٨٣) الكاتب الروائى الروسى
العظيم . فى الأربعينات بدأ حياته الأدبية . كانت علاقته بدوستوفسكى
معقدة ، واحيانا عدائية حادة .

^(٣) ديمترى جريجوروفتش (١٨٢٢—١٨٩٩) كاتب روسى .
كان زميلا لدوستوفسكى فى المدرسة الهندسية . بدأ حياته الأدبية
فى الأربعينات

^(٤) نيكولاى جرجول (١٨٠٩—١٨٥٢) الكاتب الروسى العظيم ،
أحد مؤسسى الواقعية النقدية . صاحب مسرحية «المفتش العام» ورواية
«النفوس الميتة» .

^(٥) فيساريون بيلينسكى (١٨١١—١٨٤٨) الناقد الروسى العظيم ،
مؤسس المدرسة النقدية الجديدة . يعد الملهم الفكرى للحركة الأدبية
فى الأربعينات وأول شارح للأدب الروسى الكلاسيكى . استقبل رواية
«المساكين» باعجاب شديد .

الغرب . وقضى مؤلف «المساكين» ثمانية أشهر في ززانة
انفرادية في قلعة بطرس وباول ، ذلك الباستيل الروسى الرهيب
الذى مرت عبره فى اوقات مختلفة جميع أجيال الثوريين الروس .
وكان مسلكه فى السجن شجاعاً ومشرقاً ، فلم يفلح المحققون
فى الحصول على اعترافات «صريحة» منه .

كان القيصر نيقولاى الأول مذعوراً من أبعاد ثورة ١٨٤٨
الهائلة فى اوربا والتي اطاحت بالعرش وزلزلتها ، وقد أراد
بدوره ان يلقي بالرعب فى قلوب رعاياه ، فقام بنفسه بوضع
سيناريو رهيب لجماعة البتراشيفسكيين .

فى ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ اقتيد دوستوفسكى مع أعضاء
الجماعة الآخرين الى ساحة اعدام مطوقة بالقوات . وعلى وقع
دقات الطبول نزعت عنهم «الحلة الرسمية» وألبسوا قمصانا طويلة
بيضاء ، وقرئ عليهم حكم الاعدام رميا بالرصاص . وأوتق
ثلاثة منهم الى أعمدة خشبية مغرورة فى الارض /وكان
دوستوفسكى ينتظر دوره فى المجموعة الثلاثة الثانية/ ووقف
أمام كل منهم عدة جنود شاهرين بنادقهم المحشوة بالرصاص .
وظل المحكومون بالاعدام ينتظرون تنفيذ الحكم نصف الساعة
فى صقيع يبلغ عشر درجات تحت الصفر . ثم ظهر فى
الساحة فارس ، وقرئ على المحكومين بالاعدام الأمر القيصرى
السامى بتخفيف الحكم .

وقضت مشيئة القيصر بالحكم على دوستوفسكى بالأشغال
الشاقة لمدة أربع سنوات ، وبعد ذلك يلحق جنديا بكتائب
المشاة فى سيبيريا .

وهكذا «انتزع» دوستوفسكى من الأدب لعشر سنوات

كاملة . وقضى فترة عقوبته مقيد القدمين بالسلاسل فى «بيت الأموات» ، ذلك السجن البعيد وسط مجاهل سيبيريا المغطاة بالثلوج . واثناء فترة الاشغال الشاقة هذه دهمت دوستوفسكى أولى نوبات الصرع ، ذلك المرض «المقدس» الذى ظل يطارده طول حياته . وبعد خروجه من السجن ارتدى معطف الجنود ، وظل على هذه الحال حتى ترقى الى أول رتبة من رتب الضباط ، واستعاد لقب النبالة الذى كانت المحكمة قد جردته منه ، و فقط بعد مرور عدة سنوات على جلوس القيصر الجديد الكسندر الثانى على العرش ، سمح لدوستوفسكى بالعودة الى بطرسبرج ومزاولة العمل الأدبى

كان ذلك عام ١٨٥٩

وكان عليه الآن أن يعود . أن يعود الى الأدب الذى لم يقف فى مكانه منتظراً طوال هذه السنوات العشر . لقد برزت خلال هذه الفترة أسماء زملائه ، الذين خطا معهم فى زمن ما على درب الكتابة ، وذاعت شهرتهم . وفى سماء الأدب سطع نجم صاعد «فاتق الجدة» هو ليف تولستوى . . . وجذبت روايتا «مذلون مهانون» و«مذكرات من بيت الأموات» أنظار جمهور القراء من جديد الى هذا الكاتب شبه المنسي . وحالف الحظ بصفة خاصة «مذكرات من بيت الأموات» التى بفضلها تعرف القارئ الروسى لأول مرة على سيبيريا السجون والاشغال الشاقة .

هكذا كانت البداية الثانية لدوستوفسكى . . البداية التى ربما لم تكن أقل تأثيراً من بدايته الأولى . بيد ان دوستوفسكى ، مع ازدياد رسوخ اسمه الأدبى ، راح ينغمس

أكثر فأكثر في نشاط غير مألوف تماما بالنسبة له .
كان عصر الستينات في روسيا عهد المعارك العظيمة التي
خاضتها المجلات الأدبية . ففي غياب البرلمان والأحزاب
السياسية والكثير من الحريات العامة ، تركزت الحياة الاجتماعية
كلها في المجلات ، التي لم تكن مجرد مطبوعات تصدر ،
بل منابر لاتجاهات محددة ، متعارضة جذريا في كثير من
الأحيان

وقام دوستوفسكى مع أخيه الأكبر ميخائيل باصدار مجلتي
حظيتا باقبال القراء /ثم منعت الحكومة أولى هاتين المجلتين/ .
وقد تغيرت معتقدات دوستوفسكى السياسية كثيرا ، لكن «قلبه
ظل كما كان» ، على حد تعبيره

وحمل عام ١٨٦٤ لدوستوفسكى عدة ضربات قاسية .
فقد ماتت بالسل زوجته الأولى م . ايسايفا /كان قد تزوج بها
في سيبيريا ، ولم يوفق في هذا الزواج/ وتركت له ابناً لها تبناه
الكاتب . وبعد بضعة أشهر اختطف الموت فجأة شقيقه الأكبر
/الذى كان صديقه الوحيد تقريبا/ ميخائيل دوستوفسكى . وتولى
الكاتب رعاية أسرة شقيقه الأكبر التي فقدت عائلها ، وفوق
ذلك انتقلت اليه ديون أخيه الضخمة المتراكمة عن اصدار
مجلة «العصر» ، والتي سرعان ما توقفت هي الأخرى عن
الصدور ازاء ضغوط الدائنين وتناقص عدد المشتركين .

يقول دوستوفسكى في احدى رسائله التي كتبها في
تلك الفترة انه مستعد لأن يوافق على العودة الى الاشغال الشاقة
مرة أخرى بشرط أن يتمكن من سداد الديون .

ويمضى عام ١٨٦٥ في البحث المحموم عن المال .

وفي الخريف يشرع دوستوفسكى ، وهو فى الخارج ، فى كتابة رواية «الجريمة والعقاب» ، وفى يناير من العام التالى يبدأ نشر الرواية فى المجلة المحافظة «البشير الروسى» التى كان دوستوفسكى منذ أمد قريب يخوض ضدها معركة ضارية على صفحات مجلته . غير انه لم يكن يملك خياراً آخر . . . وفى هذه الاثناء يوقع دوستوفسكى عقداً مع ناشر الكتب ف . ستيلوفسكى ، الذى يتعهد بنشر مجموعة أعمال دوستوفسكى وباعطائه ثلاثة آلاف روبل فوراً ، الأمر الذى كانت له أهميته الخاصة بالنسبة لدوستوفسكى . وحسب شروط هذا العقد كان على دوستوفسكى أن يقدم لستيلوفسكى — بالاضافة إلى أعماله السابقة — رواية جديدة لا يقل حجمها عن اثنتى عشرة ملزمة . وفى حالة ما اذا أخل الكاتب بهذا الشرط يصبح من حق الناشر اصدار جميع مؤلفات الكاتب المقبلة خلال تسع سنوات دون أن يدفع له شيئاً مقابل ذلك . وهكذا قام دوستوفسكى بمستقبله كله .

وكان ستيلوفسكى يبنى حساباته على أساس ان دوستوفسكى ، المشغول تماماً بروايته لمجلة «البشير الروسى» /«الجريمة والعقاب»/ لن يجد الوقت ولا الجهد لأى عمل آخر . وكان موعد تنفيذ العقد /أول نوفمبر ١٨٦٦/ قد اقترب^(١) . فى ١٧ يونيو ١٨٦٦ يكتب دوستوفسكى لاحدى معارفه :

^(١) فى حالة عدم تسليم الرواية الجديدة حتى أول نوفمبر يتعرض دوستوفسكى لدفع غرامة مالية كبيرة ، وفى أول ديسمبر يبدأ سريان الشرط المجحف الوارد بالعقد .

«أريد أن أقوم بعمل شاذ لم يسبق له مثيل — أن أكتب في أربعة أشهر ٣٠ ملزمة ، في روايتين مختلفتين ، احدهما سوف أكتبها صباحاً ، والثانية مساءً ، وأفرض في الموعد المحدد» .
لم يتعرض أى من الكتاب الروس الكلاسيكيين لمثل هذه الضغوط . ولم يكتب واحد منهم بهذه السرعة (دون الهبوط بالمستوى الفنى فى الوقت نفسه) . ولكن هذا العمل «الشاذ الذى لم يسبق له مثيل» كان جنوناً محضاً ، وحتى دوستوفسكى ، هذا الكادح الذى لا يعرف الكلل ، ما كان يستطيع أن يؤلف شيئاً آخر موازياً لرواية مثل «الجريمة والعقاب» .

واقترح أحد الاصدقاء ، كمخرج من المأزق ، أن يقوم عدد من الزملاء بكتابة رواية (كل منهم يكتب عدداً معيناً من الصفحات) ثم يقوم دوستوفسكى بتنقيحها . ولكن دوستوفسكى رفض العرض قائلاً انه لن يضع اسمه ابداً على عمل ليس من تأليفه .

وفى بداية اكتوبر لم يكن قد كتب سطراً واحداً . واقتربت الكارثة . ولكن دوستوفسكى ، الذى كانت المواقف القاهرة تثير فيه مدأ هائلاً للقوى الحيوية ، قرر اللجوء الى أقصى الاجراءات . فأتبع نصيحة أحد معارفه واستدعى كاتبة اختزال .

كان الاختزال فى ذلك العهد شيئاً جديداً وغير مألوف ، ولم يكن دوستوفسكى قد لجأ اليه فى عمله الأدبى من قبل .

وفى ٤ اكتوبر ١٨٦٦ ، فى الساعة الحادية عشرة صباحاً

اجتازت آناً جريجوريفنا سنتيكينا ، ابنة العشرين عاما ، لأول مرة عتبة الشقة رقم ١٣ بدار ألونكين في زقاق «ستولياري» . ولم تكن تعرف أن مصيرها سيصبح مرتبطاً الى الأبد بمصير هذا الانسان الذى كانت تجل اسمه منذ الطفولة ، والذى كانت مساعدتها له آخر أمل لديه .

وتمت كتابة (أو بالأصح املاء) رواية «المقامر» (التي كان عنوانها الأولي «روليتبيرج») في ٢٦ يوما ، من ٤ الى ٢٩ أكتوبر . واضطر دوستوفسكى لهذا الغرض الى وقف نشر حلقات «الجريمة والعقاب» في مجلة «البشير الروسى» (وبالمناسبة فقد أصبحت رواية «المقامر» الرواية الوحيدة لدوستوفسكى التي لم تنشر في مجلة بل ظهرت مباشرة في كتاب) . ومن السذاجة بالطبع الظن بأن الرواية أُمليت املاء خالصاً ، أى «من الرأس مباشرة» . فقد كان دوستوفسكى يولى اهتماماً فائقاً بعمل التسويد التمهيدي ، من مخططات وخطوط عامة ، وتسجيلات أولية . وكانت فكرة الرواية قد راودته منذ عام ١٨٦٣ ، وبذلك كان لديه متسع من الوقت للتفكير فيها . واذ تجاسر دوستوفسكى على كتابة الرواية بهذه الطريقة غير العادية ، فقد كان يعتمد بالطبع على مواد معدة سلفاً مثل مخططات الرواية وملخصات مختصرة للفصول والأبواب وغيرها وغيرها . . .

وتقول آناً جريجوريفنا في مذكراتها : «كلما مضى الوقت ازداد فيودور ميخايلوفتش انهماكا في العمل . ولم يعد يملي عليّ شفويا من الذاكرة رأساً ، بل كان يعمل ليلاً ، وفي الصباح يملي من مخطوطة» .

وكان الاملاء يجرى يوميا من الساعة الثانية عشرة حتى الرابعة مساء . ثم تقوم آنا جريجوريفنا فى المنزل بفك رموز الاختزال وتنقله الى الورق بعناية . وبعد ذلك يعيد الكاتب النظر فى النص مدخلا عليه التعديلات .
وانتهت كتابة الرواية فى ٢٩ أكتوبر . وفى اليوم التالى ، ٣٠ أكتوبر بلغ دوستوفسكى الخامسة والاربعين .
ان رواية «المقامر» تحمل الى حد ما بصمات السيرة الذاتية .

ولا نقصد بذلك ان الكاتب صوّر فى الرواية مشاهد من حياته الخاصة ، بل نقصد ان بعض ظروف هذه الحياة قد انعكس فى الرواية .

لقد كان دوستوفسكى شخصا مشبوب العواطف . وكانت المقامرة فى الروليت من أكثر ما ولع به ولفترة طويلة . كان يعرف أدق خفايا هذه اللعبة لا من الناحية التقنية وحدها ، بل خبر بنفسه صعود الحظ وأفوله ، وتصاريق القدر، وتعاقب الأمل واليأس . وكان أحيانا يربح مبالغ ضخمة (وذلك فى ألمانيا اساساً ، لأن لعبة الروليت كانت ممنوعة فى روسيا) ولكنه فى حمية المقامرة يخسرها الى آخر درهم ، حتى لا يبقى معه ما يسد به حساب الشاى والشموع فى الفندق .

ولم يستطع دوستوفسكى أن يتخلى عن هذا الولع المدمر الا بعد بضع سنوات من كتابة «المقامر»
بالطبع ليس هناك وجه شبه كبير بين اليكسى ايفانوفتش ، الشاب ذى الخمسة والعشرين عاماً والذي يجرى السرد على

لسانه⁽¹⁾ وبين مؤلف الرواية . غير ان هذا الشاب يحظى دوما بعطف الكاتب . فهو شاب صلب ، قوى الملاحظة ، ساخر . وهو مشبع بمشاعر الاعتزاز بالنفس والكرامة ، وهو أخيراً على أعلى درجات الشرف والاستقامة .

ومع ذلك كله فهو شخص مقامر . ولكن مقامرته تختلف تماما عن ذلك الدافع الذى يحرك معظم رواد روليتنبرج . بالطبع هو يسعى الى الفوز . لكنه بحاجة الى النقود لا لحل مشاكله الخاصة أساسا بل لحل مشاكل الآخرين . ان غرضه متره عن الغرض ، وما أن يحصل على ما يسعى اليه حتى يسلم ما معه عن طيب خاطر للآخرين لينهبوه . وتقول له **Mademoiselle Blanche** : «انت انسان ذكى وطيب و . . و . . من المؤسف فقط انك احق الى هذه الدرجة ! لن تحصل على شيء ، ابدا !» . وعموما فقد كان من الممكن ان يقال مثل هذا الكلام لأليسكى ايفانوفتش أيضا من بعض أبناء بلده الموقفين . ففي ستينات القرن التاسع عشر مضت الرأسمالية تنمو بوتائر عاصفة فى روسيا المتخلفة شبه الاقطاعية . وكان ما

⁽¹⁾ كانت كتابة «المذكرات» أحب ألوان الكتابة الى قلب دوستوفسكى . فبخلاف «مذكرات من تحت الأرض» و «مذكرات من بيت الأموات» /وكذلك التسمية القرية منهما : «ملاحظات شتوية عن انطباعات صيفية»/ تحمل روايتنا «قرية ستيبانتشيكوفو» و «المقامر» عنوانين فرعيين هما : «من مذكرات مجهول» و «من مذكرات شاب» . وعلاوة على ذلك فان روايات «الشياطين» و «المراهق» والى حد ما «الاخوة كارامازوف» تعتبر فى الواقع من نوع المذكرات .

يحدث أشبه ما يكون بـ«لعبة» من نوع خاص . . لعبة عفوية ، عمياء ، إذ أخذت البنوك والشركات المساهمة تتأسس وتنهار ، وتكشفت أعمال احتيال ضخمة ، وتكدست وتبددت ثروات هائلة . وأخذ موضوع المال وما يرتبط به من سلطان يلعب دورا متزايداً في الحياة وفي الأدب .

وفي رواية «الجريمة والعقاب» ثم بعد ذلك في «المراهق» لا يكشف دوستوفسكى عن الرابطة العميقة الجذور بين الفكرة «الروتشيلدية» والفكرة «الناپليونية» فحسب ، بل ويظهر بجلاء عبقرى كل تهافت جبروتها الظاهرى . فلا المال ، ولا السلطان بقادرين على حل أى مشكلة من المشاكل الانسانية البحتة . فالركض وراء «العفارىت» ينتهى بالراكضين الى الهزيمة القاسية . وتعتبر رواية «المقامر» أول شروع فى تناول هذا الموضوع . ويجعلنا مصير بطلها الكيسى ايفانوفتش نميل إلى الظن بأن ثمة خطأ ما فى الفكرة «الروتشيلدية» . فبينما نجدها لدى الكسندر دوماس /فى «الكونت دى مونت كريستو»/ فى أوج انتصارها ، نراها لدى دوستوفسكى «تتعثر» .

فاذا كان المال بالنسبة لمدموازيل بلانش ودى جريو وغيرهما من الآثمين هو الهدف الوحيد المنشود ، وغاية ما يصبون اليه فى الحياة ، فانه بالنسبة لأليكسى ايفانوفتش مجرد وسيلة . . وسيلة لبلوغ أعلى شىء يطمح اليه ، أى الحرية^(١) .

^(١) هذا القول ينطبق أيضا على بولينا . يقول الراوى : «والمال فى ذاته لا يعنيه ! لا شك أن هناك هدفا وظروفا أستطيع أن أحمّنها ولكنني ما زلت أجهلها .»

ان أليكسى ايفانوفتش (مثل راسكولنيكوف ، بطل رواية «الجريمة والعقاب» الذى قتل العجوز المرابية) يريد أن يحصل دفعة واحدة على «المبلغ كله» . وهو يحلم بأن يحقق ذلك بضمرة واحدة . وهو على استعداد لمنازلة قدره ، وجهاً لوجه ، على طاولة القمار ، عندما يتجلى القدر العاشم ، كما يقال ، فى صورته الخالصة ، المنقاة من الشوائب . وأى طرق أخرى لبلوغ الحرية لا تخطر له على بال .

يقول مستر آستلى لأليكسى ايفانوفتش : « . . . فانما خلقت الروليت للروس» . ففى هذه اللعبة يبدو للعيان الفرق بين رحابة النفس الروسية اللامحدودة وبين الحدود الأوربية المحسوبة بدقة . فالظهور الساحق «للجدة» لا يلقى بالروع فى نفوس أهل روليتنبرج المحترمين فحسب ، بل وفى نفوس المغامرين المحترفين ذلك . . . اذ أن «جموحها» الكارامازوفى بحق^١ يذهل الجميع لا من حيث أبعاده فحسب ، بل ومن حيث استهتاره الواضح بالمنفعة الخاصة . ان الصفحات المخصصة لوصف «الجولات الخاطفة» لهذه النبيلة الروسية المحترمة فى متجعات المياه المعدنية الأوربية ، قد كتبت بروعة فائقة . وقد أصبحت انطونيدا فاسيلينا ، هذه المرأة الفريدة فى أصلاتها ، من أنجح الشخصيات النسائية التى أبدعها دوستوفسكى .

^١ تعبر هذه الكلمة فى آخر روايات دوستوفسكى «الاخوة كارامازوف» (١٨٧٩ — ١٨٨٠) عن عنفوان الشهوات المستبد وافتقاد الرادع الاخلاقى ، وهى الصفات التى كانت تميز بعض أفراد أسرة كارامازوف

أما الشخصية النسائية الأخرى — بولينا الكسندروفنا — فهي بالنسبة لدوستوفسكى الى حد ما شخصية فاصلة . فيها تبدأ سلسلة من الشخصيات «الانفرالية»^(١) ، ذوات الطبيعة القوية ، الشهبانية ، العزيزة النفس والأية ، اللواتى سترهن على صفحات رواياته الأخيرة . واذا كنا لا نملك الا أن نخمن النماذج الحقيقية التى نقل عنها دوستوفسكى هذه الشخصية أو تلك فى رواية «المقامر» فان نموذج بولينا لا تحيط به الشكوك .

«أبوليناريا . . . وبولينا» . . . فى التقارب اللفظى بين هذين الاسمين ثمة اشارة صريحة الى تلك الدراما الشخصية العميقة التى عاشها الكاتب عام ١٨٦٣ ، وظل جرحها ، فيما يبدو ، طريا «الى هذا الحد» حتى بعد مرور ثلاث سنوات .

كتب دوستوفسكى الى شقيقة المرأة التى تتحدث عنها الرسالة : «انها تطلب من الناس كل شيء ، كل صفات الكمال ، ولا تغفر نقصا واحداً اكراماً للصفات الحميدة الأخرى ، ولكنها فى المقابل تحرر نفسها من أقل الواجبات تجاه الناس . انها ما زالت تؤنبنى حتى الآن (الرسالة مكتوبة فى ابريل ١٨٦٥) لأنى لم أكن جديرا بحبها ، وتلومنى باستمرار ، بينما استقبلتنى فى باريس عام ١٨٦٣ بعارة : «لقد تأخرت قليلا فى المجيء» أى أنها أحببت شخصا آخر . . . وأنا ما زلت أحبها حتى الآن ، أحبها جدا ، لكنى أصبحت أود الا أحبها . . . اننى أرثى لها ، لأنى اتبأ بأنها ستكون تعيسة

^(١) من كلمة inferno باللاتينية وتعنى : الجحيم (انظر «الكوميديا الالهية» لدانتى)

الى الأبد» .

بالطبع ليست بولينا فى «المقامر» نسخة كربونية من أبوليناريا سوسلوفا ، بل شخصية فنية مستقلة تماما . بيد أن طباع محبوبة دوستوفسكى ، وطريقة سلوكها ، بل وحتى عبارات حديثها ، على ما يبدو ، قد انعكست بقوة فى شخصية بولينا .

لقد كانت أبوليناريا بروكوفيفنا سوسلوفا امرأة غير عادية . كذلك نجد بولينا تشد اليها بطل «المقامر» بشخصيتها الفذة وبغموض ذاتها ، وبتلك الهوية السحيقة التى ينجذب نحوها أليكسى ايفانوفتش المسكين ، ربما عن غير وعى وفى «المقامر» بالذات يظهر لأول مرة احساس الحب — الكراهية ، ذلك الاحساس الذى كرس دوستوفسكى الكثير من الجهد لدراسته وتصويره .

يقول أليكسى ايفانوفتش : «مرة أخرى طرحت اليوم على نفسى هذا السؤال : «أأنا أحبها ؟» ومرة أخرى لم أستطع أن أجد لهذا السؤال جوابا ؛ أو قل اننى أجبت ، للمرة المائة ، بأننى أكرهها ، نعم أكرهها ، مرت بى لحظات . . . تمنيت فيها أن أهب نصف عمرى فى سبيل أن أخنقها ! . . . ومع ذلك أقسم بأقدس ما اقدس أننى لو طلبت منى . . . أن ألقى بنفسى من أعلى قمة . . . لرميت نفسى فوراً ، ولشعرت من ذلك بغبطة .»

لم تخف سوسلوفاً عن دوستوفسكى اسم الشخص الذى حبه هواها /كان شاباً اسبانياً يدعى سلفادور/ . وقد كتبت فى يومياتها : «عندما أخبرته من هو ذلك الشخص ، قال

انه أحس في تلك اللحظة بالقرف ، كما أحس بالراحة لأنه ليس شخصا ذا وزن ، ليس ليرمتوف»^١ . ولكن ربما كان ادراك دوستوفسكى بأن غريمه هذا ليس نداءً له ولا مجال للمنافسة الروحية بينهما ، قد ضاعف من حدة احساسه بالجرح الذى أصاب عزته الرجولية .

ومن جديد يؤكد الكاتب «بانتقامه الفنى» فى شخصية دى—جربو ، ان هناك مسافة هائلة بين الدافع الأول لرسم الشخصية وبين تجسدها النهائى . فقد كان سلفادور ، الضئيل فى حد ذاته ، باعثاً على تفكير اجتماعى عميق . ان بولينا تحب شخصا تافها الى أقصى حد ، ولكنه بخلاف أليكسى ايفانوفتش المشوش ، يتمتع ، مثل جميع الفرنسيين بـ«شكل» مرهف ومكتمل ، جرى شحذه عبر قرون . ودوستوفسكى (الذى كان يشكو دائماً من انه لا يجيد «الحركات») يحاول ان يفسر بذلك تعلق «الآنسات الروسيات» بأشخاص من امثال دى—جربو^٢ . ان هذا التفسير ، بكل ما يتحلى به من براعة أدبية ، لا يستطيع ان يخفى النبرات الشخصية جداً والتي

^١ ميخائيل ليرمتوف ، الشاعر الروسى العظيم ومؤسس الرواية السيكولوجية (بطل من هذا الزمان) . ولد عام ١٨١٤ ، ولقى حتفه فى مبارزة عام ١٨٤١ .

^٢ تعتبر شخصية دى—جربو اعادة نظر فنية ساخرة لنفس الشخصية فى رواية «قصة الفارس دى جربو ومانون ليسكو» للاديب الفرنسى انطوان فرانسوا بريفو (١٦٩٧—١٧٦٣) ، اما شخصية بلانش فهى نوع من «التحول» الفنى لشخصية مانون التى تأقلمت تماما مع ظروف المجتمع البرجوازى .

حركة دوستوفسكى فى هذه الحالة . . .
وكأنما كان دوستوفسكى ، بكتابة هذه الرواية ، يصفى حساباته مع الماضى . ولكنه فى الوقت نفسه كان يرسي دعائم المستقبل . ذلك انه جنبا الى جنب مع كتابة هذه القصة عن الروس السائحين فى الخارج ، ولدت قصة أخرى ذات صلة مباشرة بمصير دوستوفسكى الحالى . فقد وضعت آنا جريجوريفنا بيدها آخر نقطة فى قصة غرامه غير البعيد والتي ظلت تعذبه . ولكنها فتحت باليد ذاتها صفحة جديدة فى حياتهما المشتركة كزوجين ، هذه الحياة التي احتضنت روايات «الأبله» و«الشياطين» و«المراهق» و«الاخوة كارامازوف» . . .
وفى ٣١ أكتوبر ١٨٦٦ ، فى الساعة العاشرة مساء ، سلم دوستوفسكى مخطوطة «المقامر» فى قسم الشرطة الذى يقع فى دائرته مقر اقامة ستيللوفسكى (الذى سافر من بطرسبرج قبلها مؤملاً فى الحصول على الغرامة) . ويبدو ان هذه هى الحالة الوحيدة فى تاريخ الأدب الروسى التي يلجأ فيها الى مثل هذا النوع من الحماية .

ولا نظن ان الشرطى النعسان ، الذى أعطى ايصالا بالاستلام لهذا الزائر الغريب فى هذه الساعة المتأخرة ، قد ألقى بالأى الى روعة ما خطه الكاتب . كان كلاهما يؤدى واجبه لكن الفرق بينهما هو ان هذا الواجب ، بالنسبة للشخص الذى جاء بالمخطوطة ، كان يساوى حياته .



الفصل الاول

هاأنذا أعود أخيرا بعد غياب طال أسبوعين . كان أصحابنا قد وصلوا رولتنبرج * منذ ثلاثة أيام . وكنت أحسبهم ينتظرونني على صبر بلغ من النفاذ أقصى الشدة . لكنني كنت على خطأ . كان الجنرال طلق الهيئة للغاية ، كلمني مستعليا ثم أرسلني الى أخته . واضح أنهم وجدوا ما يقترضونه من مال . حتى لقد بدا لي أن الجنرال كان من حضوري في ضيق وحرج . وكانت ماريا فيليبوفنا مهمومة جدا . فلم تكذب تخاطبني بيبضع كلمات ، لكنها أخذت المال فعدته

وأصغت الى تقريرى حتى نهايته . كانوا ينتظرون على الغداء ميزيتيسيف والفرنسى الصغير ورجلا انجليزيا . تلکم عادة أهل موسكو دائما : متى حصلوا على مال دعوا الناس الى الغداء . وحين رأتنى بولينيا ألكسندروفنا سألتنى لماذا غبت هذا الغياب الطويل كله ، ثم انصرفت دون أن تنتظر جوابى . واضح أنها فعلت ذلك عامدة . ولا بد مع ذلك من مكاشفة . فقد تراکم الكثير .

أعطيت حجرة صغيرة فى الطابق الرابع من الفندق . الناس يعرفون هنا أننى واحد من حاشية الجنرال . لقد ظفر أصحابى بلفت الأنظار اليهم . كان ذلك واضحا . فالناس جميعا هنا يعدون الجنرال من سراة الروس الذين يملكون ثراء طائلا . وقد كلفنى قبل الغداء بعدة أمور ، منها أنه أعطانى ورتين نقديتين لتبديلهما (كل ورقة بألف فرنك) . بدلتهما فى مكتب الفندق . الآن ، سينظر الينا الناس ، خلال أسبوع كامل فى أقل تقدير ، نظرتهم الى أناس من أصحاب الملايين . ذهبت أبحث عن ميشا وناديا * لأصحابهما فى نزهة : ولكنى فيما كنت أهبط السلم أرسل الجنرال يدعونى اليه . لقد رأى أن من الخير أن يعرف الى أين أقودهما . ان هذا الرجل لا يستطيع حتما أن ينظر الى وجهها لوجه . انه يتمنى ذلك ، لكننى أرد عليه فى كل مرة بنظرة تبلغ من الالاحاح ، أى من الوقاحة ، ما يجعله يتحير . وفى حديث متنفخ محشو باستطرادات ، فى حديث صار آخر الأمر الى فوضى كاملة واضطراب تام ، أفهمنى أن على ان أنزه الطفلين فى الحديقة على مسافة من الكازينو . ومن أجل أن يختم كلامه أضاف

بلهجة صارمة : «ام تُراك تأخذهما الى الروليت فى الكازينو ؟
معدرة اذا قلت لك هذا ، ولكننى أعرف أنك ما تزال على
شئ من الطيش ، فقد تستسلم لمغريات المقامرة . وعلى
كل حال ، رغم أننى لست من يهديك سواء السبيل ، ولست
أنوى أن أقوم بهذا الدور قط ، يحق لى أن أتمنى أن لا
تعرض سمعتى لأذى ، اذا جاز لى أن أستعمل هذا التعبير . . .»
قلت بهدوء :

— لكنك تعلم حق العلم أننى لا أملك مالا ، ولا
بد ان يملك المرء مالا حتى يخسره فى القمار .
أجاب الجنرال وقد أحمر وجهه قليلا :
— سأعطيك حالا .

قال ذلك ثم نبش مكتبه قليلا ، فأخرج منه دفترا ،
فوجد أنه مدين لى بما يقارب مائة وعشرين روبلا .
وأردف يسأل :

— كيف أدفع لك هذا المبلغ ؟ يجب ان نحوله الى
تاليرات . اليك الآن مائة تالير رقما مدورا . أما الباقي فنصفيه
طبعاً فيما بعد .

تناولت المال دون أن أنبس بكلمة .
— لا يفضبنك كلامى ، أرجوك . . أنت امرؤ سريع
التأذى . . . ولئن أبديت لك هذه الملاحظة ، فمن قبيل
التحذير ان صح هذا التعبير ، وأحسب أن ذلك من حقى . . .
وفيما كنت عائدا بالطفلين قبيل الغداء صادفت فى
الطريق جماعة راكبة خيلا . كان أصحابنا ذاهبين فى زيارة
لبعض الأطلال . عربتان فخمتان ، جياد رائعة ! كانت

mademoiselle Blanche في احدى العربتين مع ماريا فيليبونا وبولينا ؛ وكان الفرنسي الصغير والانجليزى وصاحبنا الجنرال يخفرون العربة على صهوات أفراسهم . وكان المارة يتوقفون لينظروا اليهم . لقد أحدث هذا أثره . لكن ذلك سوف ينتهى بالجنرال الى نهاية سيئة . لقد حسبت أنهم بالآلاف الأربعة من الفرنكات التى جتتهم بها ، وبما استطاعوا أن يقترضوه من غير شك ، يملكون الآن مبلغا يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية . وهذا قليل جدا على m-lle Blanche .

ان m-lle Blanche تنزل مع أمها نفس الفندق الذى تنزله نحن ، وينزله صاحبنا الفرنسي الصغير أيضا . ان خدم الفندق ينادونه ^(١) "m-r le comte" . أما أم m-lle Blanche فهى تسمى ^(٢) "m-me la comtesse" . ومن يدري على كل حال ؟ لعلهما comte et comtesse حقا .

كنت على ثقة من ان m-r le comte لن يتعرفنى اذا نحن التقينا على الغداء . وواضح أن الجنرال لم يخطر بباله لحظة أن يعرف أحدنا بالآخر ، أو أن يقدمنى اليه على الأقل . لقد عاش m-r le comte فى روسيا ، فهو يعرف اذن صغر شأن ما يسمى هنالك ^(٣) outchitel . على أن سيادة الكونت يعرفنى حق المعرفة . لكننى لم اكن مُتَظَرّاً

^(١) السيد الكونت (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) السيدة الكونتيسة (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٣) «أوتشيتل» — كلمة روسية معناها «المدرس» — المراجع

في الغداء . لا شك أن الجنرال نسي أن يصدر أوامره في هذا الشأن ، والا لأرسلني الى ⁽¹⁾ table d'hôt من غير شك . جئت من تلقاء نفسي ، فرمقني الجنرال بنظرة استياء . وسرعان ما بادرت ماريا فيليبونا الشهمة فعينت لي مكانا . غير أن التقائي بمستر آستلي قد أخرجني من الحرج فاذا أنا بحكم الظروف واحد من الحفل .

في بروسيا انما كنت قد التقيت أول مرة بهذا الانجليزي الغريب الأطوار . كنا جالسين متقابلين في عربة واحدة من عربات القطار . كنت يومئذ مسافرا للحاق بأصحابنا . ثم التقيت به مرة أخرى على الحدود الفرنسية ، والتقيت به أخيرا في سويسرا . معنى ذلك أنني اجتمعت به مرتين في مدى الاسبوعين الاخيرين . وهأنذا ألقاه اليوم في رولتنبرج ! ما رأيت في حياتي رجلا في مثل خجله . انه خجول الى حد الغباوة . وهو يعلم ذلك حق العلم لأنه ليس بالغنى قط . على أنه ذو طبع مسالم لطيف . لقد حملته على الكلام أثناء لقائنا الأول في بروسيا . فذكر لي أنه زار في ذلك الصيف نورد كاب ، وأنه يرغب كثيرا في أن يرى معرض نيغني نوفجورود * . ولا أدري كيف أصبح على صلة بالجنرال . يخيل اليّ أنه مولّه بحب بولينا . فلقد احمر وجهه احمرارا هديدا حين دخلت . وقد سره كثيرا أن يكون الى جانبي على المائدة . وأظن أنه يعدني منذ الآن صديقا حميما . وكان الفرنسي الصغير مسرفا في تصنع الانتماء الى الفئات

⁽¹⁾ المائدة المعدة لجميع نزلاء الفندق (بالفرنسية في الأصل)

العليا . كان يعامل جميع الناس فى تفاخر واحتقار . اننى أتذكر أنه كان فى موسكو غير متكبر اطلاقا . وقد أظن فى الكلام على الاحوال المالية والسياسة الروسية . فسمح الجنرال لنفسه أن يعارضه مرة أو مرتين ، ولكن على تخفٍ وتلطف ، أى بالقدر الذى لا يفقده مهابته تماما .

كنت فى حالة نفسية غريبة . ومن نافل القول أن أذكر أننى ما بلغت من الغداء نصفه حتى كنت قد طرحت على نفسى ذلك السؤال المعتاد الأبدى : «ما الذى يجزئى وراء هذا الجنرال ؟ لقد كان ينبغى لى أن أتركهم منذ زمن طويل !» . وكنت ألقى نظرة خاطفة على بولينا ألكسندروفنا من حين الى حين ، فألاحظ أنها لا تولينى أى انتباه . وفى آخر الأمر غضبت فقررت أن أقارف وقاحة من الوقاحات . ومن أجل أن أبداً ذلك ، اقتحمت المناقشة على حين فجأة ، دون أن أدعى الى المشاركة فيها ، متكلما بصوت مرتفع . كنت أحاول خاصة أن أشاجر الفرنسى الصغير . فالتفت نحو الجنرال ، أقول دون تمهيد ولا توطئة ، بصوت عال واضح مفهوم (وأظن أننى قاطعته) : لقد استحال تقريبا على الروس فى هذا الصيف أن يتناولوا وجبات طعامهم على الموائد العامة فى الفنادق . فما ان سمع منى الجنرال هذا الكلام حتى رمقنى بنظرة دهشة . وتابع أقول :

— ان من يحترم نفسه فلا بد أن يتعرض للوقاحات وأن تناله الالهانات . ففى باريس ، وعلى نهر الراين ، وحتى فى سويسرا ، ترى الموائد العامة غاصة بالبولونيين والفرنسين المتعاطفين معهم ، بحيث لا تستطيع ان تنطق بكلمة واحدة

متى كنت روسيا .

قلت ذلك بالفرنسية . فكان الجنرال ينظر الى حائرا لا يدرى أيجب عليه أن يغضب أم يكفيه أن يدهش لسياني نفسى الى هذه الدرجة من النسيان .

قال لى الفرنسى الصغير بلهجة الاحتقار والاهمال :
— يظهر أن أحدا قد لقنك درسا .

فأجبتة :

— فى باريس تشاجرت أولا مع بولونى ، ثم مع ضابط فرنسى انتصر للبولونى ، ثم ناصرنى جزء كبير من الفرنسيين حين رويت لهم اننى أوشكت أن أبصق فى قهوة أحد كبار الكهنة «مونسينيور»

— تبصق ؟

كذلك سأل الجنرال بدهشة متكبرة ، حتى لقد جال ببصره فى أطراف الغرفة . وألقى علىّ الفرنسى نظرة متفحصمة مرتابة .

قلت :

— تماما . لقد ظللت ثمانى وأربعين ساعة أظن أنه ربما كان علىّ أن أثب الى روما من أجل قضيتنا ، لذلك ذهبت الى مكتب السفارة البابوية فى باريس * أطلب تأشيرة على جواز سفرى . فاستقبلنى هنالك قس قصير يشارف الخمسين من عمره ، نحيل القامة ، جليدى الوجه ؛ فبعد أن اصغى الى كلامى رجائى أن انتظر ، وذلك بلهجة مهذبة لكنها جافة جدا . وكنت مستعجلا ، لكننى جلست طبعاً . وأخرجت من جيبي جريدة * "Opinion nationale" ،

وأخذت أقرأ فيها مقالا هو هجوم عنيف لاذع على روسيا .
وفي أثناء ذلك سمعت أحدا يمضى الى «المونسينيور» عبر
الغرفة المجاورة ، ورأيت القس يظهر له أنواع الاحترام .
وجددت طلى الى القس ، فرجاني مرة أخرى أن أنتظر ،
ولكن بمزيد من الخشونة في لهجته . وما هي الا لحظة حتى
دخل زائر له مسألة تبين أنه نمساوي . فلما استمعوا الى
كلامه ، صعدوا به فوراً الى فوق . عندئذ شعرت بغضب
شديد ، فنهضت عن مكاني ، واقتربت من القس وقلت
له بلهجة قاطعة : ما دام «مونسينيور» يستقبل غيري ، فان
في وسعه أن ينجز قضيتي . واذا بالقس يرتد عني وقد بدت
في وجهه دهشة خارقة . انه لا يستطيع أن يفسر لنفسه كيف
يجرؤ روسي تافه أن يقارن نفسه بضيوف «مونسينيور» . فاذا هو
ينظر الى من قمة رأسى الى أخمص قدمي ، ويصبح بأوضح
لهجة ممكنة ، كأنما يفتنه وسحره أن يهينني : هل تظن
أن «مونسينيور» يمكن أن يستغنى من أجلك عن فنجان القهوة
الذي يحتسيه ؟!» فما كان مني الا أن صحت أنا أيضا
بصوت أعلى من صوته قائلا : «فاعلم اذن أنني أبصق في
قهوة «مونسينيورك» ، وأنتى استخف به ! فاذا لم تنجز لي
جواز سفرى فوراً ، فسأمضى اليه رأساً» .
«كيف ؟ أفى اللحظة التى يستقبل فيها كردينا لا ؟!»
كذلك صاح القس مذعورا وهو يتعد عني ؛ وركض نحو الباب
فمدّ ذراعيه كالمصلوب ، ليفهمنى أنه يؤثر أن يهلك على
أن يدعنى أدخل .
عندئذ قلت له اننى زنديق واننى متوحش «que je suis»

”hérétique et barbare“ ، واننى لا أحفل
 بهؤلاء الاساقفة والكرادلة والمونسينيورين جميعا ، الخ الخ .
 أى أظهرت له أننى لن أخضع ولن أتنازل . فرشقتى القس
 بنظرة بغض عميق ، وانتزع من يدى جواز سفرى ، فمضى
 به الى فوق . وما هى الا دقيقة واحدة ، حتى كنت قد
 حصلت على التأشيرة . وهى الآن معى ، فهل تريد أن
 تراها ؟ — أخرجت جواز سفرى ، وأرته التأشيرة البابوية .
 قال الجنرال يريد أن يبدأ الكلام :

— ومع ذلك . . .

فقاطعه الفرنسى الصغير قائلا وهو يضحك ضحكة صغيرة :
 — ان ما أنقذك هو تصرحك بأنك زنديق ، وبأنك
 متوحش .^(١) «Cela n'était pas si bête» .
 — أنا لا أستطيع على كل حال أن أفعل ما يفعله
 أصحابنا الروس الذين يظنون مكتوفى الأيدى ، لا يجراون
 أن ينسوا بكلمة ، ويقدرن اذا لزم الأمر أن ينكروا أصلهم
 الروسى . وعلى كل حال فان نزلاء فندق باريس قد أظهروا
 لى مزيدا من التقدير حين قصصت عليهم مشاحناتى مع
 القس . أما ذلك الذى كان اكثر الناس فظاظة معى على
 المائدة العامة ، وهو سيد بولونى ضخم ، فقد توارى . حتى
 أن الفرنسيين لم يحتجوا حين رويت لهم أننى قد رأيت
 منذ سنتين انسانا أطلق عليه جندى فرنسى ناره سنة ١٨١٢ ،
 لا لشيء الا ليفرغ شحنة بندقيته . وكان ذلك الانسان آنذاك

^(١) كانت تلك وسيلة غير غبية . (بالفرنسية فى الأصل)

طفلا في العاشرة من عمره ، لم يتسع وقت أسرته لأن تترك موسكو .

صاح الفرنسي الصغير يقول

— مستحيل . ما من جندي فرنسي يمكن أن يطلق النار على طفل !
قلت

— مع ذلك فقد وقع الأمر . ان نقيبا محترما محالا على المعاش هو الذي روى لى هذه القصة ، وقد رأيت بأم عيني الندبة التي خلفها الجرح في الخد .
وظفق الفرنسي يتكلم متدفقا . وأراد الجنرال أن يدعمه ويؤيده ، فنصحت له أن يقرأ ، على سبيل المثال ، «مذكرات» الجنرال بيروفسكى * الذي أسره الفرنسيون سنة ١٨١٢ .
وأخيرا أخذت ماريا فيليوفا تتكلم في موضوع آخر تغييرا لمجرى الحديث . وكان الجنرال مستاء منى أشد الاستياء ، لأننا كنا أنا والفرنسي قد أخذنا نتصايح فيما يشبه الشتائم . ولا كذلك مستر آستلى فقد لاح لى أن تشاجرنا قد فاز برضاه ، حتى اذا نهضنا عن المائدة دعاني الى تناول قده من الخمر معه .
واستطعت فى المساء أن أتبادل الكلام خلال ربع ساعة مع بولينا ألكسندروفنا كما كنت أرغب . وقد جرى الحديث بينى وبينها أثناء التزهة . كان جميع الحفل قد مضى الى الكازينو عن طريق الحديقة . فجلست بولينا على مقعد من المقاعد أمام نافورة الماء وأذنت لنا ديا أن تروح تلعب مع أطفال آخرين على مسافة ما . وأرسلتُ أنا ميثا الى قرب النافورة ، فمكثنا أنا وبولينا نتحدث وحيدين ..



تكلنا أول الأمر عن الأعمال بطبيعة الحال . فما كان أشد استياء بوليننا حين لم أنقدها الا سبعمائة غولدن على التمام والكمال ! فلقد كانت مقتنعة بأننى استطعت أن أقرض فى باريس ما لا يقل عن ألفى غولدن او ربما أكثر لقاء رهن ماساتها .

قالت بوليننا :

— أنا فى حاجة الى المال مهما كلف الأمر ، فلا بد لى من الحصول عليه ، والا فقد ضعت . سألتها عما جرى اثناء غيابى . فقالت :

— لا شىء . لقد تلقينا نبأين من بطرسبرج ، أولهما أن جدتى فى حالة صحية سيئة ، والثانى (وقد بلغنا بعد يومين) أنها لعلها توفيت . — وازافت الى ذلك قولها : — وهذا عرفناه من تيموفى بتروفتش ، وهو انسان دقيق فيما ينقل من انباء ، ونحن فى انتظار أن يتأكد الخبر . قلت :

— فالجميع اذن هنا ينتظرون ؟

— نعم ، الجميع ينتظرون . لقد قضينا حتى الآن ستة أشهر لا نأمل غير هذا .

— أنت أيضا تأملين ؟

— أنا لا أمت اليها بقربى ؛ ما أنا الا ربيبة الجنرال . ولكننى على يقين من أنها لن تسانى فى وصيتها . قلت بلهجة التأكيد :

— أظن أنك ستلقين مبلغا ضخما .

— أظن ذلك ، فلقد كانت تحببى كثيرا . ولكن من

أين تستمد أنت هذا الاعتقاد ؟

أجبتها سائلا :

— قولى لى : هل المركز مطلع أيضا على جميع

أسرار الأسرة ؟

— أيعنيك أن تعرف هذا ؟

كذلك سألتنى بولينا وهى تنظر الىّ فى برود وقسوة .

— وكيف لا ؟ اذا لم يخطئ ظنى فان الجنرال قد

استطاع أن يدبر أموره فيقترض منه بعض المال .

— تخميناتك صحيحة .

— أكان يقرضه لو كان يجهل قصة الجدة ؟ ألم تلاحظى

حين كنا على المائدة أنه قد دعاها بابولنكا * ثلاث مرات

اذ جاء على ذكرها ؟ يا لها من صلة وثيقة حميمة !

— نعم ، انك على حق . ولسوف يخطبنى رأسا متى

علم أنتى سأنال من الميراث نصيبا . هذا ما ترغب فى

معرفته ، أليس كذلك ؟

— أما يزال فى مرحلة التفكير فى خطبتك ؟ كنت

أحسب أنه يعد نفسه خطيبا منذ زمن طويل .

قالت بولينا غاضبة :

— أنت تعلم أن الأمر ليس كذلك !

وأردفت تسأل بعد لحظة صمت :

— أين التقيت بهذا الانجليزى ؟

— كنت على يقين من انك ستطرحين علىّ هذا

السؤال .

وقضت عليها لقاءاتى بمستر آستلى أثناء السفر . ثم

أضفت :

— انه خجول وعاطفي ، ولا شك أنه قد وقع في

هواك .

أجابت بوليننا :

— نعم انه يحبني

— وهو ، طبعا ، أغنى من الفرنسي عشر مرات

هل للفرنسي ثروة حقا ؟ أهذا أمر لا يتطرق اليه أى شك
اطلاقا ؟

— اطلاقا ! ان له^(١) château . ولقد أكد لي

الجنرال ذلك أمس . أيكفيك هذا ؟

— لو كنت في مكانك لتزوجت الانجليزى .

سألت بوليننا :

— لماذا ؟

— الفرنسي فتى أجمل . ولكنه أرذل . أما الانجليزى

فرجل شريف ، وهو فوق ذلك أغنى من الفرنسي عشر مرات .

قلت لها ذلك بلهجة قاطعة .

أجابت بهدوء بالغ :

— هذا صحيح ، ولكن الفرنسي مركزيز ، وهو أذكى .

قلت بتلك اللهجة نفسها :

— أهذا مؤكد ؟

— مؤكد تماما .

كانت استلتي تسوء بوليننا كثيرا ، ولاحظت أنها تريد

^(١) قصر (بالفرنسية فى الأصل)

أن تغیظنی وأن تغضبنی بلهجة جوابها وغبابته . فلم ألبث
أن ذكرت لها ذلك ، فأجابت بقولها :
— صحیح . انه ليسلینى أن أثیر غیظك . وعلیك
أن تكافئنی لمجرد أننى أسمح لك بالقاء هذه الأسئلة
وتصور هذه الافتراضات
قلت بهدوء :

— اننى أعترف لنفسى بحق القاء جميع ما أريد القاءه
من أسئلة ، لأننى مستعد لدفع أى ثمن تریدینه لها ،
ولأننى لا أقيم لحياتى نفسها أى وزن
فانفجرت بولينا ضاحكة :

— لقد قلت لى ذات يوم ، ونحن على جبال
شلانجنبرج ، انك مستعد ، بكلمة واحدة منى ، أن تلقى
بنفسك الى تحت ، منكس الرأس ، بينما نحن على علو
ألف قدم . لسوف أقول هذه الكلمة يوما ، لا لشيء الا
لأرى أنت تقدم على التنفيذ حقا ؛ وثق أننى سأظهر يومئذ
ما أتصف به من صلابة وحزم . أنا انما أكرهك لأننى سمحت
لك بتلك الاشياء كلها ، وأنا أكرهك مزيدا من الكره لأننى
لا غنى لى عنك . اننى ما زلت فى حاجة اليك . فلا بد
اذن من ان أحافظ عليك .

قالت ذلك ثم نهضت . كانت تبدو عصبية . لقد أصبحت
فى الآونة الأخيرة تختم أحاديثنا دائما بمثل هذه اللهجة من
العصبية والحققد ، وهو حقد لا تظاهر فيه ولا افتعال .
قلت لها ، رغبةً منى فى أن لا أدعها تمضى من
غير تفسير :

— هل تسمحين لى أن أسألك ماذا تكــــون
mademoiselle Blanche ؟

— أنت تعرف ذلك حق المعرفة . لم يحدث أى
شء جديد . ان mademoiselle Blanche ستصبح
زوجة الجنرال من غير شك ؛ هذا اذا صح طبعاً أن الجدة
قد توفيت ، ذلك أن mademoiselle Blanche وأمها
وابن عمها المركزي يعرفون جميعاً تمام العلم أننا لا نملك
شيئاً البتة .

— وهل الجنرال هائم بها موله ؟

— ليس هذا هو الموضوع الآن . اسمع ما سأقوله
لك وعه تمام الوعى : خذ هذه السبعمائة فلورين ، والعب
بها على الروليت ، واجن أكبر قدر ممكن من الربح . لا بد
لى من مال الآن ، مهما كلف الأمر .

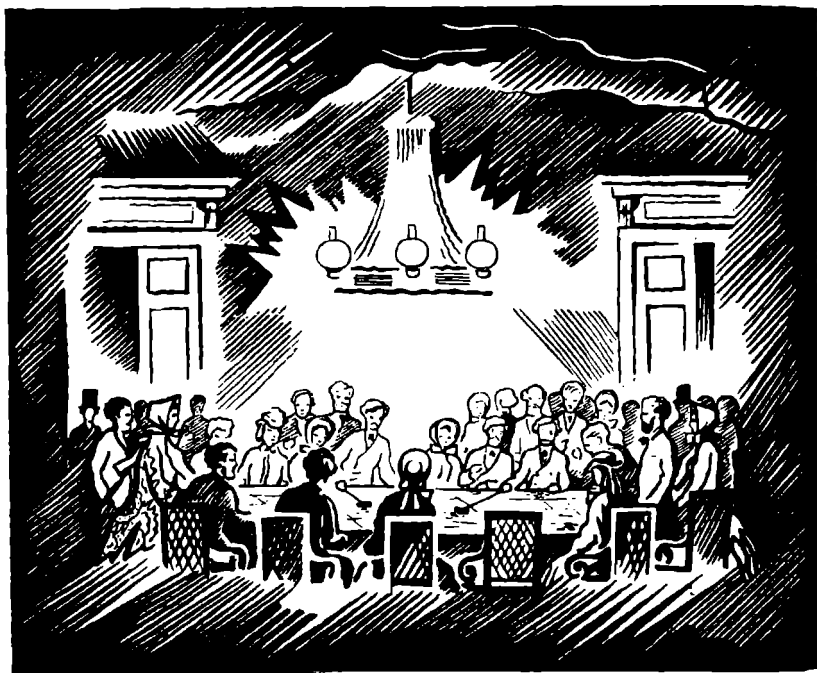
قالت هذا الكلام ، ثم نادت ناديا وذهبت الى الكازينو
تلحق بأصحابنا . وسرت أنا فى أول ممر على اليسار . كنت
أفكر وأفكر فما تنقضى دهشتى . ان هذا الأمر الذى أصدرته
الى باللعب على الروليت قد صعقتنى . والغريب فى الأمر
أنى رغم كثرة ما يشغل بالى ، غرقت غرقاً كاملاً فى تحليل
عواطفى نحو بولينا . صحيح أنى اثناء الاسبوعين اللذين
غبتهما عنها كنت أشعر بخفة لا أشعر بمثلها اليوم بعد عودتى ؛
ولكننى تألمت اثناء هذه الرحلة كمن فقد صوابه : كنت
أركض من مكان الى آخر كأن الشيطان يطاردنى ؛ وحتى فى
المنام كنت أراها دائماً امامى . وفى ذات مرة (كان ذلك
فى سويسرا) خاطبتها بصوت عال ، فأضحك ذلك جميع

من كانوا معى فى القطار . مرة أخرى طرحت اليوم على نفسى هذا السؤال : «أأنا أحبها؟» ومرة أخرى لم استطع أن أجد لهذا السؤال جوابا ؛ أو قل اننى أجبت ، للمرة المائة ، بأننى أكرهها ، نعم أكرهها . مرت بى لحظات (وخاصة فى ختام الأحاديث التى تقوم بيننا) تمنيت فيها أن أهب نصف عمرى فى سبيل أن أخنقها ! أقسم أنه لو كان فى وسعى أن أغمد خنجرًا مسنونًا فى صدرها على مهل ، لشعرت من ذلك بمتعة فيما أظن . ومع ذلك أقسم بأقدس ما أقدمس أنى لو طلبت منى ونحن على جبل شلانجنبرج ، أن ألقى بنفسى من أعلى قمة يرتادها الناس ، لرميت نفسى فورًا ، ولشعرت من ذلك بغبطة . لقد كنت أعرف ذلك . كان يجب أن ينحل هذا الأمر بطريقة من الطرق . وهى تفهم ذلك كله أروع فهم ، فاذا تصورت أنى أدرك حق الإدراك أن لمسها مستحيل ، وأننى أعى كل الوعى أن رغباتى كلها عبث لا رجاء فيه ، شعرت من ذلك بلذة لا تفوقها لذة . اننى على ثقة من ذلك . والا فهل كان لها ، هى التى تملك ما تملك من رصانة وذكاء ، أن تعاملنى بهذه الألفة كلها وبهذه الصراحة كلها ؟ يخيل الىّ أنها حتى هذا اليوم كانت تنظر الىّ نظرة تلك الامبراطورة القديمة التى نضت عنها ثيابها أمام عبد من عبيدها ، لأنها لا تعده رجلا . نعم انه يتفق لها فى كثير من الأحيان أن لا تعدنى فى الرجال .

ومع ذلك فقد عهدت الىّ اليوم بمهمة : أن أريح فى الروليت مهما كلف الأمر . وليس يتسع الوقت لأن أتساءل

لماذا يجب أن أربح ، وخلال أية مدة من الزمن يجب أن أحقق هذا الربح ، وما هي الحسابات الجديدة التي بزغت في هذا الرأس الذي لا يكف عن العمل لحظة واحدة ! ثم ان من الواضح أن أحداثا جديدة كثيرة ما زلت أجهلها قد وقعت خلال هذين الاسبوعين . فيجب علىّ أن أحدثس هذا كله ، يجب علىّ ان أنفذ الى أسراره ، بأقصى سرعة . ولكن الوقت لا يتسع لذلك الآن : يجب أن أذهب الى الروليت





الفصل الثاني

لقد أزعجتني هذه المهمة والحق يقال : كنت قد قررت أن أقامر ، ولكنني لم أتوقع أبدا أن أبدأ المقامرة لغيري . حتى لقد شعرت بشيء من الحيرة ، ودخلت قاعات المقامرة متجههم المزاج . وكل ما رأيته فيها قد أزعجني منذ أول نظرة . انني لا أستطيع أن أحتمل روح التزلف في تلك المقالات الهجائية التي تكتب في العالم بأسره ، وخاصة في جرائدنا الروسية ، والتي يعالج فيها أصحابها كل عام تقريبا ، عند مطلع الربيع ، موضوعين اثنين : أولهما

البذخ والترف في قاعات المقامرة من مدن الروليت على نهر الراين ، والثاني أكوام الذهب التي يزعمون أنها تتكدس على الموائد . هذا رغم أن هؤلاء الكتاب لا يؤجرون على هذه المقالات ، وانما هم يتطوعون بسبب روح التزلف المنزهة عن الغرض . ان هذه القاعات الرديئة خالية من كل بهاء أو سناء ؛ والذهب فيها لا يتكوم على موائدها وحتى ينذر أن يُرى على هذه الموائد . لقد يفد طبعا من حين الى حين رجل شاذ الطبع ، او انجليزي أو آسيوي (تركي كما حدث في هذا الصيف) وفجأة يربح أو يخسر مبالغ خرافية . أما الآخرون فانهم لا يجازفون الا بقولدينات قليلة ؛ ولست ترى على المائدة الا قليلا من المال في المتوسط . حين دخلت قاعة القمار (لأول مرة في حياتي) بقيت بعض الوقت مترددا لا أعزم أمرى . أضف الى ذلك أن الجمهور كان يقف في طريقي . ولكن هبني كنت وحيدا ، فأغلب ظني أنني كنت سأنصرف قبل أن أبدأ المقامرة . أعترف أن قلبي كان يخفق خفقانا قويا وأنني لم أملك رباطة الجأش . كنت مقتنعا منذ زمن طويل أنني لن أبارح رولتينبرج كما جتتها . فلا بد أن حدثا أساسيا حاسما سيتدخل في مصيري لا محالة . يجب أن يقع هذا ، ولسوف يقع . ومهما يكن هذا الأمل الذي عقده على الروليت سخيفا مضحكا ، فانني أجد أن الرأي الذي يسلم به عامة الناس اذ يقولون ان من السخف أن يتوقع المرء من المقامرة أى شيء ، أقرب الى السخف وابعث على الضحك . لماذا تكون المقامرة أسوأ من أية وسيلة أخرى من وسائل الحصول

على المال ؟ لماذا تكون المقامرة أسوأ من التجارة مثلا ؟
صحيح انه لا يربح سوى واحد من مائة . ولكن هل يهمنى
هذا ؟

ومهما يكن من أمر ، فلقد قررت أولا أن أمكث
ولا أشرع جادا في ذلك المساء . فاذا حدث شيء فسيكون
من قبيل المصادفة العابرة . ذلك ما كنت أنويه . أضف
الى هذا أنه كان عليّ أن أدرس المقامرة نفسها ؛ ذلك
أننى رغم كثرة ما قرأت من أمور لا حصر لها في وصف
الروليت ، وقد قرأتها في نهم شديد وشراهة قوية ، لا
أستطيع أن أفهم شيئا من أصول ممارستها قبل أن أراها
بعيني رأسى .

في الوهلة الأولى ، لاح لى كل شيء قدرا ، قدرا
حقيرا بالمعنى الأخلاقي لا أريد أن أتحدث عن تلك
الوجوه الشرهة القلقة التى تحاصر موائد القمار عشرات بل
مئات . اننى لا أرى أية قدارة فى رغبة المرء فى أن يربح
أكبر مقدار ، بأقصى سرعة . لطالما استبدلت فكرة ذلك
الواعظ البطر الذى كان فى منجى من العوز والحاجة ، فقال
فى الرد على ما ذكر له بعضهم من أنهم «يقامرون على
مبالغ زهيدة» : وهذا أنكى وأسوأ ، لأنه صادر عن طمع
صغير . لكأنه يظن الطمع الصغير والطمع الكبير شيئين مختلفين
لا شيئا واحدا . ان المسألة مسألة نسب . فما هو صغير
فى نظر روتشيلد هو الثراء الطائل نفسه فى نظرى أنا . والناس
فيما يتصل بالأرباح والخسائر ، لا فى الروليت فحسب ،
بل فى كل مجال آخر ، انما يحركهم دافع واحد : هو

أن يربحوا أو أن يتتزعوا شيئا من شخص آخر . هل الربح
 والنفع عيبان في ذاتهما ؟ تلك مسألة أخرى وما هنا
 سأحلها . ولما كنت أنا ممن تستبد بهم الرغبة في الربح
 الى أقصى حد ، فان هذا الطمع كله ، بل ان رذيلة
 الطمع هذه ، اذا شتم هذا الاسم ، كانت قريبة منى
 مألوفة عندي ، ان صح التعبير ، منذ دخولي الى القاعة .
 لا شيء أمتع من أن لا يتحرج المرء أمام الآخرين ، بل
 ينطلق في عمله صريحا لا يصدده عنه صاد . وفيم يخدع
 المرء نفسه ؟ ذلك أسخف وأغبى ما يشغل به الانسان
 باله ! غير أن الشيء الذى كان يثير الاشمئزاز منذ النظرة
 الأولى فى هولاء الاوغاد المقامريرن كلهم انما هو الجد
 الكبير بل والاحترام الهائل الذى كانوا جميعا يحيطون به
 موائد القمار . من أجل هذا انما يجب أن نميز هنا تميزا
 واضحا بين نوع من اللعب يسمى بـ ⁽¹⁾ **mauvais genre**
 وبين اللعب الذى يباح لانسان محترم . هناك نوعان من
 المقامرة : مقامرة المهذبين من الناس ، ومقامرة عامة الناس ، مقامرة
 الطمع الدنيئة ، مقامرة الأوغاد . والحدود بين هذين النوعين واضحة
 فاصلة . وما أعيب هذا فى حقيقة الأمر ! الرجل المهذب ،
 مثلا ، يمكن أن يجازف بخمس ليرات ذهبية أو عشر ،
 وقلما يجازف بأكثر من ذلك ، فاذا كان غنيا فقد يجازف
 بألف فرنك لكنه لا يفعل ذلك الا لعبا ، الا على سبيل
 التسلية ، من أجل أن يتابع مجرى الربح أو الخسارة ،

⁽¹⁾ نوع ردىء (بالفرنسية فى الأصل)

لكنه لا يهتم بالريح ذاته البتة فاذا ربح كان يمكن مثلا أن يروح يضحك ملء صوته ، وأن يشارك واحدا ممن حوله ملاحظاته ، بل وأن يقامر مرة أخرى مضاعفا رهانه ، ولكنه لا يفعل ذلك الا من باب الفضول ، بغية أن يلاحظ الحظوظ كيف تجرى وتدور ، بغية أن يجرى حسابات ، لا رغبةً مبتدلة منه في الربح . أى أنه لا ينبغي أن يرى في جميع موائد القمار هذه والروليت و^(١) trente et quarante الا تسلية جعلت للذة وحدها . حتى أنه ما ينبغي له أن تخطر بباله المنافع والمصائد التي يعتمد عليها «البنك» ؛ بل انه ليكون ظرفا وأناقه منه أن يتخيل أن سائر اللاعبين ، أن جميع هؤلاء الأوباش الذين يرتجفون من أجل غولدن واحد انما هم أناس مهذبون أغنياء مثله ، وأنهم لا يقامرون الا على سبيل التسلية ازجاءً للوقت . ان هذا الجهل الكامل بالواقع ، وهذه الآراء الساذجة في البشر تعد ولا شك من أرفع الاشياء ارستقراطية . كنت أرى أمهات يدفعن بناتهن الى أمام ، صبايا أنيقات بريثات في الخامسة عشرة من أعمارهن أو في السادسة عشرة ، يعطينهن بضع نقود ذهبية ويعلمنهن اللعب . فاذا ربحت الصبية أو خسرت ، انسحبت مفتتنة ، مبتسمة دائما . وقد دنا جنرالنا من المائدة برصانة ووقار ، فهرع أحد الخدم يدفع له كرسيًا ، ولكنه لم ينتبه هو الى ذلك ؛ وأخرج محفظته ببطء ، وبيطء أخرج من المحفظة ثلاثمائة فرنك نقدا ذهبيا وضعه على الأسود فربح ؛ فلم

(١) الثلاثين والأربعين (بالفرنسية في الأصل) .

يأخذ المال بل تركه في مكانه على المائدة ، فربح الأسود مرة أخرى ، وفي هذه المرة أيضا لم يأخذ المال بل تركه حيث هو ، فلما ربح الأحمر في المرة الثالثة خسر الجنرال ألفا وماتى فرنك ، فانسحب مبتسما ، مسيطرا على نفسه كامل السيطرة . أنا واثق أن قلبه كان يضطرب ، فلو كان ما راهن عليه ضعفى المبلغ أو ثلاثة أضعافه لما ملك أن يحافظ على رباطة جأشه ، ولظهر اضطرابه ومن جهة أخرى كان الى جانبي فرنسي ربح ثم خسر حوالي ثلاثين ألف فرنك ، وظل مرحا لم يلمح فيه أثر من آثار انفعال . فليس للاستقراطي الاصيل الحق أن يفعل ولو خسر ثروته كلها . يجب أن يظل المال دون الاستقراطي حتى لكأن الاستقراطي لا يكاد يحفل به أو يقلق له . ومن الاستقراطية طبعا الا يلاحظ المرء تماما كل تلك القذارة لهذا الجو كله ، ولهؤلاء الاوغاد كلهم ومع ذلك فان الموقف المناقض لا يقل ارستقراطية في بعض الأحيان عن الموقف الأول : أن تلاحظ هؤلاء الأوغاد جميعا ، أى أن تنظر اليهم ، بل أن تراقبهم وترصدهم أيضا ، ولو بالعينات . ولكن شريطة أن لا ترى في هذا الحشد كله وفي هذه القذارة كلها الا نوعا من تسلية ، الا تمثيلا أعد لدفع الملل عن الاستقراطي . وقد تقحم نفسك في هذا الحشد ، شريطة أن تنظر حواليك مقتنعا كل الاقتناع انك لست فيه الا مشاهدا ، وأنت لا محالة لست منه ولا هو منك . على أنه لا يليق أيضا أن تلاحظ بكثير من اللاحاح واللجاجة : والا لم تكن جديرا بصفة الاستقراطي ، لأن هذا المشهد لا يستحق

على كل حال أن تشد اليه انتباهك متصلا غير منقطع .
وقلّ بين المشاهد على وجه العموم مشهد يستحق من الاستقراطي
أن يشد اليه انتباهه متصلا غير منقطع . أما أنا فكنت
أحس أن هذا كله يستحق انتباهها مشدودا متصلا ، لا
سيما ممن لم يجئ ليلاحظ فحسب ، بل يعتبر نفسه
بصدق واخلاص متميا الى هؤلاء الأوغاد كلهم . ويجب
أن يكون واضحا في الأذهان أنه لا محل بالطبع فيما أسوقه
الآن من ملاحظات لآرائى الأخلاقية التى أضمرها فى قرارة
نفسى . ومهما يكن من أمر ، فانى أقول هذا الكلام
تخفيفا عن ضميرى . ولكننى أحرص على أن أضيف ما
يلى : لقد صرت فى الآونة الاخيرة أشعر بنفرة قوية من
اخضاع افكارى وأفعالى لأى مقياس أخلاقى . فقد كنت
مسيرا بشيء آخر . . .

ان الوغد يقامر حقا على نحو قدر . بل لست بعيدا
عن التفكير فى أن سرقات عادية تُتقرف هنا كثيرا حول
مائدة القمار . ان القيمين «الكروبييه» الجالسين عند أطراف
الموائد ، يراقبون المبالغ التى يضعها المراهنون ، ويجرون
الحسابات ، فيقومون بأعمال كثيرة جدا . ويا لهم من
أوغاد ، هم أيضا ! ان أكثرهم فرنسيون . على أننى اذا
كنت أجرى هذه الملاحظات ، فلست أفعل ذلك من
أجل أن أصف الروليت . فانما أنا أتلاءم مع الجو ، بغية
أن أعرف كيف أسلك فى المستقبل . لقد لاحظت مثلا
انك كثيرا ما ترى يدا تمتد على المائدة فجأة فتلمّ ما
تكون قد ربحته أنت . ويتبع ذلك أن تشب مشاجرة بطبيعة

الحال ، وأن يعلو صراخ . واني لأتحداك أن تستطيع البرهان
 باستشهاد الشهود على أن الربح كان ربحك أنت حقا !
 كانت هذه المسألة كلها ألغازا عسيرة على الحل في
 نظري . ولكنني تعلمت ، على نحو من الأنحاء ، أن
 المرء يراهن على أرقام (فاما شفع واما وتر) ، ويраهن على
 ألوان . فقررت أن أجازف في ذلك المساء بمائة غولدن
 من أموال بولينا ألكسندروفنا . غير أنه أزعجني أنني أقبل
 على اللعب لغيري لا لنفسى . كان ذلك احساسا شاقا الى
 أبعد حدود المشقة ، وتمنيت أن أتخلص منه بأقصى سرعة .
 كنت أشعر طوال الوقت أنني اذ أبدأ اللعب لحساب بولينا
 انما أخرب حظى أنا . هل يستحيل حقا أن يدنو المرء من مائدة
 القمار دون أن تسرى اليه عدوى الايمان بالخرافات فورا ؟ ومن
 أجل ان أبدأ أخرجت خمسة فردريكات * ، اى خمسين غولدنا ،
 فوضعتها على رقم شفع . ودارت الدائرة ، فربح الرقم ١٣ ؛ لقد
 خسرت اذن . فتألمت ألما شديدا ؛ ورغبةً منى فى الخلاص
 من هذه الورطة وفى الانصراف ، وضعت خمسة فردريكات
 أخرى على اللون الأحمر . فربح الأحمر . فوضعت الفردريكات
 العشرة كلها . . فربح الأحمر من جديد . فتركت المبلغ كله ،
 فربح الأحمر مرة ثالثة . فتناولت أربعين فردريكا ، فوضعت
 منها عشرينا على الأرقام الاثنى عشر من الوسط ، دون
 أن أعرف ما قد تعطيه هذه الأرقام . فدفع لى المبلغ
 ثلاثة أضعاف . فجأة استحالت فردريكاتى العشرة الى ثمانين .
 لكننى شعرت عندئذ باحساس غريب بلغت من العجز عن
 احتمالها أنني قررت أن أخرج من المكان . خيل الى أنني

لو كنت ألعب لنفسي لما لعبت على هذا النحو . ومع ذلك وضعت الثمانين فردريكا على رقم شفع . فربح الرقم «أربعة» : فنُقدت ثمانين فردريكا أخرى . فوضعت المائة والستين فردريكا في جيبي ومضيت باحثا عن بولينا ألكسندروفنا . كانوا يتزهون جميعا في الحديقة ، فلم أرها الا على العشاء . لم يكن الفرنسي هناك في هذه المرة ، فاستطاع الجنرال أن يتمتع بكامل حريته . وبالمناسبة اعتبر من واجبه ان ينبهني مرة أخرى الى أنه لا يجب أن يراني على مائدة القمار ، فهو يرى أنني لو خسرت كثيرا فسيسيئ ذلك الى سمعته اساءة كبيرة . ثم أضاف يقول بلهجة فخمة : «واذا ربحت كثيرا ، فان هذا أيضا سوف يسيء الى سمعتي . طبعاً ليس من حقي أن أتحكم في أفعالك ، ولكن يجب أن تقتنع أنت نفسك بأن . . .» ولم يكمل جملته بل تركها معلقة علي عاداته . فأجبت بلهجة جافة بأن ما أملكه من مال قليل جدا ، وانني اذن لن أخسر خسارة ظاهرة جدا ، ولو بدأت ألعب . وحين صعدت الى غرفتي أتبع لي أن أمد الى بولينا المبلغ الذي ربحته لها ، وقلت انني لن ألعب من أجلها بعد اليوم قط

فسألتنى بلهجة قلقة :

— لماذا ؟

فأجبت وأنا أنظر اليها دهشا

— لأنني أريد أن ألعب لنفسي ، لأن هذا يزعجني .

— اذن فما زلت تعتقد أن الروليت مخرجك الوحيد ،

وسيلك الوحيد الى الخلاص ؟ — ألقِ عليّ هذا السؤال

ساخرة . فأجبتها جادا كل الجد بأن هذا صحيح . أما عن يقيني بأنني سأربح لا محالة ، فأنني أسلم بأن ذلك يبدو مضحكا ، ولكن «دعوني وشأني» .

ألحت بوليننا ألكسندروفنا على ضرورة أن أقاسمها ربح ذلك اليوم ، ومدت اليّ ثمانين فردريكا ، عارضةً عليّ أن أستمّر في المقامرة على هذا الشرط . فرفضت رفضا قاطعا ، وأكدت لها أنني اذا كنت لا أستطيع ان أقامر للآخرين ، فما ذلك لأنتي لا أريد ذلك ، بل لأنتي واثق من الخسارة . قالت لي غارقة في التفكير :

— ومع ذلك ، فأنا أيضا لم يكد يبقى لي من أمل في غير الروليت . لهذا يجب عليك قطعاً أن تستمر في اللعب من أجلي على أساس المناصفة . وستفعل ذلك طبعاً . قالت هذا وتركتني دون أن تستمع اليّ احتجاجاتي





الفصل الثالث

مع ذلك لم تحدثني طوال أمس مرة واحدة عن اللعب .
وتحاشت بالأمس على وجه العموم أن تتجه اليّ بكلام .
انها لم تغير أساليبها في معاملتي . فاذا لقيتها قابلتني بعدم
الاكتراث المطلق نفسه ، وبنوع من شعور مبغض محققر .
ومهما يكن من أمر فانها لا تحاول حتى اخفاء نفورها مني ،
انني أرى ذلك . على أنها ، رغم هذا ، لا تخفي عني
أيضا أنها في حاجة اليّ ، وأنها تحتفظ بسي لغرض أجهله .
لقد نشأت بيننا صلوات غريبة يصعب على فهم أكثرها ،

هذا اذا نظرنا بعين الاعتبار الى ما تقابل به سائر الناس من زهو وغطرسة . انها تعرف مثلا اننى أحبها حب جنون . بل انها لتسمح لى أن أحدثها عن هيامى بها . وهل ثمة وسيلة أفضل من هذه الوسيلة لاطهار ازدرائها بى ؟ ان خير ما يمكن أن تفعله اظهارا لهذا الازدراء هو أن تتيح لى أن أحدثها عن حسى حديثا حرا طليقا لا تحول دونه حواجز أو حجب . فكأنها تقول : «اننى من قلة الاحتفال بعواطفك بحيث لا أكثرث أى اكتراث بكل ما قد تقوله ، بكل ما قد تعبر لى عنه من عواطف» . ولقد كانت تحدثنى فى الماضى ايضا عن شئونها ، ولكنها لم تكن فى يوم من الأيام مخلصه صادقه . أكثر من ذلك أنها فى استهانتها بى كانت تعمد الى «براعات» من هذا القبيل : هب أنها كانت تعلم أننى مطلع على ظرف من ظروف حياتها ، أو على احتمال من الاحتمالات يوقظ بعض المخاوف فى نفسها : لقد كانت تقص على من تلقاء نفسها بعض هذه الأحداث ، اذا هى كانت فى حاجة ، من أجل بلوغ أهدافها ، الى استخدامى عبدا أو ساعيا . ولكنها لم تكن تكشف لى الا عما لا بد من معرفته لانسان يوفد فى مهمة . حتى اذا ظل ترابط الوقائع مجهولا لدى ، ولاحظت أن عذابها يعذبنى وقلقها يقلقنى لم تتنازل أن تطمئننى طمأنة كاملة بصراحة كالصراحة التى تكون بين أصدقاء ، مع أننى أرى أنها ما دامت تعهد الىّ فى كثير من الأحيان بمهمات دقيقة بل ومحفوظة بالمخاطر فقد كان عليها أن تصارحنى . ولكن أراها كانت تحفل بعواطفى ، وتكثرث بمشاركتى اياها مخاوفها ،

وتهتم بضروب القلق التي كانت تثيرها في نفسى همومها
مضاعفةً ثلاث مرات في اغلب الظن !
كنت منذ ثلاثة أسابيع أعرف أنها عقدت نيتها على
أن تلعب الروليت . حتى لقد طلبت اليّ أن أتولى اللعب
نيابة عنها ، اذ لا يليق أن تلعب بنفسها . وقد لاحظتُ
من لهجة كلامها أن هناك أمرا هاما يشغل بالها ، ليس
مجرد الرغبة في ربح المال . والمال في ذاته لا يعينها !
لا شك أن هناك هدفا وظروفا أستطيع أن أحمّنها ولكنني
ما زلت أجهلها . واضح أن وضع الاستعداد والاذلال الذي
تضعني فيه سوف يتيح لى (وهو كثيرا ما يتيح لى ذلك)
أن أسألها بلا لف ولا دوران ولا كلفة . فما دمت عبدا
لها ، وما دمت حقيراً في نظرها ، فلا يمكن أن
تشر باهانة تلحقها اذا أنا لم ألتزم معها حدود الأدب ،
واذا أنا أظهرت شيئا من حب الاستطلاع . ولكنها في
الواقع ، رغم أنها تسمح لى أن أطرح عليها بعض الأسئلة ،
لا تجيب عليها ، بل انها في بعض الأحيان
لا توليها أى انتباه . تلکم كانت العلاقات بيننا !
ولقد تحدثوا أمس عندنا كثيرا عن برقية أرسلت الى
بطرسبرج منذ أربعة أيام ولم يصل جوابها الى الآن . كان
واضحا أن الجنرال مضطرب مشغول البال . لا شك أن
الموضوع يتعلق بالجدة . والفرنسى مضطرب أيضا من
ذلك أنهما ظلا يتحدثان ، أمس ، بعد العشاء ، زمنا
طويلا ، حديثا تبدو فيه علائم الجد . ان الفرنسى يصطنع
في معاملتنا أوضاعا متعالية متغطسة لا يصدقها العقل ؛

يصدق عليه المثل القائل : «تدعوه الى مائدتك فما يليث أن يضع فوقها قدميه» . وحتى مع بولينا يصل عدم تحرجه الى درجة الغلظة والفظاظة . ومع ذلك كان يشترك بكل سرور في الزهات العائلية بحديقة الكازينو ، أو في الزهات التي كانت الأسرة تقوم بها ركوبا على الخيل في الضواحي . لقد اطلعت منذ زمن طويل على بعض الظروف التي جعلت الفرنسي على علاقة بالجنرال : لقد كان في نيتهما أن ينشئا مصنعا في روسيا معا . ولست أدري الآن هل هُجر هذا المشروع أم هما ما يزالان يتكلمان فيه . أضف الى ذلك أنني وقعت عرضا على جزء من سر عائلي : ان الفرنسي قد اخرج الجنرال من مأزق حقا في العام الماضي ، اذ أقرضه ثلاثين ألف روبل اكتمالا للمبلغ الذي كان الجنرال يدين به للخزانة حين استقال من منصبه . وبديهي أن الجنرال هو الآن في قبضة الفرنسي . ولكن الآن ، والآن بالذات ، m-lle Blanche هي التي تمسك ، مع ذلك ، بالدور الأساسي في هذا كله ، وأنا على يقين من أنني لا اخطئ التقدير حين أقول هذا الكلام .

فمن هي m-lle Blanche ؟ يقال هنا عندنا انها فرنسية نبيلة ، تسافر مع أمها ، وتملك ثروة طائلة . ويقال أيضا انها تمت بقرابة بعيدة للمركز من جهة العمومة . ويروى أن علاقات m-lle Blanche بالمركز كانت قبل رحلتى الى باريس تتصف بمزيد من الكلفة والتأنق . أما الآن فان صداقتهما وقربتهما تظهران ظهورا أبعد عن التكلف وأقرب الى الصلة الحميمة . ولعل أوضاعنا تظهر لهما الآن

على حالة من السوء تجعلهما يريان أنه من غير المفيد أن يعمدا الى التظاهر والمراعاة والمداراة . وقد لاحظت أول أمس كيف كان مستر آستلى يتفرس في m-Ile Blanche وأنها . بدا لي أنه كان يعرفهما . حتى لقد اعتقدت أن صاحبنا الفرنسي قد سبق أن التقى هو أيضا بمستر آستلى . ومهما يكن من أمر فان مستر آستلى يبلغ من الخجل والحياء والصمت أنه قد يمكن أن يُعقد عليه أمل : فسيظل الغسيل الوسخ يغسل داخل الأسرة . والفرنسي لا يكاد يحويه على كل حال ، ولا يكاد يوليه أى انتباه . معنى ذلك أنه لا يخشاه . وهذا أمر أفهمه . ولكن لماذا تتجاهله m-Ile Blanche أيضا ؟ لا سيما وأن المركيز قد زل لسانه أمس فجأة اثناء الحديث (لا أتذكر الآن في أية مناسبة) فقال ان مستر آستلى ثرى ثراء فاحشا فهو يعرف ذلك . ولو صحَّ هذا لكان على m-Ile Blanche أن تنظر الى مستر آستلى ! على وجه العموم الجنرال قلق . ومن المفهوم مدى ما يمكن أن يكون الآن لبرقية قد تصل من موسكو معلنة موت عمته من خطورة الشأن عنده !

ورغم اقتناعي بأن بولينا كانت تتحاشى عن قصد أن يقوم بينى وبينها حديث ، فقد اصطنعت هيئة البرود وقلة الاكتراث : كنت أقدر أنها ستقرر فجأة أن تجيء الى . وعلى خلاف ذلك وجهت انتباهى كله ، أمس واليوم ، الى m-Ile Blanche . مسكين هذا الجنرال . انه ضائع لا محالة ! فلأن يهيم هذا الهيام كله ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، فتلك مصيبة ولا شك .

أضف الى ذلك ترملة ، وأولاده ، ودمار ضيعته ، والديون . .
وأخيرا هذه المرأة التي فتنت عقله وسحرت لبه . ان
m-lle Blanche جميلة ولكنني لا أدري هل يفهمني
القارئ اذا قلت ان وجهها هو من تلك الوجوه التي توقظ
الرعب في النفس . أنا على الأقل ، كنت أخاف دائما
هذا النوع من النساء . انها في نحو الخامسة والعشرين من
عمرها ، فارعة الطول ، عريضة الكتفين مستديرتهما ،
مكتنزة العنق والثديين ، لها بشرة بلون البرونز ، ولها شعر
أسود كأنه حبر صيني ، الى غزارة تكفي رأسين لا رأسا
واحدا . أما العينان فسوداوان ، الى اصفرار في بياضهما ،
وجرأة في نظرتهما . والأسنان ساطعة ، والشفتان مصطبقتان
دائما . والجسم كله يعبق بشذى كأنه المسك . وهي تحسن
اختيار ملابسها ثرية باذخة ولكن على ذوق مرهف أتيق .
قدمها ويدها رائعة . صوتها أبح . قد تضحك في بعض
الأحيان قهقهة فتظهر أسنانها كلها ، ولكنها في أكثر الأحيان
تظل صامتا صموتا فيه شيء من وقاحة ، على الأقل في
حضور بولينا وماريا فيليبونا (تزوج الآن اشاعة غريبة هي أن ماريا
فيليبونا عائدة الى روسيا) . ويخيل اليّ أن m-lle Blanche
ليست على شيء من ثقافة ، حتى لقد تكون غبية ، ولكنها
في مقابل ذلك شديدة الحذر مأكرة . وأعتقد أن حياتها
لم تخل من مغامرات . واذا قلنا كل شيء بصراحة فمن
الجائز جدا أن لا يكون بينها وبين المركز أية قرابة ، ومن
الجائز جدا أن لا تكون أمها أمها حقا . ولكن يبدو من
المعلومات المتوفرة أنها وأمها كانتا ، في برلين ، حيث

التقينا بهما ، على علاقات ببعض ذوى المكانة . أما
 المركيز ، فانى ما زلت أشك حتى الآن فى أنه مركيز ،
 أما أنه ينتمى الى المجتمع الراقى ، سواء عندنا فى موسكو
 أو فى ألمانيا ، فذلك أمر يبدو أنه لا مجال للريب فيه .
 لست أدرى ما هو فى فرنسا . يقال انه يملك هنالك قصرأ .
 وقد أيقنت أن مياها كثيرة كان لا بد أن تجرى
 تحت الجسور اثناء غيابهى خلال الأسبوعين ، ولكننى ما زلت
 لا أدرى على وجه الدقة هل تكاشف الجنرال و m-Ile Blanche
 بكلام حاسم . ومهما يكن من أمر فان كل شيء مرهون
 الآن بأحوالنا ، أى بمقدار المال الذى يمكن أن يلائه
 الجنرال أمامهم . فاذا عُرف مثلا أن الجدة ما تزال على
 قيد الحياة ، فيقبنى أن m-Ile Blanche ستختفى
 فوراً . انى لأدرك بنفسى أن من الغريب والمضحك أن
 يصبح المرء ناما ومشاء الى هذا الحد . وان ذلك كله
 ليثير فى نفسى اشمزازا كبيرا ! وما أشد ما ستكون فرحتى
 حين أترك هؤلاء الناس جميعا ، وهذه الامور كلها ! ولكن
 هل أستطيع أن أبتعد عن بولينا ، هل أستطيع أن لا أحوم
 حولها مستطلعا متجسسا ؟ صحيح أن التجسس أمر حقير .
 ولكننى لا أعبا بهذا !

أمس واليوم ، وجهت انتباهى الى مستر آستلى هو
 أيضا . نعم اننى مقتنع بأنه مولع ببولينا ! انه لطريف
 ومضحك كل ما قد تعبر عنه فى بعض الأحيان نظرة رجل
 عاشق ، يتصف بالخجل الشديد ، وبالخفر الى درجة المرض ،
 بينا هو يؤثر أن يغيب فى غياهب الأرض على أن يفضح

نفسه بكلمة أو بنظرة . اننا كثيرا ما نلتقى بمستر آستلى اثناء الزهرة : ينزع قبعته ويمضى فى طريقه وهو يحتسرق رغبة فى الانضمام الينا بغير شك . فاذا رجوناه أن ينضم الينا يرفض على الفور . وفى الاماكن التى نستريح فيها ، سواء بالكازينو أو عند الفرقة الموسيقية أو أمام نافورة المياه ، فانه يقف دائما على مقربة من مقعدنا . وحيثما نكن ، سواء فى الحديقة أو فى الغابة أو فى جبل شلانجنبرج ، يكفى أن ندير البصر من حولنا حتى نرى مستر آستلى فى أقرب ممر أو وراء دغل . يخيل الىّ أنه يبحث عن فرصة للتحدث معى خاصة . وقد التقينا فى هذا الصباح فتبادلنا بضع كلمات . انه فى بعض الأحيان يتكلم بجمل متقطعة . صاح يقول لى ، حتى قبل أن يحيينى تحية الصباح :

— آ.!..mademoiselle Blanche.. لقد رأيت

نساء كثيرات مثل mademoiselle Blanche!

قال ذلك وصمت ينظر الىّ نظرة بليغة . لا أدرى ما الذى أراد ان يقوله بهذا الكلام . ذلك أنه حين سألته : «ماذا تريد أن تقول؟» ، هز رأسه وهو يبتسم ابتسامة مأكرة ، وأردف :

— هكذا . . هل تحب mademoiselle Pauline

الأزهار كثيرا ؟

قلت :

— لا أعرف ، لا أعرف اطلاقا .

فصاح مشدوها

— كيف ؟ حتى هذا لا تعرفه ؟

— لا ، لا أعرفه . لم أفطن الى ذلك ولم أنتبه
اليه .
ذلك ما ردّدته وأنا أضحك .
— هيم . . هذا يعطيني فكرة .
قال ذلك ثم حياني بحركة من رأسه وتابع طريقه .
وكان وجهه ينم عن سرور على كل حال . وقد تحدثنا كلانا
بلغة فرنسية فظيعة .





الفصل الرابع

كان النهار مضحكا فاضحا سخيفا . هي الآن الساعة الحادية عشرة من المساء . وهانذا في غرفتي الصغيرة أحاول أن أرتب ذكرياتي . لقد ابتدأت الأمور في الصباح على النحو التالي : كان عليّ أن أذهب الى الروليت أقامر من اجل بولينا ألكسندروفنا . أخذت كل فدريكاتها المئة والستين ، ولكن على شرطين : أولهما أنني لا أقبل أن ألعب على أساس المناصفة ، أي انني اذا ربحت فلن آخذ لنفسى شيئا ؛ والثاني أن تشرح لي بولينا في المساء لماذا هي

فى مثل هذه الحاجة الماسة الى الربح ، وما هو المبلغ الذى تود أن تربحه كنت لا تستطيع أن أفترض أنها تريد ذلك للمال وحده . لقد كان واضحاً أنها فى حاجة كبيرة للمال ، وفى اسرع وقت ممكن لغرض خاص ما . فوعدتنى بولينا ان تشرح لى ذلك . ومضيت . الناس محتشدون فى قاعات القمار يسحق بعضهم بعضاً . ألا ما أشد وقاحتهم جميعاً ، وما أشد شراحتهم ! شققت طريقى بين الجمهور ووقفت قرب القيم . ثم بدأت اللعب وجلاً ، لا أجازف الا بفردريكين أو ثلاثة دفعة واحدة . وكنت أثناء ذلك أراقب وألاحظ . خيل اليّ أن جميع هذه الحسابات ليس لها كبير قيمة ، وليس لها من خطورة الشأن ما يزعمه لها كثير من اللاعبين . ان هؤلاء يجلسون هنالك وبين أيديهم أوراق مملوءة أرقاماً : فهم يسجلون الضربات ، ويعدون ، ويقدرّون الاحتمالات ، ويجرون عملية حسابية أخيرة ، ثم يراهنون بعد ذلك كله . فاذا هم يخسرون ، كما يخسر الناس البسطاء الذين يلعبون دون أى حساب . وفى مقابل ذلك استخرجت نتيجة تبدو صادقة : فالواقع أن تعاقب الحظوظ عرضاً يخضع لنوع من الترتيب ، ان لم يكن لنوع من النظام . ذلكم شيء غريب جداً بطبيعة الحال . انه يتفقُ مثلاً أن يعقب ظهور الأرقام الاثنى عشر الوسطى ، ظهور الأرقام الاثنى عشر الاخيرة . يحدث هذا مرتين مثلاً . فالضربة تقع على الأرقام الاثنى عشر الأخيرة ، ثم تنتقل الى الأرقام الاثنى عشر الأولى ؛ حتى اذا وقعت على الأرقام الاثنى عشر الأولى عادت الى الأرقام الاثنى عشر الوسطى .

وثلاث مرات أو أربعا متتالية تخرج الأرقام الوسطى ، ثم تخرج الأرقام الاثنا عشر الأخيرة من جديد ؛ وبعد دورتين تعود الى الأولى ، التي لا تخرج الا مرة واحدة ثم تخرج الأرقام الوسطى ثلاث مرات متتاليات ، ويستمر ذلك ساعة ونصف ساعة أو يستمر ساعتين . واحد ، ثلاثة ، اثنان . واحد ، ثلاثة ، اثنان . شيء عجيب جدا . وفي أحد الصباح أو في أحد الأصائل ترى الأسود والأحمر يتناوبان ، على غير نظام تقريبا ، وفي كل لحظة ، ولا يخرج كل لون الا مرتين متتاليتين أو ثلاثا حتى اذا جاء الغد أو كان المساء رأيت الأحمر وحده مثلا يخرج ، حتى لقد يظل يخرج اثنتين وعشرين مرة متتالية . ويستمر الحال على هذا المنوال زمنا ، وقد يستمر نهارا بأسره . اننى مدين بجزء كبير من هذه الملاحظات لمستمر آستلى الذى قضى الصباح كله قرب موائد اللعب ، لكنه لم يقامر ولو مرة . ولنعد الى ما حدث لى . لقد خسرت كل شيء حتى آخر قرش ، وذلك خلال برهة وجيزة . وضعت فى أول الأمر عشرين فردريكا على رقم شفع ، فربحت ، ووضعت خمسة فربحت مرة أخرى ، وهكذا مرتين أو ثلاثا . أعتقد أن المبلغ الذى تجمع بين بدى بعدئذ قد صار أربعمائة فردريك فى مدى خمس دقائق . وقد كان علىّ فى تلك اللحظة أن أنصرف ، ولكن احساسا غريبا قام فى نفسى هو رغبة فى استفزاز القدر ، فى نقر القدر على خده ، فى اخراج لسانى له . فجازفت بأكبر مبلغ تجوز المقامرة به : اربعة آلاف غولدن ، فخسرت . فازدادت حرارة رأسى فأخرجت كل ما كان قد

بقي لى ، فوضعتة حيث وضعت المبلغ الأول فى المرة السابقة فخسرت أيضا . عندئذ تركت المائدة طائش اللب مصعوقا . كنت عاجزا حتى عن استيعاب ما جرى لى ؛ ولم أبلغ بولينا ألكسندروفنا عشارى الا قبيل العشاء . أما ما قبل ذلك فقد ظللت أضرب فى الحديقة ذاهبا آيبا . واثناء العشاء كنت مضطربا كاضطرابى قبل ذلك بثلاثة أيام . وكان الفرنسى و m-Ile Blanche ما يزالان يتناولان طعام العشاء معنا . وقد اتفق أن m-Ile Blanche كانت فى الصباح بالكازينو فشهدت مآثرى . فرأيتها فى هذه المرة تخاطبنى بمزيد من الاعتبار . أما الفرنسى فقد مضى بخطوات أسرع وأصرح فسألنى من غير لف ولا دوران هل المال الذى خسرتة كان مالى أنا . أعتقد أنه يقدر أن المال مال بولينا . على اية حال كان ثمة شىء ما وراء هذا . فما لبثت أن ارتجلت الجواب فقلت ان المال الذى خسرتة مالى .

كان الجنرال دهشا الى أقصى حدود الدهشة : من أين جئت بهذا المبلغ كله ؟ فشرحت له اننى قد بدأت المقامرة بعشرة فردريكات ، فلما ضاعفت المبلغ بعد ذلك ست مرات متتالية أو سبعا أصبح ما معى يبلغ خمسة آلاف غولدن أو ستة ، خسرتها بعدئذ فى ضربتين اثنتين . هذا الكلام كله يحتمل التصديق طبعاً . ولقد كنت أنظر الى بولينا اثناء ارتجالى تلك الشروح ، فلم أستطع أن أكشف فى وجهها عن أى تعبير . لكنها تركنى أتم كلامى دون أن تصحّحه . فاستتجت من ذلك أنه كان

على أن أكذب وأن أخفى أنني قأمرت من أجلها . ومهما يكن من أمر فقد قلت لنفسى : ان عليها أن تشرح لى الليلة ما وعدتني بشرحه فى هذا الصباح
وكنت أحسب أن الجنرال سيىدى لى ملاحظة ما ، ولكنه لزم الصمت . وفى مقابل ذلك ، رأيت فى وجهه أنه كان مضطربا قلقلًا . لعله ، وهو يعانى ما يعانىه من مصاعب ، لم يزد على أن آلمه أن يسمع واحدا من الناس يذكر أن كومة كهذه الكومة الكبيرة من الذهب قد صارت واخفتت فى مدى ربع ساعة بين يدى غبى يبلغ هذا المبلغ كله من الطيش الذى أبلغه أنا حسب تصوره .
وأغلب الظن أنه قد نشبت بينه وبين الفرنسى فى مساء أمس مناقشة حادة . لقد تحدثا حديثا حارا عنيقا خلال مدة طويلة ، بعد أن أحكما اقفال باب الغرفة عليهما بالمفتاح . وخرج الفرنسى من الاجتماع حانقا غاضبا .
وعاد فى هذا الصباح يلقي الجنرال مبكرا . . لاستئناف حديث الليلة البارحة ما فى ذلك شك .
حين علم الفرنسى بخسارتى نبهنى بلهجة ساخرة ، وشيء من الخبث والمكر ، الى أن على المرء أن يكون أقرب الى التعقل والتبصر . ولا أدرى لماذا أضاف الى ذلك قوله ان الروس عاجزون فى رأيه حتى عن المقامرة رغم أنهم كثيرا ما يقامرون
فقلت :

— فى رأيسى أنا أن الروليت لم تخرع الا للروس . فلما رأيت الفرنسى يُسمى ضحكة صغيرة تحمل معنى

الاحتقار ، لفت نظره الى أنني على حق طبعاً ، ذلك أن وصفى للروس بأنهم مقامرون يشتمل على تقريع أكثر كثيراً مما يشتمل على اطراء . فعليه اذن أن يوافق على ما قلت . فسألنى الفرنسى :

— على أى أساس تبنى رأيك ؟

— على أساس أن القدرة على جمع رؤوس الأموال قد دخلت ، خلال التاريخ ، فى سجل فضائل الانسان الغربى المتمدن ومزايهه ؛ بل لعلها أصبحت البند الرئيسى فى هذا السجل . أما الروسى فليس عاجزا عن جمع رؤوس الأموال فحسب ، بل ايضا يعثر هذه الأموال هنا وهناك دون أية فائدة وبفضاعة . ونحن الروس فى حاجة أيضا الى مال على كل حال . لذلك ترانا متهاكين على وسائل ، كاروليت وما اليها ، نستطيع بها أن نحصل ثروة طائلة على حين بغتة خلال ساعتين من غير أن نعمل . ان هذا يفرينا ويفتن لبنا . ولما كنا نقامر بلا تعقل ونخبط خبط عشواء دون أن يسوءنا ذلك ، فاننا نخسر !

قال الفرنسى موافقا على خيلاء :

— هذا صحيح بعض الصحة .

فقال الجنرال بلهجة قاسية متفخمة :

— بل هو خطأ . وعار عليك أن تقول مثل هذا

الكلام فى حق بلدك

فأجبت قائلا :

— عفوك . . اننا لا نستطيع أن نقول أيضا أى الامرين

أقبح : أطيش الروس أم أسلوب الألمان فى جمع المال

بالعمل الشاق الشريف ؟

صاح الجنرال متعجبا :

— يا لها من فكرة بشعة !

وصاح الفرنسى :

— فكرة روسية حقا !

وكنت أضحك . كنت أحترق شوقا الى وحزهما

واستفزازهما ، فقلت :

— انى لأوثر طوال حياتى أن أعيش حياة بدواة مترحلة

فى خيمة من خيام الكرغيز على أن أعبد معبود الألمان .

فقال الجنرال وقد بلغ غضبه مبلغ الجد :

— أى معبود ؟

— أسلوب الألمان فى تكديس الثروات . انى هنا

منذ وقت قصير ، ومع ذلك فان الأمور التى أتاح لى هذا

الوقت القصير أن ألاحظها وأن أتحقق منها تشير طبيعتى التتريه

وتبعثها على التمرد . يمينا اننى لا أريد لى نفسى تلك الفضائل !

لقد قطعت أمس حوالى عشرة فراسخ فى الضواحي . ان

ما رأيته هو عين ما نقرؤه فى تلك الكتب الألمانية الصغيرة

التي تدعو الى مكارم الأخلاق وتزدان بالصور : لكل بيت

ههنا «فاتر» * رهيب التمسك بالفضائل ، خارق التشبث

بمزاياء النزاهة : هو من ذلك كله بحيث يخاف المرء أن

يدنو منه . اننى لا أطيق أولئك الشرفاء الذين يخشى المرء

أن يقترب منهم . ولكل «فاتر» أسرة يجتمع أفرادها كل

مساء يقرأون جميعهم كتباً مثقفة بصوت عال ؛ وفوق البيت

الصغير يسمع حفيف أشجار الدردار والكستناء .. غروب الشمس ..

لقلق على السطح . . كل ذلك شعري مؤثر الى أقصى الحدود . . .

لا تغضب يا سيدى الجنرال ، وسمح لى أن اتكلم
بالأسلوب الذى يؤثر فى القلب . أذكر أن المرحوم أبى
كان يقرأ لنا كتباً من هذا القبيل ، يقرأها لى ولأمى ،
فى المساء ، تحت أشجار الزيزفون فى حديقتنا الصغيرة . . .
فأنا اذن قادر على أن أقطع فى الأمر برأى . ان كل أسرة
هنا يستعبدها «فاتر» استعبادا كاملا . انهم جميعا يعملون
كأبقار ويكتزون المال كيهود . فلنفرض ان الأب قد سبق
أن جمع مبلغا من المال ، وينوى أن يورث ابنه الأكبر
مهنته أو أرضه : فمن أجل ذلك لا يمهر بنته ، وبالتالي
لن تتزوج . ومن أجل ذلك أيضا يبيعون الابن الأصغر
خادما أو جنديا فيضمون ثمنه الى الميراث . هذا صحيح .
هذا ما يحدث هنا . لقد سألت فعرفت أن هذا ما يحدث .
وذلك كله انما مصدره التزاهة ، مصدره نزاهة مسرفة الى
أبعد حدود الاسراف ، حتى ليعتقد الابن الأصغر الذى
باعوه ، اعتقادا جازما ، انهم انما باعوه بداعى التزاهة .
ذلك هو المثل الأعلى حقا ، حين تغتبط الضحية نفسها
باقبيادها الى التضحية بها ! ثم ماذا بعد ذلك ؟ ان الابن
الأكبر لن تكون حياته أملاً بالفرح : ان له فتاة يحبها
قلبه ، ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها ، اذ لم يُجمع بعدُ
مبلغ كاف من الغولدينات . وها هما ينتظران متمسكين
بأهداب الفضيلة والاخلاص ، ويمضيان الى التضحية مبسمين .
وتأخذ وجتنا الفتاة بالتخدر ، ويجف ماؤهما وأخيرا ،

بعد عشرين عاما ، يكون مالهما قد ازداد ، فالغولديينات تكدست بالاخلاص والفضيلة . فيبارك «فاتر» ابنه الأكبر الذى بلغ الأربعين ، والفتاة التى بلغت الخامسة والثلاثين ، فذبل منها الصدر واحمر الأنف . . . ويكى الأب فى هذه المناسبة ، ويعظ بمكارم الأخلاق ، ويلفظ انفاسه . ويصبح الولد الأكبر «فاتر» فاضلا هو أيضا ، وتكرر الحكاية . حتى اذا انقضى خمسون عاما أو سبعون كان حفيد «فاتر» الأول قد جمع حقا رأس مال ضخيم ، فتركه لابنه ثم أورثه هذا ابنه ، وهذا ابنه وبعد خمسة أجيال أو ستة يظهر البارون روتشيلد بشخصه أو يظهر هوب وشركاه * ، أو يظهر لا أدرى أى شيطان ! أليس هذا مشهدا فخما رائعا : قرن أو قرنان من عمل استخلافي وصبر دائب وذكاء نشيط ، ونزاهة كاملة ، وطاقة مستمرة ، وحزم صلب ، وتبصر بالمستقبل ولقلق على السطح ! ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لا شيء أروع من هذا ولا أرفع : ومن وجهة النظر هذه انما يأخذون يحكمون على العالم بأسره ، ويعاقبون المذنبين ، أى أولئك الذين يختلفون عنهم ولو أيسر الاختلاف ! ألا ان الاستهتار على الطريقة الروسية أو جنى الثراء بالروليت أحب الى نفسى وآثر فى قلبى . لا أريد أن أكون هوب وشركاه فى ختام خمسة أجيال . اننى فى حاجة الى مال لنفسى ، ولا أعتبر نفسى شيئا ضرورياً لرأس مال ومضافاً اليه . أعرف أننى قلت سخافات كثيرة . ولكن لا ضير . . . تلکم هى آرانى .

قال الجنرال مفكرا واجما :

— لا أدرى هل يشتمل كلامك على جانب من حق ،

غير أن هناك شيئا أنا منه على يقين ، وهو أنك تبدى
غرورا لا يطاق متى ترك لك الجبل على الغارب . .
ولم يكمل الجنرال جملته ، على عادته حين يعالج
موضوعا أوسع قليلا من موضوعات الأحاديث العادية . ان
جنرالنا لا يتم أبدا جملة في مثل هذه الأحوال . وكان
الفرنسي يصفى الى الكلام محملا وقد اتخذ وضع من لا
يكثرث به . انه لم يفهم شيئا تقريبا مما تكلمت عنه .
وكانت بوليننا تظهر بمظهر متعال لا يبالي ؛ حتى لكأنها
لم تسمع شيئا لا من كلامي فحسب بل ومن كل الأحاديث
التي دارت هذه المرة على المائدة .





الفصل الخامس

كانت حاملة مفكّرة أكثر مما تكون كذلك في العادة .
ولكن ما ان نهضنا عن المائدة حتى أمرتني بأن أرافقها في
الترهة . فأخذنا الأطفال ومضينا الى نافورة المياه في الحديقة .
واذ كنت مهتاجا شديد الاحتياج ، فقد سألتها في
حماقة وفضاظة وسرعة ، لماذا أرى أن صاحبنا المركيز
دى جريو ، الفرنسي الصغير ، أصبح لا يقتصر على أن
لا يصحبها حين تخرج ، بل يبقى كذلك أياما برمتها لا
يخاطبها بكلمة .

فأجابتنى بصوت غريب :

— لأنه وغد .

لم يسبق قط أن سمعتها تتكلم عن دى جريو بهذه الطريقة ، فصمت ، خشية أن أفهم سبب هذا الانزعاج .
ثم قلت :

— هل لاحظت أنه كان اليوم على غير وفاق مع

الجنرال ؟

فأجابت بلهجة جافة مغتظة :

— انت تريد أن تعرف ما هو جوهر الأمر . أنت

تعلم أنه أقرض الجنرال مالا على رهن جميع أملاك الجنرال .
فاذا لم تمت الجدة آلت الرهائن كلها الى الفرنسى ، فأصبح هو مالكها .

— أصبح اذن أن كل شيء قد رهن ؟ لقد سمعت

عن هذا الأمر ، لكننى لم أعرف انه رهن كل شيء بالتمام .

— بلى !

قلت :

— وداعا اذن يا **mademoiselle Blanche**

انها لن تصبح زوجة الجنرال اذن ! هل

تعلمين أنه يخيل الى أن الجنرال قد بلغ من

فرط هيامه بـ **mademoiselle Blanche** أنه سوف يتتحر

اذا هى هجرته . ان الغرام العنيف خطر جدا فى مثل سنه .

قالت بولينيا ألكسندروفنا حالمة شاردة :

— أعتقد أيضا أنه سيقع له شيء ما .

صحت قائلا :

— ألا ما أروع هذا ! ما من برهان أعنف من هذا البرهان على أنها لم تكن راضية بالزواج منه الا فى سبيل المال . لم يُراع هنا حتى أصول اللياقة والحشمة ، ولم يُحفل بشيء البتة . هذا رائع ! ثم ما هذا الذى يعمدون اليه فيما يتعلق بالجدة ؟ هل هناك ما هو أسخف أو أخط من ارسال البرقية تلو البرقية ليسألوا : «هل ماتت ؟ هل ماتت ؟» ما رأيك يا بولينيا ألكسندروفنا ؟

قالت تقاطعنى مشمثة :

— ما هذا الكلام كله الا سخافات غبية . وانى ليدهشنى أن تكون فرح المزاج الى هذا الحد . ما الذى يبهجك ؟ أترارك مبهيجا لأنك خسرت مالى ؟

— لماذا أعطيتنى هذا المال لأخسره ؟ لقد قلت لك اننى لا أستطيع أن ألعب لغيرى ، ولا سيما لك أنت . اننى أطيع كل ما يمكن أن تأمرينى به ولكننى غير مسؤول عن النتيجة . وقد حذرتك مع ذلك ، قائلا انه لن يخرج من هذا كله خير . ولكن قولى : هل يؤثر فيك كثيرا أن تخسرى مثل هذا المبلغ الضخم من المال ؟ لماذا تحتاجين الى مثل هذا المبلغ ؟

— لماذا هذه الاسئلة ؟

— ولكنك وعدتني أن تشرحى لى الأمور . . . اسمعى : أنا مقتنع بأننى اذا أخذت ألعب لنفسى (وعندى اثنا عشر فردريكا) فلسوف أربح . وسأعطيك عندئذ كل ما تريدينه من مال .

فنظرت الى نظرة احتقار . فتابعت أقول

— لا تغضبى منى اذا أنا عرضت عليك هذا .
فان شعورى هو من شدة الامتلاء بأننى فى نظرك «صفر»
بحيث تستطيعين أن تقبلى منى حتى مالا . ليس بضيرك
ولا يلحق بك اهانة أن أقدم اليك هدية . ثم اننى قد
خسرت مالك .

فرشقتنى بنظرة عجلى ؛ واذ لاحظت أننى أتكلم
حانقا ساخرا ، قاطعتنى مرة أخرى قائلة :
— لا شىء من أمورى يمكن أن يعينك . فاذا حرصت
على أن تعرف ، فاعلم أن على ديونا . لقد اقترضت مالا ،
وأود أن أرد المال الى صاحبه . لقد راودتنى فكرة مجنونة
غريبة هى أننى سأربح هنا فى القمار . لماذا ؟ لا أدرى .
ولكننى كنت أعتقد أننى سأربح . ومن يدرى ؟ لعل هذا
الأمل قد استقر فى نفسى لأننى لم يكن لى خيار ، ولأن
الربح فى القمار كان آخر حظ يمكن أن أعول عليه .
— أو لأنه كان ينبغى الربح مهما كلف الأمر ؛
مثلك فى ذلك كمثل انسان يغرق فاذا هو يتشبث بقشة .
أكان يحسب القشة جذع شجرة لولا أنه كان بسبيل أن
يغرق ؟

ظهرت الدهشة على بوليننا . فسألتنى :
— كيف ؟ أليس يراودك هذا الأمل نفسه انت أيضا ؟
لقد قلت لى منذ أسبوعين ، وأنت تطنب فى الشرح ،
انك واثق من الربح هنا فى الروليت ؛ ورجوتنى أن لا أنظر
اليك نظرتى الى مجنون . أكنت تمزح آنذاك ؟ لكننى
أذكر أنك كنت تتكلم بلهجة تبلغ من الجذ أن المرء

يستحيل عليه أن يحمل كلامك على محمل المزاح .
قلت مفكرا :

— صحيح . وما زلت واثقا كل الثقة أنني سأربح .
بل انى لأعترف لك بأنك تقوديني الآن الى أن أطرح
على نفسى هذا السؤال : لماذا لم تؤد هذه الخسارة الغبية
الفاضحة التى خسرتها اليوم الى ادخال الشك فى نفسى ؟
اننى ما زلت مقتنعا بأننى رابح حتما متى لعبت لنفسى لا
لغيرى .

— لماذا هذا الاقتناع كله ؟
— الحق اننى لا أدرى . لكننى أعرف انه يجب
أن أربح ، وأن هذا الربح مخرجى الوحيد أيضا . ولعل
هذا هو السبب فى شعورى بأننى سأربح لا محالة .
— اذن يجب أيضا أن تربح مهما كلف الأمر ،
ما دمت على هذا اليقين المتعصب . أليس كذلك ؟
— أراهن انك تشكين فى أن يكون من الجائز أنني
أشعر بضرورة ماسة وحاجة ملحة ؟

قالت بولينيا بلهجة هادئة غير مكترثة :
— ذلك أمر لا يعينى فى شيء . ولكن ما دمت
تسألنى فأنا أقول لك : نعم . اننى أشك فى أن يكون
هناك شيء يعذبك عذابا عميقا . فلقد تشعر ببعض عذاب ،
ولكن عذابك لا يمكن أن يكون خطيرا . أنت امرؤ مشوش لا
تستقر على حال . ما حاجتك الى المال ؟ اننى فى كل
ما ذكرته لى من أسباب ، ذلك اليوم ، لم أجد شيئا
ذا بال

قاطعتها قائلا :

— بالمناسبة ، قلت انك فى حاجة الى سداد دين ،
دين كبير فيما يخيل الى . أليس الفرنسى هو الدائن ؟
— ما هذه الأسئلة ؟ انك اليوم حاد بصفة خاصة .
أترك سكران ؟

— أنت تعلمين أننى أبيع لنفسى أن أقول كل شىء ،
وأن أطرح فى بعض الأحيان أسئلة مباشرة جدا . فأنا عبدك ،
وما يستحى امرؤ من عبده ، ولا يشعر امرؤ بشىء من غضاضة
أمام عبده .

— يا لها من سخافات ! اننى لا أطيق نظرية «العبودية»
هذه التى تعرضها !

— لاحظى أننى لا أتكلم عن عبوديتى لأننى أرغب
فى أن أكون عبدك . وانما أنا أتكلم عنها كشىء مستقل
عن ارادتى كل الاستقلال .

— قل لى بصراحة : لماذا أنت فى حاجة الى مال ؟
— وأنت لماذا تريدان أن تعرفى ذلك ؟
فأجابت تقول وهى تهز رأسها بحركة ملأى كبرياء :
— أنت حر . . .

قلت :

— أنت لا تطيقين نظرية العبودية ، ولكنك تطلبين
أن يستعبد لك المرء : «أجب دون أن تناقش !» هذا
لسان حالك . ألا فليكن ما تريدان : لماذا أنا فى حاجة
الى مال ؟ هذا سؤالك . ويا له من سؤال . ان المال
هو . . كل شىء !

— مفهوم . ولكن يجب أن لا يجن المرء هذا الجنون
كله رغبة في المال ! ذلك أنتى أرى أنك تمضى الى
حد الهذيان والقدرية . . ان ثمة شيئا بعينه ، ان هناك
هدفا بذاته . تكلم بلا لف ولا دوران . أريد هذا .
لكنها أخذت تغتاظ . وملأنى افتتاناً أن أراها تظل
تطرح على أسئلة بهذه اللهجة الغضبية
قلت :

— ان لى هدفا ولا شك . ولكننى لا أعرف كيف
أشرح لك ما هو هذا الهدف . كل ما هنالك أنتى بالمال
سأصبح رجلا آخر ، حتى فى نظرك أنت ، فما أبقى
عبدا

— كيف ؟ كيف تصل الى هذا ؟

— كيف أصل الى هذا ؟ انك لا تستطيعين حتى
أن تفهمى أن فى امكانى أن أصل الى أن تنظرى الى
نظرتك الى انسان غير عبد ! وذلك بعينه هو ما أصبحت
لا أريده . أصبحت لا أريد هذه الدهشات وهذه الاستغرابات .
— كنت تقول ان هذه العبودية تهيبك لك لذائد
عذبة . وكنت أنا أصدق هذا الكلام .

صحت أقول وأنا أشعر بلذة غريبة نادرة :

— كنت تصدقين ذلك ؟ يا لها من سداجة جميلة !
نعم ان العبودية التى تخضعينى لها هى عندى لذة عذبة .
ان المرء ليجد لذة فى أدنى درجة من درجات الانحطاط
والمذلة ! (كذلك استمرت أهذى) . ومن يدرى ؟ فلعل
المرء يجد هذه اللذة العذبة أيضا تحت ضربات السوط

حين يهوى على ظهره ويسلخ جلده . . . ولكن لعلنى أريد
أن أشعر بمتع أخرى . . منذ قليل ، قرعنى الجنرال أمامك ،
من أجل سبعمائة روبل قد لا أقبضها يوما ؛ ورفع المريكز
دى جريو حاجبيه يتفرسنى متظاهرا فى الوقت نفسه بأنه
يجهل وجودى . هذا على حين أنتى ربما كنت ، من
جهتى ، أحترق شوقا الى أن أمسك بالمريكز ، أمامك ،
من أرنبه أنفه .

— كلام صبية أغرار ! ان فى وسع المرء ، فى
كل ظرف من الظروف ، أن يظهر بمظهر يحفظ له كرامته .
ان الكفاح يرفع قدر الانسان ولا يخفضه

— جمل محفوظة من كتب الأدب ! حاولى وافترضى
أنتى قد لا أحسن الظهور بمظهر يحفظ كرامتى ، وأنتى
على كونى انسانا ذا كرامة ، لا أعرف كيف اظهر بمظهر
يصون الكرامة . هل تفهمين أن الأمر يمكن أن يكون
كذلك ؟ ألا ان جميع الروس هكذا . وهل تعرفين لماذا ؟
لأن الروس يبلغون من غنى المواهب وتنوعها أنهم يعجزون
عن أن يجدوا ، بسرعة ، شكلا يناسبهم . أما هنا فالشكل
هو الأمر الهام . اننا ، نحن معشر الروس ، على الاغلب ،
نبلى من غنى المواهب أنه لا بد لنا من عبقرية حتى نجد
لأنفسنا شكلا مناسبا . ونحن فى أغلب الأحيان تعوزنا
العبقرية ، لأن العبقرية شىء نادر جدا على وجه العموم .
ان الشكل ، لدى الفرنسيين وربما لدى أوروبيين آخرين
أيضا ، يبلغ من كمال التحديد ودقة التعيين أن من الممكن
أن يظهر المرء بمظهر كريم الى أبعد حدود الكرامة ولو

كان أبعد الناس عن الكرامة . هذا هو السبب الذى يجعل للشكل لديهم هذه الاهمية كلها . ان الفرنسى قد يتحمل اهانة من الاهانات دون أن يقطب جبينه غيظا ، مع أن الاهانة قد تكون عميقة ، حقيقية ؛ ولكنه لن يتحمل بحال من الأحوال نقرة على أنفه بسبابة ، لأن ذلك مخالف لشكل الآداب المقرر التقليدى . ولئن كنا نرى الفرنسيين يظفرون بهذه الحظوة وهذا النجاح لدى بناتنا ، فلأن لهم شكلا حسنا . على أننى ، من جهتى ، لا أرى هنا أى شكل وانما أرى ديكا ، ⁽¹⁾ le coq gaulois . ولست بمن يستطيع أن يفهم هذا على كل حال ، لأننى لست امرأة . ولعل فى الديكة خيرا أجهله . ولكننى أقول ترهات ثم أنت لا توقفينى عن الكلام . ألا أوقفينى أكثر من ذلك . حين أتحدث اليك فأننى أحب أن أقول كل ما فى قلبى ، كله ، كله . فأفقد القدرة على مراعاة أى شكل . بل اننى أعترف أننى لا أفتقد الشكل فحسب ، بل تعوزنى كل مزية . أصرح لك بهذا . حتى اننى لا أحفل بأية مزية . لقد تجمد الآن كل شيء فى نفسى . وأنت تعرفين سبب ذلك . لم يبق فى ذهنى فكرة انسانية واحدة . أصبحت منذ زمن طويل لا أعرف ماذا يجرى فى العالم ، لا فى روسيا ولا هنا . هذا مثل : لقد مررت بمدينة درسدن ، ونسيت ماذا تشبه هذه المدينة . انك تعرفين ما الذى يستغرقنى . . واذا لم يكن لى أى أمل ، واذا كنت فى

⁽¹⁾ ديكا من ديوك بلاد الغال . (بالفرنسية فى الأصل) .

نظرك صفرا ، فانتى أسوق كلامى صريحا : اننى لا أرى
فى أى مكان شيئا سواك ، وكل ما عداك فهو عندى سواء .
لماذا أحبك ؟ وكيف أحبك ؟ لا أدرى . قد لا تكونين
من الجمال على شىء البتة . هل تتصورين أننى لا أعرف
أنت جميلة أم لا ، حتى من ناحية جمال الوجه ؟ أما
قلبك فسئى ولا شك ، وأما فكرك فمن الجائر جدا أن
يكون مجردا من كل رفعة ونبيل .

فقلت :

— فلعلك لعدم ايمانك بنبلى تعول على أن تشترينى

اذن بالمال ؟

هتفت أقول :

— متى عولت على أن أشتريك بالمال ؟

— لقد ضللت الطريق ، وفقدت المنطق . ان لم

تكن تأمل أن تشترينى أنا بالمال ، فان اعتبارى لك هو ما
تأمل أن تشتريه .

— ليس الأمر كذلك تماما . قلت لك ان من الصعب

على أن أشرح ما بنفسى . انك تسحقيننى سحقا . لا تغضبنيك

ثرثرتى . انت تفهمين لماذا يجب أن لا يزعل منى . أنا

امرؤ مجنون ، هذا كل ما فى الأمر . على أن ذلك لا

يهمنى ، فازعلى اذا شئت . انه ليكفينى وأنا بغرفتى الصغيرة ،

فى أعلى ، أن أتذكر أو أن اتخيل حفيف ثوبك حتى أكون

مستعدا لعضى أصابعى . لماذا زعلت منى ؟ الأنتى أعلن

أننى عبدك ؟ استفيدى من عبوديتى ، استفيدى منها ! هل

تعلمين أننى سأقتلك فى ذات يوم ؟ لا غيرة ولا لأننى

أكون قد انتهيت من حبك ! لا ، وانما سأقتلك لمجرد
أننى أشعر فى بعض الأحيان برغبة فى أن ألتهمك . انك
تضحكين

قالت بلهجة غضبى :

— لست أضحك اطلاقا . ولكننى آمرك ان تسكت .
وتوقفت ، وهى تختنق غضبا . شهد الله لا أدرى أهى
جميلة ، لكننى أحب أن أنظر إليها حين تتوقف أمامى هذا
التوقف ؛ ومن اجل ذلك انما أحب أن أستثير غضبها .
ولعلها لاحظت هى ذلك ، فتعمدت أن تغضب . وقلت لها
ذلك . فصاحت مشمّرة

— يا للشناعة !

واستأنفت كلامى قائلا :

— يستوى عندى . . ثم اعلمى أيضا أن من الخطر
أن تنتزه معا : فكثيرا ما تراودنى رغبة لا تقاوم فى أن
أضربك ، فى أن أشوهك ، فى أن أخنقك . أتظنين أن
الأمر لا يمكن أن يمضى الى هذا الحد ؟ سوف تغيبيننى
الى درجة الهذيان . أتحسبن اننى أخشى الفضيحة ؟ أتحسبن
أننى أخشى سخطك ؟ أنا استخف بسخطك ! اننى أحبك
بغير أمل ، وأعرف أن حى لك سيزداد بعد ذلك ألف مرة .
وإذا قتلتك يوما فسيكون على أن أقتل نفسى أيضا . ولكننى
سأؤجل قتل نفسى ما استطعت ، حتى أشعر من فراقك
بذلك العذاب الذى لا يطاق ! هل تصدقين هذا الشئ
الذى لا يصدق : أننى فى كل يوم أحبك أكثر مما كنت
أحبك فى اليوم السابق ؛ وهذا أمر مستحيل مع ذلك !

أفتريدين بعد ذلك أن لا أومن بالقدر ؟ تذكرى : لقد قلت لك أول أمس ، ونحن على جبل شلانجنبرج ، قلت لك بصوت خافت جدا ، حين تحديتنى : «قولى كلمة واحدة ، فأرمى بنفسى الى الهاوية» . لو أنك قلت تلك الكلمة اذن لرميت نفسى . أنت تصدقين هذا ، أليس كذلك ؟
صاحت تقول :

— يا لها من ثرثرة غبية !

فصحت أقول :

— يستوى عندى أن تكون غبية أو ذكية . أنا أعلم أننى حين أكون معك أحتاج الى أن أتكلم ، أن أتكلم ، أن أتكلم . . . فأتكلم . اننى حين أكون معك أفقد حب نفسى كله ، وليس يهمنى هذا .

قالت بلهجة خشنة ، فيها نبرة مهينة خاصة :

— فيم عسانى أجبرك على أن تلقى بنفسك من قمة جبل شلانجنبرج ؟ بالنسبة لى لا فائدة من هذا البتة .
هتفت أقول :

— رائع ! لقد استعملت هذا التعبير الرائع عامدة لاذلالى : «لا فائدة» . كشفتك . تقولين : «لا فائدة» . ولكن اللذة مفيدة دائما ، والسلطة المتوحشة التى لا حدود لها نوع من المتعة ، ولو كانت سلطة على ذبابة . الانسان ظالم بطبيعته : انه يحب التعذيب . وأنت تحبين هذا جدا . أذكر أنها كانت تفرسنى بانتباه خاص . لا شك أن وجهى كان يعبر عندئذ عن جميع الاحساسات السخيفة الخارقة التى كنت أشعر بها . وأذكر الآن أن حديثنا

قد جرى بهذه الألفاظ نفسها التي أوردتها هنا — تقريباً . كانت عيناى محتمتين دما . وكان الزيد يصعد الى شفتى . أما عن قصة جبل شلانجنبرج ، فأقسم بشرفى ، حتى هذه اللحظة ، لكنى ألقى بنفسى الى تحت لو أمرتنى بذلك ! ولكنى أفعل حتى ولو طلبته منى مازحة محتقرة باصقة على !

قالت : — لا ، لماذا ؟ اننى أصدقك . — ولكنها قالت ذلك بتلك اللهجة التى تجيد وحدها استعمالها ، بلهجة تبلغ من الاحتقار والمكر والتعالى ما كان يمكن أن يدفعنى الى قتلها فى تلك اللحظة . لقد عرضت نفسها لمثل هذا فعلا . ولم أكذب عليها حين قلت لها ذلك . سألتنى فجأة :

— ألسن جيانا ؟

— لا أدرى . قد أكون كذلك . لا أدرى . . . منذ زمن طويل لم أسأل نفسى هذا السؤال .

— هبنى قلت لك : «أقتل هذا الرجل» . . أفقتله ؟

— من ؟

— من أريد

— الفرنسى ؟

— لا تسألنى بل أجبنى . أتقتل من أسألك أن تقتله ؟

أريد أن أعرف هل كنت جادا فيما كنت تقوله منذ هنيهة . كانت من شدة الاهتمام ونفاد الصبر فى انتظار جوابى ، اننى دهشت حقا . فهتفت أقول :

— هلا قلت أخيرا ماذا يحدث هنا ؟ أترك خائفة منى ؟

اننى أرى جميع التعقيدات التى تضطربين هنا فى زوبعتها .
أنت ربيبة رجل مدمر مجنون ، يخربه هيامه بهذا الشيطان ..
Blanche . ثم هنالك الفرنسى وما له عليك من نفوذ خفى .
وها أنت ذى تطرحين علىّ بكل جد منذ لحظة ذلك السؤال .
فلأعلم شيئاً على الأقل . والا جننت واندفعت الى تطرف
ما ! أم تراك تستحين أن تشرفينى بصراحتك ؟ ولكن هل
يمكن أن تستحى أمامى ؟

— ما عن هذا قط أكلمك . لقد ألقيت عليك سؤالاً
وأنا أنتظر الجواب .

فانفجرت أقول :

— طبعاً أقتل من تسألينى أن أقتله ، ولكن هل
تستطيعين أن .. هل يمكن أن تأمرينى بشيء من هذا القبيل ؟
— هل تقدر أنى سأشفق عليك ؟ وانما أنا أصدر اليك
أمرى ، وأبقى بعيدة . أفى وسعك أن تتحمل هذا ؟ ما
أظن .. فلست أهلاً لذلك ! لعلك تقتل من أمر بقتله
ولسوف ترجع الىّ تقتلنى لأننى تجرأت فأرسلتك ترتكب جريمة .
شعرت بكلماتها هذه كأنها تصعقنى صعفاً . طبعاً ،
كنت حتى ذلك الحين أحمل كلامها على محملٍ نصفه
المزاح ونصفه التحدى . ولكنها كانت قد تكلمت جادة
مفرطة فى الجد . لقد أذهلنى أنها تكلمت على هذا النحو ، فأكدت
أن لها علىّ مثل هذا الحق ، واعترفت لنفسها بمثل هذه السلطة ،
وقالت صراحة : «تهلك أنت ، وأبقى أنا بعيدة» . ان فى
هذه الأقوال من الاستهتار والصراحة ما يخرج فى رأى عن
القصد ويتجاوز الحد . اذن ، ما رأيها فى بعد هذا كله ؟

ان هذا يتخطى حدود العبودية والحطة . ان ينظر المرء الى انسان هذه النظرة فمعناه أنه يرفعه بذلك الى مستواه . ومهما يكن الحديث الذى دار بيننا سخيفا لا يصدق فقد أحسست بقلبي يتهاوى .

وفجأة ، انفجرت ضاحكة . كنا جالسين على مقعد أمام الأطفال الذين كانوا يلعبون ؛ تماما مقابل المكان الذى تتوقف عنده العربات لتتزل الناس فى الممر المؤدى الى الكازينو . هتفت تقول :

— أترى هذه البارونة الضخمة ؟ انها البارونة فورمرهلم . هى هنا منذ ثلاثة أيام فحسب . أنظر الى زوجها : هذا البروسى النحيل الطويل الذى يمسك فى يده عصا . هل تذكر كيف تفرس فينا أول أمس ؟ الحق فورا بالبارونة ، واخلع قبعتك ، وقل لها شيئا بالفرنسية .
— لماذا ؟

— لقد حلفت لى لترمين نفسك من أعلى جبل شلانجنبرج اذا أنا أمرتك بذلك ؛ وأنت تحلف اليوم أنك مستعد للقتل اذا أنا أمرتك أن تقتل . فبدلا من هذه الجرائم وهذه المآسى أريد اليوم أن أتسلى قليلا . اذهب بلا اعتراضات . أريد أن أرى البارون يضربك بعصاه .

— أتحدينتى ؟ أتظنين أننى لن أفعل ؟

— نعم أتحداك . هيا اذهب اليها . أريد ذلك !

— طيب . سأذهب : ولكنها نزوة غريبة جدا . ألا

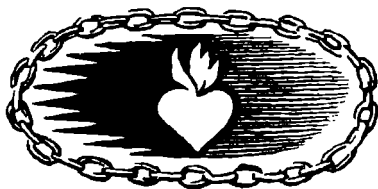
يجلب هذا الأمر بعض المكاره للجنرال ، وعن طريقه لك أنت تبعا لذلك ؟ يمينا ما أنا بالخائف على نفسى ، بل

عليك .. وعلى الجنرال . أية فكرة غريبة هذه : أن أمضى
أهين امرأة !

قالت لي باحتقار :

— ما أنت اذن الا ثرثار كما أرى . عينك وحدهما
كانتا محتقتين منذ قليل . ولعل مرد ذلك على كل حال
الى أنك أسرفت في الشراب اثناء الغداء . أنا أعرف أن
ما أسألك أن تفعله سخيف ودنيء ، وأن الجنرال سيغضب .
ولكنني أحب أن أتسلى . هذا كل ما في الأمر ! ولن تكون
في حاجة الى اهانة امرأة . لسوف تضرب بالعصا قبل أن
تفعل .

نهضت ومضيت أنفذ مهمتي دون أن أنطق بكلمة
واحدة . واضح أن الأمر كان سخيفا . ولم أستطع أن أتخلص .
ولكنني أذكر أنني ، بينما كنت أقترب من البارونة ، شبت
في نفسي رغبة في أن أقارف عملا أرعن طائشا . ثم انني
كنت من شدة اهتياجي كسكران .





الفصل السادس

حدث ذلك منذ يومين . يا له من نهار أحرق ! ما أكثر ما ارتفع فيه من صياح ، وما قام فيه من ضجة وجلبة ! وأنا السبب في كل هذا الهرج والمرج ، في كل هذا السخف ، في كل هذا الابتدال ! على أن الأمر مهزلة تبعث على الضحك ، في رأيي على الأقل . لا أستطيع أن أفهم ما وقع لي : أنا في حالة من حماسة وحميا ، أم أنا انسان خرج عن جادة العقل ، وراح يقارف السفاهات بانتظار أن يحبس ؟ يخيل الي في بعض اللحظات انني بسبيل أن

أجن ؛ ويخيل الى في بعض اللحظات الأخرى أنني لم أكد أتجاوز عهد الطفولة ، لم أكد أخرج من المدرسة فأنا أندفع في أعمال صيانية فظة مما يندفع فيه التلاميذ .

ان الخطأ خطأ بولينا ؛ ان كل الذنب ذنبها . لعلى ما كنت أندفع في تلك الأعمال الصيانية لو لا أنها كانت هنالك . ومن يدري على كل حال ؟ لعلى فعلت ذلك كله ياسا (رغم أن تفسير الأمر على هذا النحو غباء) . ولست أفهم ، لست أفهم ما تتمتع به من مزايا ! لا شك في انها جميلة ، أو هذا ما أعتقده في أقل تقدير . ولست المجنون الوحيد بها . انها فارعة القوام ، حسنة الخلقة . لكنها نحيلة جدا . يخيل الى أن في وسع المرء أن يربطها عقدة أو أن يشيها نصفين . أثر قدمها طويل ضيق . . معذب . نعم معذب . . هذه هي الكلمة . في شعرها انعكاسات ضاربة الى حمرة . عيناها عينا قطة حقا . . وما أكثر ما تستطيع أن تضع فيهما من كبرياء وعجرفة ! منذ حوالي أربعة أشهر ، وكنت قد دخلت في خدمتهم منذ قليل ، شب بينها وبين دى جريو ، ذات مساء ، حديث طويل ، في الصالون . كانا يتكلمان في اندفاع وحرارة . فكانت ترمقه بنظرة تبلغ من القوة . . أنني حين صعدت أنام بعد ذلك تخيلت أنها قد صفعته ، أنها قد صفعته منذ لحظة ، وأنها الآن واقفة أمامه تنظر اليه . . وفي ذلك المساء انما وقعت في هواها . ولنعد الى ما وقع .

سرت في ممر صغير يؤدي الى الطريق ، فتوقفت في وسطه أنتظر وصول البارون والبارونة . فلما صارا منى على مسافة

خمس أقدام خلعت قبعتي وألقيت عليهما السلام .
أذكر الآن أن البارونة كانت ترتدى ثوبا من حرير أشهب
فاتح ، واسع سعة عظيمة تبعث على الدهشة ، تنورته مثبتة
باسلاك ومزدانة بتخاريم ، وذيل سايف . انها قصيرة ، بدينة
جدا ، لها ذقن كثيفة متهدلة حتى لتستر عنقها ؛ ووجه
أحمر ، وعينان صغيرتان خبيثتان وقحتان ؛ وهى تسير كأنها
تشرف بذلك جميع الناس حولها . أما البارون فرجل جاف
خشن ، طويل القامة ، ذو وجه مقلوب على النمط الالمانى ،
تخده طائفة من غضون صغيرة . وهو يضع على عينيه نظارتين .
وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ؛ تكاد ساقاه من طولهما
أن تخرجا من صدره رأسا ؛ وتلك علامة نبالة المحتد . انه
مغرور كطاووس . ثقيل قليلا . وشيء من مظهر الخروف فى
التعبير ينوب عنده مناب العمق

لاحظت ذلك كله فى بضع ثوان .
لم يكادا يلتفتان فى أول الأمر الى تحيتى التى ألقيتها
عليهما حاملا قبعتى فى يدى . واكتفى البارون بأن قطب
حاجبيه قليلا . وأقبلت البارونة علىّ قدما وهى تسير بخطى
جليلة .

قلت بصوت مسموع مفهوم ، مميزا كل مقطع من
مقاطع كلامى :

— Madame la baronne, j'ai l'honneur d'être votre
esclave. ^(١)

^(١) سيدتى البارونة ، انه ليشرفنى أن أكون عبدك . (بالفرنسية
فى الأصل)

قلت ذلك ثم انحنيت اجلالا ، وأعدت قبعتى الى رأسى ،
ومضيت قرب البارون أنظر اليه بابتسامة مؤدبة .
لقد أمرتنى بوليننا أن اخلع قبعتى . أما التذلات
والصبيانيات فهى من عندى أنا . لا يعلم الا الله ما الذى
كان يدفعنى الى ذلك دفعا . كان يخيل الى أنى أهوى من
أعلى جبل .

— هين !^(١)

كذلك صرخ البارون أو على الأصح عوى وهو يستدير
نحوى بدهشة غاضبة .

فالتفت متجمدا على وضع الاحترام ، منتظرا ما سيحدث ،
مستمرا فى النظر اليه بابتسام . كان واضحا أنه متحير . ثم
ها هو ذا يقطب حاجبيه الى ^(٢) *nec plus ultra* ،
ويكفهر وجهه شيئا بعد شيء مزيدا من الاكفهرار .
والتفتت البارونة أيضا الى جهتى دهشة مستاءة . وأخذ
مارة من الناس يراقبوننا . حتى لقد توقف بعضهم
يشاهد .

— هين !

كذلك عوى البارون مرة أخرى بصوت تضاعف صراخه
وتضاعف حنقه

— *Jawohl!* ^(٣)

^(١) امش ! (بالتلفظ الألماني فى الأصل) .

^(٢) الى أقصى حد (باللاتينية فى الأصل) .

^(٣) «يا فول» — نعم أو طبعا (بالألمانية فى الأصل)

قلت له ذلك أجر الكلمة جرا ، وظللت أهدق في عينيه .
— Sind sie rasend? ^(١)

قال ذلك ملوحا بعصاه ، حتى ليخال المرء حين يراه
أنه أخذ يخاف . لعل ردائي هو الذى أدخل الاضطراب
فى قلبه ؛ وكنت حسن الهمدام ، بل جيد الأناقة ، كرجل
ينتسب الى أرقى طبقة .

— Jawo-o-ohl!

صحت هكذا بكل ما أملك من قوى ، مطيلا «الواو» كما
يفعل سكان برلين الذين يستعملون هذه الكلمة « jawohl » فى
الحديث كل لحظة مطيلين الواو أو مقصرينها تبعا لاختلاف
ما يريدون التعبير عنه من الفكر أو من العاطفة .

استدار البارون والبارونة بسرعة ، وابتعدا بما يشبه الركض .
لقد خافا خوفا شديدا . أما المارة الذين تجمهروا فبعضهم
أخذوا يتكلمون ، وبعضهم راحوا ينظرون الى مدهوشين . ولست
أذكر جيدا على كل حال .

عدت أدراجى بخطواتى العادية نحو بولينا ألكسندروفنا .
ولكن ما ان صرت على مسافة مائة متر تقريبا من مقعدها
حتى رأيتها تنهض وتتجه نحو الفندق مع الأطفال .
وأدركتها أمام درجات سلم المدخل ، حتى اذا صرت
حذوها قلت لها :

— ها قد نفذت . . . تلك السخافة .

فأجابتنى بقولها :

^(١) أنت مجنون ؟ (بالالمانية فى الأصل) .

— والآن دبر نفسك .
وصعدت درجات السلم ، حتى دون أن تلقى على
نظرة .

ظلت السهرة كلها أطوف في الحديقة . ثم اجتزت
الحديقة والغابة ، واستمرت أسير الى أن بلغت الامارة
الأخرى . ، قطعتم لدى بعض الفلاحين بيضا مقليا وشربت
خمرا ، فكلفتني هذه القصة الشعرية تاليرا ونصف تالير .
ولم أعد الا في الساعة الحادية عشرة من المساء .
فما ان وصلت حتى استدعيت الى لقاء الجنرال .

ان أصحابنا يحتلون من الفندق شقتين . انهم يشغلون
أربع غرف . فأما الأولى فهي الصالون : غرفة واسعة فيها
بيانو كبير ، وتتصل بغرفة واسعة أخرى هي مكتب الجنرال .
فهناك كان الجنرال ينتظرني واقفا في وسط الغرفة ، متخذا
وضعا في غاية الفخامة والجلال . وكان دى جريو جالسا على
الديوان في تكاسل واسترخاء .

بدأ الجنرال كلامه قائلا :

— هلا أذنت لى أيها السيد العزيز أن اسألك ماذا
فعلت ؟

أجبت :

— أوثر أن تمضى الى الأمر رأسا يا جنرال . لعلك
تريد أن تكلمنى فى أمر لقائى اليوم مع أحد الألمان .
— أحد الالمان ؟ ان هذا الألماني هو البارون فورمرهلم .
انه شخصية كبيرة ! لقد كنت فظا غليظا معه ومع البارونة .
— أبدا . . .

— لقد ارعبتهما أيها السيد .

كذلك صاح الجنرال .

— لم أرعهما قط . لقد كنت في برلين أسمع كلمة

« jawohl » هذه في كل حديث ، يرددها الناس بعد كل كلمة ، ويطيلونها اطالة مزعجة . فلما صادفت البارون في الطريق الذى تحف به الأشجار ، استيقظت هذه « jawohl »

في ذاكرتى فجأة (لا أدري لماذا ؟) ، فاثارت حفيظتى . . زد على هذا أن البارونة قد لقيتني في الطريق ثلاث مرات

قبل ذلك ، فكانت تسير نحوى قدما كما لو كنت دودة من ديدان الأرض يمكن سحقها . ويجب أن تسلم بأننى انسان

له كرامته . فما كان منى الا أن نزعت قبعتى وقلت لها فى أدب جم (أؤكد أنتى كنت جـم الادب) :

“Madame, j'ai l'honneur d'être votre esclave”.

فلما التفت البارون صارخا : «هين !» ، اشتبهت أن أصرخ أنا

أيضا بقولى «Jawohl!» ولقد قلت هذه الكلمة مرتين : مرة بطريقة عادية ، ومرة أخرى باطالتها ما وسعتنى الاطالة .

هذا كل ما حدث .

أعترف أن هذا الشرح قد راقنى وفتننى الى أقصى حد يليق بفتى وقح . كنت أحترق شوقا الى تطريز هذه القصة

على أسخف صورة ممكنة .

وكنت كلما أمعنت فى ذلك ، ازددت تلذذا به .

صاح الجنرال :

— أنت تسخر منى فيما يبدو .

والتفت نحو المركيز فشرح له باللغة الفرنسية أنتى كنت



أسعى الى خلق مشكلة حتما . فابتسم دى جريو ابتسامة
احتقار ، رافعا كفيه .
هتفت . أقول مخاطباً الجنرال :

— لا تتصور الأمر على هذا النحو . . ليس فيه شئ
من ذلك قط ! صحيح أن حركتى كانت مزعجة . . أعترف
لك بذلك صادقا . ويمكن أن توصف بأنها سخيفة ، بأنها
عمل صبيانى قليل الحياء غنى . . لا أكثر . واعلم ، يا جنرال ،
أننى أشعر بندامة كبيرة على ما بدر منى . غير أن هنالك
ظرفا يكاد يعينى فى رأى حتى من الندم . اننى فى الآونة
الأخيرة ، منذ أسبوعين او حتى ثلاثة أسابيع ، أشعر بأننى
فى حالة صحية سيئة : اننى مريض ، عصى ، سريع
الاهتياج ، كثير الهواجس ، حتى لأفقد فى بعض المناسبات
كل سيطرة على نفسى . هذا صحيح . من ذلك مثلا أننى
قد شبت فى نفسى عدة مرات رغبة قوية فى أن اتوجه فجأة
الى المركز دى جريو ف . . ولكن لا داعى لاكمال كلامى . .
والا فقد يشعر المركز من ذلك باهانة . المهم أن هذه
الاشياء أعراض مرض . . لا أدرى هل تأخذ البارونة فورمرهلم
هذا الظرف بعين الاعتبار ، حين سأعتذر اليها (وفى نيتى
أن أعتذر اليها) ؟ ولكن أغلب الظن أنها لن تفعل ، خاصة
وأن الناس ، فى الآونة الأخيرة ، قد أخذوا ، فيما أعلم ،
يسيئون استعمال هذا المبرر فى عالم القضاء : فالمحامون ،
فى القضايا الجنائية ، أخذوا يبررون جرائم موكلهم زاعمين
أن هؤلاء كانوا لحظة ارتكاب الجريمة لا يشعرون بما يفعلون ،
وأن هذا مرض من النوع الخاص . يقول هؤلاء المحامون

مثلا : «لقد ضرب ، نعم ، لكنه لا يتذكر الآن شيئا» .
وتصور ، يا جنرال ، أن الطب يؤيدهم . . فهو يدعى أن
هناك مرضا من هذا النوع ، أن هناك جنونا مؤقتا اذا استبد
بالانسان لحظةً جعله لا يتذكر شيئا تقريبا أو لا يتذكر الا نصف
تذكر او لا يتذكر الا ربع تذكر . ولكن البارون والبارونة هما
من الجيل القديم ، ناهيك عن أنهما من النبلاء البروسيين
ومن ملاكى الاراضى ، فهما لَمَّا يعلما ، بعد ، بهذا التطور
الذى حققه الطب الشرعى ، لذلك لن يقبلا شروحي وتعليلاتى .
ما رأيك ، يا جنرال ؟

قال الجنرال بغتة وهو يكظم استيائه :

— كفى أيها السيد كفى ! . . سوف أحاول أن أجعل
نفسى فى منجى من أعمالك الصبيانية مرة واحدة الى الأبد .
لن يكون عليك أن تعتذر للبارون والبارونة . ان أى اتصال
لك بهما ، ولو اقتصر على الاعتذار اليهما ، سيبدو لهما ذلا
ما بعده ذل . وحين علم البارون أنك واحد من منزلنا ،
حدثنى فى الأمر بالكازينو وأوشك أن يطالبنى بترضية ، أعترف
لك بذلك . فهل فهمت على ماذا حملتنى أنا ، أيها السيد
العزيز ؟ لقد اضطرت أنا ، انا بالذات ، أن أعتذر اليه ،
وأن أعده وعد الشرف أنك منذ هذا اليوم لن تكون واحدا
من منزلنا . .

— اسمح لى ، اسمح لى يا جنرال ، أهو الذى طلب
أن لا أكون منذ اليوم واحدا من منزلكم ، على حد تعبيرك ؟
— لا . . ولكننى شعرت بأننى مضطر أن أرضيه بهذه
الطريقة ، وطبيعى أن يظهر البارون ارتياحه لذلك ورضاه به .

نحن نفترق ، ايها السيد . بقى أن أدفع لك أربعة فردريكات
وثلاثة فلورينات فى عملة هذا البلد . فاليك مالك ، وهذا
هو الحساب ، فى وسعك أن تراجع . والوداع . فنحن بعد
الآن غرباء . اننى لم أجن منك الا ما يصدع الرأس ويزعج
النفس . وسوف أستدعى الخادم الآن فأقول له اننى لن أكون
مسئولا عن نفقاتك بالفندق ابتداء من غد . الوداع يا سيدى .
تناولت المال والورقة التى سجل عليها الحساب بالقلم
الرصاص ، ثم أحنيت رأسى للجنرال ، وقلت له بلهجة جادة
كل الجد :

— ان الأمر لا يمكن أن ينتهى على هذا النحو ،
يا جنرال . يؤسفنى ويؤلمنى أن البارون قد أبدى لك ملاحظات
مزعجة ، ولكن اسمح لى أن أقول ان الخطأ خطوك . فلماذا
توليت أن تكون مسئولا أمام البارون نيابةً عنى ؟ وما معنى هذا
التعبير : «أننى واحد من منزلكم» ؟ أنا معلم أولادك لا أكثر .
فلا أنا ابنك ، ولا انت وصى علىّ ، وما كان لك أن
تُسال عن أعمالى . ان لى شخصيتى القانونية . عمرى خمسة
وعشرون عاما . وأنا متخرج من الجامعة . وأنا نبيل . ولست
أمت اليك باية قربى ، فأنا غريب عنك كل الغرابة . ثق
أن ما أحمله لمزايك من احترام لا حد له هو الذى يصدنى
الآن عن أن أطالبك باصلاح ما بدر منك حين أعطيت
نفسك حق أن تكون مسئولا عنى .

بلغ الجنرال من شدة الانشده أن تهدلت ذراعاها ؛
ثم اذا هو يلتفت نحو الفرنسى فجأة ، فيقول له موجزا اننى
أوشكت أن أطلبه لمبارزة . فانفجر الفرنسى ضاحكا بقهقهة .

واستأنفت كلامي فقلت بهدوء كامل ، دون أن أدع
لنفسى أبدا أن تستفزها قهقهات مسيو دي جريو :
— على أن حسابي لا يكون بذلك قد صفى مع
البارون ، وما دمت قد رضيت اليوم أن تصفى الى شكواى
البارون ، وأن تعنى بشئونه هذه العناية ، فانك قد دخلت فى
هذه القضية بمعنى من المعانى ، لذلك يشرفنى أن أبلغك
أننى ، غداً صباحا لا بعده ، سوف أطالب البارون ، باسمى
أنا ، بتفسير قاطع للأسباب التى حملته ، رغم أن شأنه
كان معى ، على أن يتجاهلنى وأن يتجه الى شخص آخر ،
كما لو كنتُ غير قادر على أن أتحمل مسئولية أفعالى ، او
كما لو كنت غير جدير بذلك .

وحدث ما كنت أتوقعه . فها هو ذا الجنرال يأخذه الخوف
اذ يسمع هذه السخافة الجديدة . وصاح يقول :
— أتراك تنوى أن تسير بهذه القضية المشثومة اشواطا
أخرى ! يا إلهى ألا انك لتضعنى فى أخرج المواقف ! ..
ولكن حذار أيها السيد . . حذار ثم حذار . . والا فاننى
أقسم بشرفى ! .. لاحظ أن فى هذا البلد سلطات أيضا . .
وأنا . . أنا . . الخلاصة . . نظراً للمركزى . . ونظراً لمركز
البارون أيضا . . الخلاصة . . لسوف توقفك الشرطة ، ولسوف
تطردك من هذه المدينة ، منعا لك من ارتكاب فضيحة ! ..
فاجعل هذا ماثلا فى ذهنك !

كان الجنرال خائفا خوفا شديدا ، رغم أن الغضب كان
يخنقه خنقا .

أجبت قائلا بهدوء لا يستطيع أن يطيقه :

— يا جنرال ، لا يمكن أن يُعتقل أحد لفضيحة قبل ارتكابه الفضيحة . اننى لم افاتح البارون بعد ، وما زلتَ تجهل كل الجهل من أى جانب أنوى أن أواجه القضية ، وعلى أى أسس أنوى أن أعالجها ، ان كل ما أريده . هو أن أبدد ذلك الظن الذى يلحق بى اهانة كبيرة ، ألا وهو أن هناك وصيا علىّ يملك سلطة أن يضغط على حريسة ارادتى . فأنت اذن تفرع وتقلق فى غير ما حاجة الى الفرع أو القلق .

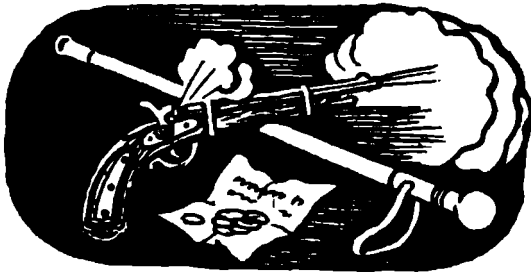
بدل الجنرال أوضاعه المتكبرة فجأة فقلبها الى لهجة توسل وضراعة حتى لقد أمسك بيدي ، وقال :

— ناشدتك الله ، ناشدتك الله يا الكسى ايفانوفتش ، دعك من هذا المشروع السخيف ! تصور ما قد ينجم عنه ! مزعجات جديدة ! لاحظ أن علىّ هنا أن أظهر بمظهر خاص ، لا سيما الآن ، لا سيما الآن ! .. لعلك لا تعرف اوضاعى كلها ! مستعد لاستردادك متى سافرنا من هنا . أما الآن فالقضية قضية شكل .. الخلاصة .. انك تعرف الأسباب التى تدفعنى الى هذا دفعا ! .. ألكسى ايفانوفتش ، ألكسى ايفانوفتش ! (كذلك صاح يائسا) . فرجوته مرة أخرى ، وأنا أنسحب ، أن لا يمتلكه القلق ، ووعدته بأن تجرى الأمور مجرى حسنا لانقا ، وأسرعت أبارح الغرفة .

ان الروس يسرفون فى الجبن أحيانا حين يكونون فى الخارج . ان بهم خوفا رهيبا مما سيقال عنهم ، من نظرة الناس اليهم . انهم يخشون أن يخلوا بمظاهر اللباقة ، ولا

سيما أولئك الذين يطمعون في أن يكون لهم شأن كبير .
 انهم يحرصون أشد الحرص على أن يراعوا ، مراعاة العبودية ،
 شكلا معيننا سبق تصوره وسبق تقريره مرة الى الأبد ، سواء
 في الفنادق أو في التزهات او في الاجتماعات أو في الأسفار . . .
 ولكن الجنرال قد أفلت من لسانه أن لديه فوق ذلك ظروفًا
 تضطره «الى الظهور بمظهر خاص» . فلذلك شعر فجأة بذلك
 الخوف والجبن كله ، وغير اللهجة التي كان يخاطبني بها .
 وقد لاحظت ذلك ووعيته . انه قد يستطيع عن غباء أن
 يلجأ غدا الى السلطات ، وعلى أن اركن حقا الى الحذر .
 على أنني لم تكن بي أى شهوة الى اغضاب الجنرال .
 ان بوليننا هي من كنت أتمنى الآن لو أحنقه . لقد بلغت
 من القسوة في معاملتي ، ودفعتني في طريق بلغ من السخف
 أنني أصبحت أرغب في حملها على أن ترجوني هي نفسها
 أن أتوقف . . ان الأعمال الصيبانية التي قد أقوم بها يمكن
 أن تسيء الى سمعتها هي أيضا . ثم ان احساسات جديدة
 ورغبات جديدة قد نبتت في نفسي : فلتن تلاشيت أمامها
 بارادتي ، مثلا ، فان ذلك لم يكن يعنى أبدا أنني ازاء
 الآخرين كدجاجة مبللة ، وليس البارون حتما من يمكن له
 أن يؤدبني «بالعصا» . كنت أريد أن أسخر من جميع هؤلاء
 الناس ، وأن أخرج من ذلك بأمجاد الفتى المغوار . لسوف
 يرون . ولا شيء يخشى منه ! هي ستخاف الفضيحة وتدعوني
 مرة اخرى وهبها لم تستدعني ، فلسوف ترى على كل حال
 أنني لست بالدجاجة المبللة . .

(وهذا نبأ مدهش : لقد علمت منذ لحظة من خادمة
الأولاد التي صادفتها على السلم أن ماريا فيليبونا سافرت اليوم
وحدها الى ابنة عمتها بكارلسباد فى قطار المساء . ما معنى
هذا ؟ وقالت الخادم ان ماريا فيليبونا كان فى نيتها أن
تسافر منذ زمن طويل . فكيف لم يعلم أحد بشيء من هذا ؟
على كل حال ، قد أكون الشخص الوحيد الذى كان يجهل
الأمر . وقد أفهمتنى الخادم ان ماريا فيليبونا قد قامت بينها
وبين الجنرال مناقرة عنيفة أول أمس . فهمت . لا شك
أنها . . m-lle Blanche . نعم : ان شيئا حاسما يهم
أن يقع عندنا .)





الفصل السابع

في الصباح التالي استدعيت خادم الفندق وطلبت اليه أن يجعل حسابي مستقلا . ولم يكن أجر غرفتي بالأجر الباهظ حتى أخاف فأترك الفندق نهائيا . كان معي ستة عشر فردريكا .. وهناك .. هناك .. ربما كانت تنتظرنى ثروة ! شيء غريب : لم أكن قد ربحت بعد ، ولكنني أتصرف وأحس وأفكر كما لو كنت رجلا غنيا ، ولم يكن في وسعي أن أرى نفسي غير ذلك .

كنت أنوي ، رغم بكرة الصباح ، أن أذهب حالا الى

مستر آستلى الذى كان يقيم فى فندق d'Angleterre القريب من فندقنا كل القرب ؛ فاذا أنا أرى دى جريو داخلا الى غرفتى على حين فجأة . لم يكن قد حدث هذا قبل اليوم قط ، وأكثر من ذلك أن صلاتى بهذا السيد قد اصبحت فى الآونة الأخيرة كلها بعيدة كل البعد متوترة أشد التوتر. حتى لقد أصبح لا يكفيه أن لا يخفى استخفافه بى واحتقاره لى ، بل أصبح كذلك يحاول اعلان ذلك جهارا . . أما أنا . . فكان لى من الدواعى ما يجعلنى لا أحبه ؛ حتى ليتمكن أن أقول اننى كنت أكرهه كرها لذلك أدهشنى مجيئه كثيرا ، وسرعان ما أدركت أن شيئا خاصا غير مألوف كان يحدث .

كان لطيفا معى كل اللطف ، وأخذ يطرى غرفتى ؛ فلما رأتى أحمل قبعتى بيدي أدهشه أن أخرج للترهه فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح . فقلت له اننى كنت ذاهبا الى مستر آستلى لبعض الأعمال ، فشرد لحظة ، وعبر وجهه عن هم شديد .

كان دى جريو رجلا كسائر الفرنسيين ، أى انسانا دمثا مرحا متى وجب عليه أن يكون كذلك ومتى كان ينفعه أن يكون كذلك ، ولكنه انسان ممل مضجر الى حد لا يطاق متى زالت الضرورة التى كانت تحمله على أن يكون دمثا مرحا . ان الفرنسى قلما يكون لطيفا محببا بطبعه ، وانما هو لطيف محبب على نظام مرسوم ، وبحساب مدروس . فاذا رأى مثلا أن من الضرورة أن يخرج على المؤلف ، وأن يركب هواه ، وأن يشذ عن القاعدة ، وأن يتفرد فى السلوك ،

رأيت أشد ألوان الشذوذ اغراقا في العجب تكتسى لديه أشكالا مقررمة مقبولة من قبل ، شائعة مبدولة من زمان بعيد . أما اذا ترك نفسه على سجيته الطبيعية فهو انسان صفته الأساسية ايجابية ، من اكثر الايجابيات تفاهة وابتدالاً وعادية ؛ وباختصار فهو أكثر من على وجه الأرض املا لا واضجارا . وفي رأى أن الاغرار وحدهم ، ولا سيما الفتيات الروسيات ، هم الذين يمكن أن يفتنهم الفرنسيون وما من انسان حصيف الا ويلاحظ ثم يكره رأسا تلك السلسلة المتكررة من الأشكال الثابتة التي يصطنعها الفرنسيون لطفاً في الصالونات ، وطلاوة في الحديث ، ومرحا في الحركة .

بدأ الكلام يقول منطلق الحركة ولكن على لباقة وأدب :
— انما جئتك اليوم لعمل . لا أكتمك أننى موفد اليك من الجنرال سفيرا أو بالاحرى وسيطا . اننى لم أكد أفهم شيئا من الحديث الذى جرى بينك وبين الجنرال أمس ، لأننى أسىء معرفة اللغة الروسية جدا ، ولكن الجنرال شرح لى كل شىء تفصيلا ؛ وأنا أعترف . . .
فقاطعه قائلا :

— اسمع يا monsieur دى جريو . . هانت ذا ، فى هذه القضية أيضا ، تقوم بدور الوسيط . أنا لست الا "un outchitel" ، ولم أزعم لنفسى يوما شرف وجود صداقة حميمة بينى وبين هذا البيت ، ولا شرف وجود علاقات وثيقة خاصة تربطنى به ، ولذلك فان هناك ظروفأ أجهلها . ولكن هلا قلت لى شيئا : أنت قد أصبحت الآن واحدا من الأسرة على وجه التمام ؟ ذلك أننى أرى أنك تبلغ من

الاهتمام بجميع الأمور أنك تطرح نفسك وسيطا في كل شأن . . .
سأه سؤالي . انه سؤال مسرف في الشفافية ؛ والرجل
لا يريد أن يكشف أمره .
قال في جفاء وخشونة :

— تربطني بالجنرال أعمال من جهة ، وظروف خاصة
من جهة أخرى . وقد أوفدني اليك الجنرال لأرجوك أن تعدل
عما كنت تتويه أمس . ان كل ما ابتكرته شيء ظريف
طبعا . ولكن الجنرال يرجوني أن ألقت نظرك الى أنك لن
تصل الى أية نتيجة . وأكثر من ذلك . . أن البارون لن
يستقبلك وهو يملك على كل حال جميع الوسائل التي تمكنه
من تجنب ما قد يجيئه منك من ازعاجات . اعترف بهذا
أنت نفسك . فقيم العناد اذن ؟ والجنرال يعدك بأن يستردك
متى سمحت الظروف بذلك ، ويتعهد بأن يحتفظ لك حتى
ذلك الحين بمرتباتك ، ⁽¹⁾ vos appointements ألا
ترى ان العرض مريح ؟

فأجبتة بلهجة هادئة كل الهدوء أنه مخطئ قليلا ، وأن
البارون قد لا يطردني ، بل بالعكس ، سيصغى الى كلامي .
ورجوته أن يعترف بأنه انما جاء اليّ الآن ليعرف ما عساني
فاعلا على وجه الدقة !
قال :

— ما دام الجنرال مهتماً بالأمر هذا الاهتمام فانه ليسره
طبعا أن يعرف ما ستقوم به ؛ فذلك أمر طبيعي !

(1) مرتباتك (بالفرنسية في الأصل) .

فأخذت أشرح ، وأخذ يصغى ، مسترخيا على مقعده ،
 مائلا برأسه قليلا نحوى ، وفي عينيه شعاع من استهزاء لا
 يخفيه ؛ أى كان يعاملنى بكثير من الاستعلاء . حاولت ما
 وسعنى ذلك أن أظهار بأننى أعد هذه القضية على جانب
 عظيم من الخطورة . قلت ان البارون ، حين شكاني الى
 الجنرال كما لو كنت خادم هذا الجنرال ، قد فصلنى من
 عملى أولا ، وانه ، ثانيا ، قد عاملنى معاملة شخص لا
 يمكن أن يكون مشولا عن أفعاله ، بل ولا يستحق أن
 يخاطب . ومن حقى طبعا ان أشعر باننى مهان . ومع ذلك ،
 فانى ، نظرا الى فارق السن والمركز الاجتماعى ، الخ ،
 الخ (لم أكد أستطيع أن أحبس نفسى عن الضحك حين
 قلت هذه الجملة الأخيرة) ، لن أندفع الى ارتكاب عمل
 طائش جديد ، أى أننى لن أطالب البارون مباشرة ، بل
 ولا أن أعرض عليه أن يرضينى . ومهما يكن من أمر فأنا
 أرى أن من حقى تماما أن أعتذر اليه (وأن أعتذر الى البارونة
 خاصة) ، لا سيما وأننى أشعر حقا فى هذه الأيام الأخيرة
 بأننى مريض مهدم النفس غريب الأطوار ان صح التعبير ،
 الخ ، الخ . غير أن البارون نفسه ، اذ قام بذلك العمل
 الذى ألحق بى الالهانة ، وأصر على الجنرال أن يفصلنى
 من عملى ، قد وضعنى فى موقف أصبح يستحيل على
 معه أن أعتذر اليه وأن أعتذر الى البارونة ، لأننى لو فعلت
 لظن هو ولظنت البارونة ولظن جميع الناس ، بدون أى شك ،
 أننى انما جئت أعتذر اليه خوفا وطمعا فى العودة الى عملى .
 ويتبع عن هذا كله أننى أجد نفسى الآن مضطرا أن أرجو

البارون أن يعتذر هو إلى أولاً ، وذلك بعبارات معتدلة إلى أبعد حدود الاعتدال ، كأن يقول مثلاً انه لم يشأ أبداً أن يهيننى . فاذا وافق البارون على طلى هذا ، يكون قد أطلق يدي من عقالهما ، فاعتذرت إليه صادقاً من أعماق القلب . وختمت كلامي قائلاً : ان كل ما أطلبه هو أن يطلق البارون يدي من عقالهما .

— هه .. يا لها من حساسية ! وبها لها من حذاقات ! لماذا تعتذر ؟ هيا اعترف ، يا monsieur .. ، يا monsieur .. أنك دبرت هذه المكيدة كلها لكي تكدر الجنرال .. وربما كانت لك أهداف خاصة .. .

mon cher monsieur, pardon, j'ai oublié votre nom, monsieur Alexis?.. n'est ce pas? ^(١)

— ولكن اسمح لي ^(٢) mon cher marquis ، فيم يعينك هذا الأمر ؟

— Mais le général... ^(٣)

— وفيم يضير الجنرال هذا ؟ لقد قال لي أمس انه مضطر أن يظهر بمظهر ما .. وكان قلقاً جداً .. ولكنني لم أفهم شيئاً .

— هنا انما يكمن ظرف خاص .. .

^(١) يا سيدى العزيز .. اعذرني لقد نسيت اسمك .. . سيد الكسى ، أليس كذلك ؟ (بالفرنسية فى الأصل)

^(٢) يا عزيزى المركيز (بالفرنسية فى الأصل)

^(٣) ولكن الجنرال (بالفرنسية فى الأصل) .

كذلك أجاب دى جريو بلهجة ضارعة متوسلة تشف
شيئا فشيئا عن مزيد من التكدر— انت تعرف
mademoiselle de Cominges?

— نقصد mademoiselle Blanche ؟

— نعم ، mademoiselle Blanche de Cominges...

(١) et madame sa mère... . انك تسلم أنت نفسك

أن الجنرال .. أعنى .. أن الجنرال مغرم بها .. حتى أن ..
حتى أن .. الزواج قد يتم هنا . فتخيل الفصائح والمشاكل
التي قد تقع في هذا الوقت

— لست أرى لا فصائح ولا مشاكل فيما يتعلق بهذا
الزواج .

— ولكن le baron est si irascible, un caractère

prussien, vous savez, enfin il fera une querelle
d'Allemand. (٢)

— سيكون هذا شأني أنا ، لا شأنكم أنتم ، لأنني

لست بعد الآن واحدا من المترل (كنت أحاول أن
أتغايى الى أقصى حد ممكن) . ولكن اسمح لى : هل
تقرر الأمر نهائيا و mademoiselle Blanche ستزوج
الجنرال ؟ فماذا ينتظرون اذن ؟ أقصد : لماذا يخفون الأمر ،

(١) مدموازيل بلانش دى كومانج . . والسيدة والدتها (بالفرنسية
فى الأصل)

(٢) البارون رجل سريع الغضب ، طبع بروسى ، كما تعلم ،
لسوف يثير شجارا كما يثيره ألماني . (بالفرنسية فى الأصل) .

لماذا يخفونه عنا على الأقل ، نحن أهل البيت ؟
— لا أستطيع أن .. على كل حال .. ليس هناك
شيء حاسم بعد .. مع ذلك .. أنت تعلم أنهم يتظنون
أخبارا من روسيا . يجب أن يرتب الجنرال أمره . . .
— ها .. ها .. (١) la baboulinka!

رشفنى دى جريو بنظرة كارهة مبغضة ، وقال يقاطعنى :
— اننى أعتد اعتمادا قويا على رهافتك التى فطرت
عليها ، أعتد على ذكائك وذوقك .. ويقينى أنك ستفعل
ذلك فى سبيل هذه الأسرة التى استقبلت فيها استقبال قريب
معزز مكرم . . .

— اسمح لى .. لقد طردونى ! انك تذهب الآن
الى أن المسألة مسألة شكل ، ولكن لا بد أن تسلم معى
بأنه اذا قال لك أحد الناس : «أنا لا أريد طبعا أن أشدك
من أذنيك ، ولكن اسمح لى أن أشدك من أذنيك مراعاة
للشكل» لا بد أن تسلم معى بأن الأمرين واحد .
قال بلهجة مستعالية متغترسة :

— اذا كان الأمر كذلك ، اذا كان لا يجدى فيك
أى رجاء ، فدعنى أؤكد لك أن اجراءات ستتحذ . ان فى
البلد سلطات مشولة ، ولسوف تطرد فى هذا اليوم نفسه . .
que diable! un blan-bec comme vous (٢)
يريد أن يطلب للمبارزة شخصية فى مثل مترلة البارون !؟ ثم

(١) بابولينكا (الجدة) — كلمة روسية مكتوبة فى الأصل بالفرنسية) .

(٢) يا للشيطان ! أفتى غر مثلك (بالفرنسية فى الأصل) .

تظن أنهم سيدعونك وشأنك ! ثق تمام الثقة أن أحدا لا يخشاك هنا ! ولئن قدمت اليك ذلك الرجاء ، لقد فعلت هذا من تلقاء نفسى ، لأنك أقلقت الجنرال . كيف تستطيع أن تتصور أن البارون لن يطردك بمجرد أمر بسيط يلقيه الى خادم ؟ قلت هادئا كل الهدوء :

— ولكنى لن أذهب الى البارون بنفسى . انت مخطئ يا monsieur دى جريو . ان الأمور ستجرى على نحو أكثر لياقة مما تصوره خيالك . سوف أذهب توا الى مستر آستلى أرجوه أن يكون وسيطى ، أى بايجاز ، أن يكون ^(١) second لى . ان هذا الرجل يشعر بمحبة نحوى . فلن يرفض طلبى حتما . سيمضى الى البارون ، وسيستقبله البارون . لئن كنت أنا un outchitel ، ولئن ظهرت بمظهر المرؤوس subalterne ^(٢) ، العاجز عن الدفاع عن نفسه ، فان مستر آستلى هو ابن أخى لورد من اللوردات الحقيقيين ؛ جميع الناس هنا يعرفون ذلك ؛ انه اللورد بيروك ، وهو الموجود هنا الآن . ثق أن البارون سيكون مهذبا مع مستر آستلى ، وأنه سيصغى اليه . واذا لم يصغ اليه ، فان مستر آستلى سيعد ذلك اهانة لحقت بشخصه هو (وأنت تعرف مدى عناد الانجليز) ؛ فيرسل أحد أصدقائه الى البارون ، وان له لكثيرا من الأصدقاء الطيبين . هل ترى الآن كيف أن الأمر قد ينحل على غير الصورة التى تخيلتها ؟

(١) شاهدى فى المبارزة (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) الخاضع لغيره (بالفرنسية فى الأصل) .

جزع الفرنسي حقا . والواقع أن هذا كله كان قريبا من الحقيقة جدا ؛ وكان يبدو أذن أنني قادر فعلا على أن أقوم بفضيحة

فعاد يقول بلهجة متوسلة :

— أرجوك . . دعك من كل هذا ! لكأنه يسرك أن تثير فضيحة ! لكأنك لا تنشئ الترضية ، بل تنشئ فضيحة ! قلت لك ان هذا كله قد يصبح مثار تسلية وتفكك ، ولعلك محقق هذا الهدف . . ولكن . . . هنا لاحظ أنني أنهض وأتناول قبعتي فختمم يقول :

— لقد جئت اليك بكلمة من شخص . . فاقراها . . وقد رُجيت أن أنتظر الجواب . قال هذا وسل من جيبه ورقة صغيرة مطوية مختومة ، فمدها الى . كانت الورقة من بولينا ، كتبت فيها بخط يدها ما يلي :

«سمعت أنك تنوى متابعة هذه القصة . أنت زعلان ، وقد بدأت تلعب لعب الصبية . غير أن هناك ظروفًا خاصة ، قد أشرحها لك يوما ، فرجائي اليك أن تتوقف وأن تعقل . ما أسخف هذا كله ! أنا في حاجة اليك ، وقد وعدتني بأن تطيعني . هل تتذكر جبل شلانجنبرج ؟ أطلب اليك أن تكون طيعا ، بل آمرك أمرا اذا لزم .

المخلصة لك ب

حاشية : اذا كنت حانقا على سبب ما حدث أمس ،
فسامحني» .

رأيت كل شيء ينقلب في عيني وأنا أقرأ هذه الأسطر .
ابيضت شفتاي وأخذت أرتعش . تظاهر الفرنسي الملعون
بقلة الانتباه ، وحوّل عينيه عنى كمن لا يريد أن يرى
اضطرابي . كنت أؤثر لو ينفجر ضاحكا أمام أنفى .
قلت :

— حسن . قل لـ *mademoiselle* أن تهدأ وأن
تطيب بالا .

ثم ما لبثت أن أردفت أقول فجأة :
— ولكن اسمح لى أن أسألك . . لماذا انتظرت هذا
الانتظار كله حتى تعطينى هذه الورقة ؟ كان فى وسعك أن
تبدأ باعطائي هذه الورقة ، بدلا من تلك الثرثرة الفارغة . . . اذا
كنت قد جئت للقيام بهذه المهمة .

— كنت أريد . . على كل حال . . ان هذا الأمر
كله يبلغ من الغرابة ان عليك أن تعذر ما رأيته من نقاد
صبرى . . وهو طبيعى . لقد كنت أريد أن أعرف شخصا ،
بأقصى سرعة ، من فمك نفسه ، ما كنت تضمّر من نيات .
وأنا أجهل على كل حال ما تتضمنه هذه الورقة ، فقدرت
أن فى الوقت متسعا لاعطائك اياها .

— فهمت الآن . كل ما فى الأمر أنهم أمروك بأن
لا تعطينى الورقة الا عند الضرورة القصوى ، وأن لا تستعملها
اذا أنت استطعت أن تدبر المسألة بالنصح . أليس كذلك ؟
أجبنى بصراحة يا *monsieur* دى جريو !

قال وهو يصطنع أقصى التحفظ ، وينظر الى نظرة غريبة :
— Peut-être. ⁽¹⁾

تناولت قبعتي ؛ وحياني بحركة من رأسه ؛ وخرج .
يخيل الى أنني رأيت على شفثيه ابتسامة ساخرة . وكيف
يمكن أن لا يكون الأمر كذلك ؟
دمدمت وأنا أهبط السلم :

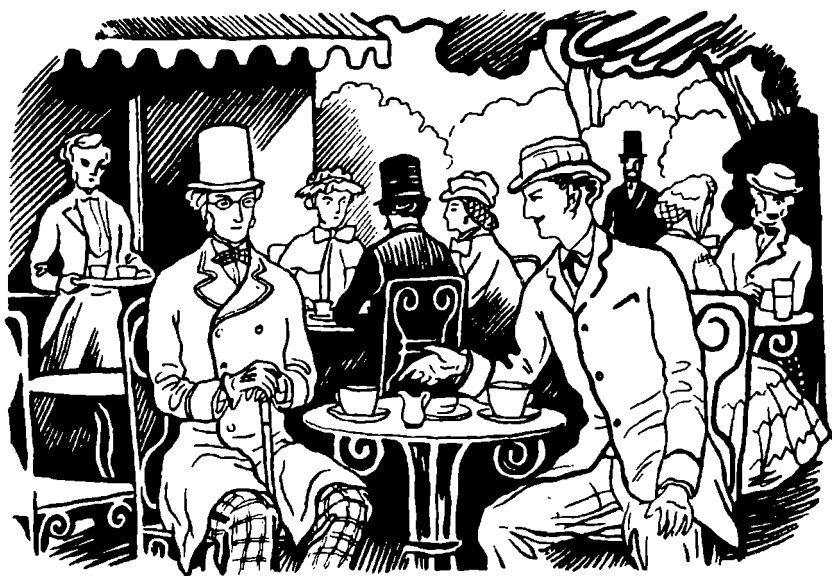
— ما يزال بيننا حساب يا أيها الفرنسي المتظرف . .
ولسوف نعرف من يكون غالبا ومن يكون مغلوبا !
كنت ما أزال عاجزا عن جمع شتات فكري . كان
يتراءى لي أنني كمن تلقي على رأسه ضربة مطرقة . ولكن
الهواء النقي الطرى أنعشني .

فبعد دقيقتين ، منذ أصبحت قادرا على التفكير ،
عرضتُ لذهني فكرتان واضحتان : الأولى أن تسلية صيبانية ،
وتهديدات خيالية قالها أمس في الهواء فتى غر ، قد أثارت
ذعرا شاملا ؛ والثانية : ما أعظم ما لهذا الفرنسي اذن من
نفوذ على بولينا ! كلمة واحدة منه تحملها على أن تفعل
ما هو في حاجة اليه ، فتكتب رسالة ، وتمضى الى حد أن
ترجوني . صحيح أن العلاقات بينهما كانت دائما لغزا في
نظري منذ البداية ، منذ أن تعرفت عليهما . ولكنني لاحظت
في الأيام الأخيرة أنها أصبحت تنفر منه نفورا قويا ، بل
تحتقره احتقارا . أما هو فكان لا يلتفت اليها ولا يلقي عليها
نظرة ، بل وكان فظا معها . وكنت أنا ألاحظ ذلك ، حتى

⁽¹⁾ ربما (بالفرنسية في الأصل) .

لقد أقرت لي بولينا باشمترازها منه ، وأفلتت من لسانها
اعترافات بليغة الدلالة الى أقصى الحدود . . فهو اذن قابض
عليها بيده ، وهي اذن خاضعة لسيطرته لسبب ما . . .





الفصل الثامن

في «النزهة»، كما يقال هنا، أى في الطريق الذى تصطف
على حافته أشجار الكستناء، التقيت بصاحبي الانجليزى .
صاح اذ لمحنى يقول :
— أوه ! أوه ! أنا ذاهب اليك ، وأنت آت الىّ !
اذن فقد تركت أصحابك ؟
فسألته مدهوشا :
— قل لى أولا كيف اطلعت على هذا كله ؟ أجمع
الناس على علم اذن بالامر ؟

— لا . . لا جميع الناس . . فالمسألة لا تستحق
المعرفة . . وما من أحد يتكلم فيها .
— فكيف تعلم بها اذن ؟

— أعلم بها ، أو قل لقد أتيح لي أن أعلم بها
عرضا . الى أين أنت الآن ذاهب ؟ انى أحمل لك شعورا
بالصداقة ، لذلك كنت ذاهبا اليك .

قلت وقد تملكنتى الدهشة الشديدة من اطلاعه على المسألة :
— انت رجل شهيم يا مستر آستلى ؛ واذ أنتى لما
أشرب قهوتى بعد ، واذ أنك أيضا شربتها على عجل فى
أغلب الظن ، فهيا بنا الى المقهى قرب الكازينو . وسنجلس
وندخن هناك ، فأقص عليك كل شيء . . وتروى لى شيئا
أنت أيضا . .

كان المقهى على مسافة مائة متر . . جاءونا بالقهوة ،
وجلسنا جلسة مريحة ، وأشعلت أنا سيجارة . وكان مستر
آستلى لا يدخن ، وها هو ذا يثبت نظره فى متعتها للاصغاء
الى حديثى . بدأت الكلام بقولى :
— لن أسافر الى أى مكان . سابقى هنا .

— كنت موقنا انك باق .
كذلك قال مستر آستلى بلهجة التحييد .
حين كنت ذاهبا الى مستر آستلى لم يكن فى نيتى
أبدا أن أحدثه عن حى لبولينا . بل لقد كنت أريد أن
أتجنب هذا الموضوع . ولم أكن طوال تلك الأيام الاخيرة
قد نبست بكلمة واحدة له فى هذا الشأن . ثم انه انسان
خجول جدا . وكنت قد لاحظت منذ لقائهما الأول الأثر

القوى الذى تحدثه بولينا فى نفسه ، ولكنه لم ينطق باسمها فى يوم من الأيام . شىء غريب عجيب : الآن ، فجأة ، حالما جلس مستر آستلى وثبت فى نظره الكايبه الملحاح ، شبت بى ، لا أدرى لماذا ، رغبة عنيفة فى أن أروى له كل شىء ، أى أن أحدثه عن حى كله بجميع ما يشتمل عليه من ألوان . فاذا أنا أتكلم نصف ساعة تماما ، واذا أنا أحس من ذلك بارتياح عظيم : تلك أول مرة أفتح فيها نفسى لأحد فى هذا الأمر ! واذا لاحظت أنه كان يضطرب حين أصل من حديثى الى فقرات حارة ، فقد زدت حرارة قصتى عامدا . شىء واحد أندم عليه : لعلنى أسرفت فى الكلام على الفرنسى . . .

كان مستر آستلى يصغى الىّ جالسا أمامى ، ساكنا لا ينطق بكلمة ولا يتفوه بحرف ، مثبتا عينيه فى عيني ، ولكن حين ألمعت الى الفرنسى ، استوقفنى فجأة وسألنى بلهجة قاسية هل يحق لى أن أذكر هذا الطرف الخارج عن الموضوع . لقد كان لمستر آستلى دائما طريقة غريبة جدا فى القاء الأسئلة . قلت :

— انك على حق . أخشى أن لا يكون لى هذا الحق .

— عن هذا التركيز وعن الآنسة بولينا لا تستطيع أن تقول شيئا معينا دقيقا الا على سبيل الافتراض ؟
واستغربت من جديد من مثل هذا السؤال القاطع الذى وجهه مثل هذا الانسان الخجول كمستر آستلى . فأجبت :
— نعم ، لا شىء معينا دقيقاً . . لا شىء طبعا .

— فاذا كان الأمر كذلك فقد اخطأت لا حين حدثتني
في هذا فحسب ، بل حين فكرت فيه أيضا .
فقاطعته أقول وقد شعرت بدهشة بينى وبين نفسى :
— طيب . طيب ! موافق . ولكن أعترف لك أن
الأمر لا يكمن في هذا الآن .

ثم قصصت عليه قصة أمس بحذافيرها : نزوة بولينا ،
مغامرتى مع البارون ، طردى من عملى ، ما أظهره الجنرال
من جبن خارق ؛ وحكى له أخيرا زيارة الفرنسى دى جريو
اليوم تفصيلا وبكل دقائقها ، وختمت القصة باظهاره على
الورقة التى أرسلتها الى بولينا . ثم سألته :

— فماذا تستنتج من ذلك ؟ انما جئت اليك لاسألك
رأيك . أما أنا فأظننى مستعدا لقتل هذا الفرنسى الصغير
المتظرف ، ولعلنى فاعل ذلك . — قال مستر آستلى :
— وأنا أيضا . أما عن الآنسة بولينا . . فأنت تعلم
أنا نعقد صلوات حتى بأناس نكرهم ، اذا قادتنا الضرورة
الى ذلك . فقد يكون هنالك صلوات تجهلها ، صلوات لها
علاقة بظروف دخيلة . فتستطيع أن تطمئن نفسك من هذه
الناحية . . بعض الطمأنينة طبعاً . . وأما عن نزوتها أمس فهى
غريبة واضحة الغرابة ، لا لأنها أرادت أن تتخلص منك
بارسالك الى عصا البارون (وانى لأستغرب حقا أنه لم يستعمل
العصا وقد كانت فى يده) بل لأن نزوة كهذه من فتاة . . .
من فتاة مرموقة مثلها . . هى نزوة تعوزها الحشمة . وأغلب
الظن أنها ما كانت تقدر انك تنفذ هذه الرغبة الهائلة حرفا
حرفا . . .

هتفت فجأة أقول وأنا أنفوس في مستر آستلى :
— هل تعرف ؟ أحس انك قد سمعت هذه القصة
كلها . هل تدري ممن ؟ من الآنسة بولينا نفسها !
فنظر الى مستر آستلى مندهشا . ثم سرعان ما استرد
هدوءه فقال :

— عينك تلمعان ، واني لأرى فيهما الاشتباه . وليس
لك أن تدع لشبهاتك أن تظهر . اننى لا أعترف لك بهذا
الحق ، وأرفض رفضا قاطعا أن أجيب عن سؤالك .
— طيب كفى ! دعنا من هذا !

هكذا صحت وقد أخذنى اضطراب شديد ، ولم أفهم
كيف خطر ببالي هذا ! ثم متى وأين وكيف كان يمكن أن
تكون بولينا اختارت مستر آستلى نجيا لها تفضى اليه بأسرارها ؟
ثم اننى فى هذه الأيام الأخيرة كان مستر آستلى قد غاب
عن عيني تقريبا . أما بولينا فلقد كانت لغزا يحير عقلى
دائما ، حتى أننى الآن ، مثلا ، حين قررت أن أحكى
لمستر آستلى قصة حى كلها فوجئت لحظة شرعت فى رواية
القصة بأننى أكاد أعجز عن أن أذكر أى شىء دقيق واضح
ايجابى عن صلاتى بها . بالعكس : كان كل شىء أقرب
الى الخيال ، غريبا ، مهلهلا ، لا يشبه شيئا .
قلت وأنا أكاد ألث :

— طيب . طيب . لقد فقدت تسلسل الافكار ولا
أقدر الآن أن ادرك اشياء كثيرة . . ومهما يكن من أمر ،
فأنت انسان شهم : وسأسألك الآن لا نصحا ، بل سأسألك
رأبك .

وصمت لحظة ثم أردفت أقول :

— ما هو السبب الذى جعل الجنرال يخاف ذلك الخوف كله ، فى نظرك ؟ لماذا جعلوا من ذلك العمل الصيبانى السخيف الذى عملته مأساة خطيرة ، حتى بلغوا من ذلك أن دى جريو نفسه وجد أنه لا بد أن يتدخل فى الأمر (وهو لا يتدخل الا فى أخطر الظروف شأنا) ، فجاء الىّ (نعم !) ، وأخذ يرجونى ، ويتضرع الىّ ، هو ، دى جريو ! . . لاحظ أخيرا أنه جاءنى قبيل الساعة التاسعة ، وكانت ورقة الآنسة بوليننا معه . فمتى ياترى كتبت تلك الورقة ؟ أترامهم أيقظوا الآنسة بوليننا من نومها خصيصا لهذا الغرض ؟ اننى ، عدا كونى أستنتج من ذلك أن الآنسة بوليننا مستعبدة له (ما دامت تسألنى أنا الصفح والمغفرة !) ، أتساءل : ما شأنها هى ، هى شخصيا ، فى هذا الأمر كله ؟ ما معنى شدة اهتمامها به ؟ لماذا خافوا من أول بارون يظهر لهم ؟ وما عسى أن يكون لزواج الجنرال

بـ mademoiselle Blanche de Cominges

من شأن خطير ؟ هم يقولون ان عليهم أن يظهروا بمظهر خاص ، بسبب هذا الظرف ؛ ألا انه لمظهر خاص أكثر مما يجب ! ألا توافقنى على ذلك ؟ ما رأيك أنت ؟ انى لأقرأ فى عينيك أنك هنا أيضا تعرف من الأمر أكثر مما أعرف !

ابتسم مستر آستلى وهز رأسه ، ثم قال :

— نعم . يبدو لى فعلا أننى ، فى هذا الموضوع أيضا ، أعرف أكثر كثيرا مما تعرف . ان القضية كلها لا

تتعلق الا بـ mademoiselle Blanche ، وأنا على يقين بأن هذه هي الحقيقة المطلقة .

صحت أقول نافذ الصبر (وقد أمّلت فجأة أن أعرف شيئا عن m-lle بولين) :

— ما شأن mademoiselle Blanche هنا ؟

— يبدو لى لـ mademoiselle Blanche الآن

مصلحة خاصة فى أن تتحاشى ، بأية طريقة ، أى لقاء مع البارون أو البارونة ، ولاسيما اذا كان لقاء مزعجا ، ناهيك عن لقاء فاضح .

— وماذا بعد ؟

— ان mademoiselle Blanche كانت هنا فى رولتنبرج ،

منذ سنتين ، أثناء الموسم . واتفق ان كنت أنا أيضا هنا . ان اسمها

حينذاك لم يكن mademoiselle de Cominges ، ولم

يكن لأمها Cominges^(١) madame veuve وجود

فى ذلك الوقت . على أية حال لم يكن

ذكرها وارداً . ولا كان دى جريو هناك أيضا . وأنا مقتنع

فى قرارة نفسى لا بأنهم ليسوا أقرباء فحسب ، بل بأنهم

لم يتعارفوا الا منذ وقت قصير . ليس دى جريو مركزيا الا

من عهد قريب : هناك ظرف معين يجعلنى على يقين من

هذا ؛ حتى ليتمكن أن نفترض أنه لا يسمى دى جريو الا

منذ فترة . أعرف هنا شخصا قابله باسم آخر .

— ومع ذلك فان له حلقة متينة حقا من العلاقات .

^(١) ارملة (بالفرنسية فى الأصل)



أليس كذلك ؟

—أوه .. هذا ممكن جدا . وان **mademoiselle Blanche** نفسها يمكن أن تكون لها علاقات . ولكن —
mademoiselle Blanche هذه قد استدعتها الشرطة منذ سنتين ، بناء على شكايات من هذه البارونة نفسها ، وطلبت إليها مغادرة المدينة ، فغادرتها .

— كيف هذا ؟

— لقد ظهرت أول الأمر هنا في صحبة رجل ايطالى ، أمير ذى اسم تاريخى ، **بارييرينى** * . . أو شيء من هذا القبيل ، رجل تغطيه الخواتم ويغطيه الماس وهي حتى غير مزيفة . كانا يتترهان فى عربة رائعة تخلب الأبواب . وكانت **mademoiselle Blanche** تلعب **trente et quarante** ، ربحت فى أول الأمر ، ثم دار الحظ على ما أذكر ؛ حتى لقد خسرت فى ذات مساء مبلغا خرافيا . ولكن الأنكى من هذا أن أميرها غاب فى ^(١) **un bean matin** لا يدري أحد أين . . وغابت الخيول ، وغابت المركبة الفخمة — وغاب كل شيء . وكانت مدينةً للفندق بمبالغ ضخمة . فكنت ترى **mademoiselle** زلما (استحال اسم **بارييرينى** الى اسم **mademoiselle** زلما فجأة) فى ذروة الألم واليأس ، فهى تنتحب وتملأ الفندق نعاقا وعياطا ، وتأخذ تمزق ثوبها وهى فى سورة الحنق والغیظ . وكان أيامئذ فى الفندق كونت بولونى (ان جميع البولونيين كونتات حين

^(١) أحد الأصباح الرائعة (بالفرنسية فى الأصل)

يكونون على سفر ، فلما رأى mademoiselle زلما تمزق ثيابها وتخدش وجهها بيديها الجميلتين المعطرتين ، كما تفعل قطعة ، أحدثت في نفسه بعض التأثير ، فجرى بينهما حديث ، فما جاء موعد الغداء الا وكانت زلما قد تأست عن حزنها ؛ حتى اذا كان المساء ظهرت في الكازينو متأبطة ذراع الكونت البولوني ؛ فكانت تضحك ضحكا عاليا على عاداتها ، وأصبحت أكثر انطلاقا على السجية في حركاتها ، فسرعان ما أصبحت في عداد تلك الزمرة من السيدات اللواتي اعتدن لعب الروليت ، فاذا أرادت احداهن أن تشق لنفسها طريقا الى مائدة القمار رأيتها تدفع أحد اللاعبين بكل قوتها بمنكبها لتتخذ لها مكانا . هذه أناقة خاصة لهؤلاء السيدات هنا ، لا بد أنك لاحظتهن .

— نعم لاحظتهن .

— والأمر لا يستحق ذلك . ومما يثير مفضض الناس الشرفاء أنهم لا ينقطعن عن هنا ، على الأقل أولئك اللواتي يبدلن أوراقا نقدية من ذات الألف فرنك . ومع ذلك ، اذا انقطعن عن تبديل الأوراق النقدية ، أخذوا يرجونهن أن يتعدن . وقد استمرت mademoiselle زلما تبدل أوراقا نقدية ، ولكن حظها في القمار ساء مزيدا من سوء . لاحظ أن أمثال هاته السيدات كثيرا ما يحالفهن الحظ في اللعب ، فانهن يملكن السيطرة على أنفسهن بشكل عجيب . على أن حكايتي قد انتهت . ففي ذات يوم اختفى الكونت كما اختفى قبله الأمير . فجاءت mademoiselle زلما تقامر في المساء وحيدة ، لم يتقدم اليها هذه المرة أحد بذراعه

تأبطها . فما انقضى يومان حتى كانت قد خسرت كل ما كانت تملك ، ولما قامت بآخر ليرة ذهبية فخرستها ، نظرت حولها فرأت البارون فورمرهلم يتأملها بانتباه وقد ظهر في وجهه استياء عميق ؛ لكن mademoiselle زلما لم تميز الاستياء ، فاتجهت الى البارون بابتسامة لا لبس فيها ، راجية منه أن يضع من أجلها عشرة ليرات ذهبية على الأحمر . وبعد ذلك ، على أثر شكاية قدمتها البارونة ، طُلب في المساء منها أن لا تظهر بعد ذلك اليوم في الكازينو . فاذا كان يدهشك أنتى أعرف جميع هذه التفاصيل التافهة والمعيبة تماما ، فاعلم أنتى اطلعت عليها من مستر فيدر ، وهو قريب من أقرائى اصطحب mademoiselle زلما في ذلك المساء نفسه من رولنتبرج الى «سبا» بمركبته . فافهم الموضوع اذن : اذا كانت mademoiselle Blanche تريد أن تصبح زوجة جنرال فأغلب الظن انها تريد ذلك حتى لا يطلب اليها بعد الآن طلبٌ كذاك الطلب الذى قُدّم لها منذ ستين من شرطة الكازينو . لقد أصبحت لا تقامر ، ولكن ذلك يرجع الى أنها تملك الآن ، كما تدل على هذا جميع القرائن ، رأس مال تقرضه للمقامرين هنا بفائدة . ذلك أكثر تبصرا وربحا . وفى ظنى أن الجنرال المسكين واحد من المدنيين لها . ولعل دى جريو يدين لها بمال أيضا .. اللهم الا أن يكون شريكها . فافهم اذن لماذا لا تمنى ، على الأقل ، أن يتم الزواج ، أن تلفت اليها انتباه البارون والبارونة . أن الأمر أمر فضيحة يمكن أن تسيء اليها أكثر مما يمكن أن يسيء اليها أى شيء آخر فى الظرف الذى هى فيه

الآن . انك ملحق بأسرتهم ، ويمكن لأفعالك أن تثير فضيحة ،
لا سيما وأنها تظهر كل يوم أمام الناس متأبطة ذراع الجنرال
أو ذراع الآنسة بوليننا . فهل فهمت الآن ؟
— كلا . . لم أفهم !

بهذا صحت وأنا أضرب المنضدة بيدي ضربة قوية
جعلت " garcon يهرع مذعورا .

وأردفت أقول وأنا فى سورة شديدة من الغيظ والحنق :
— فاذا كنت ، يا مستر آستلى ، تعرف كل هذه الحكاية
وبالتالى تعرف حق المعرفة من هى mademoiselle Blanche
de Cominges ، فكيف لم تحذرنا — ، لا
أنا ، ولا الجنرال ، ولا الآنسة بوليننا خاصة ، التى كانت
تظهر هنا فى الكازينو على مرأى من جميع الناس متأبطة ذراع
mademoiselle Blanche ؟ أهذا ممكن ؟

فأجاب مستر آستلى هادئا :
— لم يكن هناك داع لأن أحذرك ، اذ لم يكن
فى وسعك أن تفعل شيئا . ثم مم أحذرك ؟ لعل الجنرال
يعرف من أمر mademoiselle Blanche أكثر مما أعرف ،
ثم لا يمنعه ذلك من أن ينتزه معها ومع الآنسة بوليننا .
ان الجنرال انسان مسكين . لقد رأيت mademoiselle Blanche
بالأمس تعدو على حصان رائع فى صحبة monsieur دى
جربو والأمير الروسى القصير ، ورأيت الجنرال يتبعهم على
فرس أحمر . كان قد شكأ فى الصباح من ألم فى ساقه ،

" خادم المقهى (بالفرنسية فى الأصل)

وها هو ذا الآن يمتطى صهوة الفرس بشكل رائع مع ذلك .
فخطر ببالي في تلك اللحظة على حين فجأة أن الجنرال
رجل ضاع الى الأبد ، أضف الى ذلك أن هذا الأمر
كله لا يعينى فى شيء ، وأنا لم أشرف بمعرفة الآنسة
بولينا الا منذ فترة قصيرة .

صمت مستر آستلى ، ولكنه لم يلبث أن أردف يقول فجأة :
— ثم اننى قد سبق أن أعلنت لك أننى لا أخولك
حق القاء بعض الأسئلة علىّ ، رغم ما أحمله لك من
صداقة مخلصه . .

قلت وأنا أنهض :

— يكفينى هذا . اننى أرى الآن رؤية واضحة أن
الآنسة بولينا تعرف هى أيضا عن *mademoiselle Blanche*
كل شيء ، لكنها لا تستطيع أن تفصل عن صاحبها
الفرنسى ، وهى من أجل ذلك انما ترضى أن تنتزه معها .
ثق أنه ما من نفوذ آخر كان يمكن أن يجبرها على التزّه
مع *mademoiselle Blanche* ، وعلى أن تضرع الىّ
فى رسالة تكتبها بخط يدها أن لا أمس البارون . هنالك
انما تدخل هذا النفوذ الذى ينحنى أمامه كل شيء ! ومع
ذلك ، فانها هى نفسها قذفتنى نحو البارون ! يا للجنة ! . .
أمور لا يفهم المرء منها شيئا !

— أنت تنسى أولا أن هذه *mademoiselle de Cominges*

هى خطيبة الجنرال ، وتنسى ثانيا أن للآنسة بولينا ، بنت
زوجة الجنرال ، أختا أصغر منها سنا ، هما ولدا
هذا الجنرال ، وهما مهملان اهمالا تاما من قبل هذا

الانسان المجنون ، ويبدو أنهما قد نهبا أيضا .
— نعم نعم ، هذا صحيح ! ان ترك هذين الولدين
يعنى هجرهما هجرا كاملا ؛ أما البقاء ففيه دفاع عن
مصالحهما ، وقد يكون فيه انقاذ لبعض فئات من ضيعة
الأسرة . نعم نعم ، هذا كله صحيح ! ولكن مع ذلك ..
مع ذلك ! أوه ! فهمت لماذا يهتمون جميعا كل هذا
الاهتمام بالجدة الآن !

سأل مستر آستلي

— بمن ؟

— بتلك العفريته العجوز المقيمة بموسكو والتي لم
تقرر أن تموت بعد . انهم ينتظرون البرقية التي تبلغهم نبأ
وفاتها .

— طبعا . الاهتمام كله مركز عليها . ان كل شيء
متوقف على الوصية . فمتى فتحت الوصية تزوج الجنرال ،
وأصبحت بولينا مطلقة الالدين ، واستطاع دى جريو .

— ماذا يستطيع دى جريو ؟

— ان يسترد قروضه . ذلك كل ما ينتظره هنا .

— أعتقد أن هذا هو كل ما ينتظره ؟

فأجاب مستر آستلي معتصما بصمت عني :

— لا أعرف بعد شيئا

قلت أكرر غاضبا حانقا :

— اما أنا فأعرف ، أنا أعرف .. انه ينتظر الميراث

أيضا ، لأن بولينا ستحظى بمهر ، فمتى حصلت على المال ،
ارتعت على عنقه . جميع النساء سواء ! أكثرهن كبرياء

يصبحن أحطهن عبودية ! ان بوليننا لا تستطيع إلا أن تحب
حبا قويا ، هذا كل شيء ! ذلك هو رأسي ! أنظر إليها ،
خاصة حين تكون جالسة وحدها تفكر : انها تبدو كمن
حكم عليه القدر ، وكتبت عليه اللعنة ، وكتب عليه أن
يقاسى جميع مكاره الحياة والهوى الجامح ! .. انها ..
انها .. ولكن من ذا يناديني ؟ (كذلك صحت فجأة) ..
من ذا يصرخ ؟ لقد سمعت من يصرخ باسمى بالروسية :
«ألكسى ايفانوفتش !» انه صوت امرأة . هل تسمع ،
هل تسمع ؟

كنا فى تلك اللحظة نقرب من فندقنا . لقد تركنا
المقهى منذ مدة طويلة ، دون أن نلاحظ ذلك تقريبا .
قال مستر آستلى وهو يمد يده فى اتجاه صوت امرأة :
— سمعت صوت امرأة تصيح ، ولكننى لا أعرف
من كانت تنادى . كانت تتكلم بالروسية . والآن أرى من
أين يأتى الصوت : انها تلك المرأة ، الجالسة على مقعد
كبير حملة الآن هؤلاء الخدم الكثر الى الشرفة . وها هم
أولاء يحملون وراءها حقائب . اذن لقد وصل القطار .
— ولكن لماذا تناديني ؟ ها هى ذى تستأنف المناداة :

أنظر ! انها تومى الينا .

قال مستر آستلى :

— نعم ، أرى .

— ألكسى ايفانوفتش ! ألكسى ايفانوفتش ! أوه !

رباه ما اغباه ! — كانت هذه الصيحات تصل الينا من
شرفة الفندق .

فركضنا حتى درجات المدخل تقريبا . فما ان اجتزت
فسحة السلم حتى تهدلت ذراعى من شدة الذهول ، وحتى
تسمرت قدامى فى الأرض لا تتحركان .





الفصل التاسع

على الفسحة العليا من السلم العريض الذي نقلت
إليه قاعدةً يحيط بها الخدام والخادومات ، ويحف بها
ذلك العدد الذي لا يحصى من مَهَّان الفندق الذين يبالغون
في اظهار آيات الاحترام بحضور رئيس خدم الفندق نفسه
الذي جاء يستقبل هذه الزائرة الجليلة ، التي تنزل الفندق
مع هذه الجلبة كلها ومع ناسها هؤلاء كلهم ومع هذه الأكوام
الكبيرة من الحقائب والصناديق . . كانت تترجع على عرشها . .
الجددة ! نعم انها بعينها آنطونيدا فاسيلفنا تاراسيفيتشيفا ،

الرهبة ، الثرية ، البالغة من العمر خمسة وسبعين عاما ،
صاحبة الأملاك ، السيدة العظيمة من سيدات موسكو ،
la baboulinka مدار تلك البرقيات الذاهبة الآية ، الميتة
التي ما تزال حية ، تنبجس الآن بيننا بشخصها بغتة ،
دون سابق انذار . لقد فقدت القدرة على استعمال رجلها ،
فهي تُحمل دائما على مقعد ، منذ خمس سنين ، ولكنها
ما تزال على عهدى بها نشيطة يقضى حادة اللسان معجبة
بنفسها منتصبه الجذع عالية الصوت حين تتكلم ، تصيح
بلهجة الأمر ، وتقرع جميع الناس ، أى على عهدى بها
تماما حين شرفت برؤيتها مرتين فى الفترة التي عينت فيها
معلما فى منزل الجنرال . ولقد كان طبيعيا أن أقف أمامها
متجمدا من الدهشة . كانت هى قد لمحتنى بعينها كعيني
الوشق ، من مسافة مئة خطوة ، حينما كانوا يصعدون بها
على مقعدها درجات السلم . فعرفتني فنادتني باسمى الكامل ،
وكانت قد حفظته الى الأبد بما عرفت به من قوة الذاكرة .
مرت فى خاطرى هذه الفكرة : « امرأة كهذه يأملون أن يروها
فى التابوت ويعولون على ميراثها بعد دفنها . ألا انها لسوف
تدفننا نحن وجميع من فى هذا الفندق !! رباه رباه ما
عسى يحدث لجماعتنا الآن ، ما عسى يفعل الجنرال !
لسوف تقلب الفندق كله فتجعل عليه سافله ! »
وتابعت الجدة تصرخ . قائلة :

— هيه يا عزيزى . . ما الذى دهاك حتى جمدت
فى مكانك هذا الجمود محمقا ؟ ألا تعرف كيف تحيى ؟
ألا تعرف كيف تقول صباح الخير ؟ أم تراك أشد كبرياء

وأشد زهوا من أن تفعل ؟ أم تراك لم تعرفني ؟ هل تسمع
يا بوتابتش (كذلك تابعت كلامها وهي تلتفت نحو عجوز
قصير أبيض الشعر ، يرتدى لباسا رسميا مع ربطة عتق
بيضاء ، ورأسه أصلع بلون الورد ، انه رئيس خدمها الذي
يصحبها في الأسفار) هل تسمع يا بوتابتش ، انه لم يتعرفني !
لقد دفنوني وانتهوا ! كانوا يرسلون البرقية تلو البرقية يسألون :
«هل ماتت ؟ أما ماتت بعد ؟» أنا أعرف كل شيء !
وهأنت ذا ترى . ان الدم ما يزال يجري في عروقي !
قلت بلهجة مرحة حين ثبت الى نفسي :

— عفوك يا أنطونيدا فاسيلفنا ، فيم عساني أتمنى
لك سوما ؟ كل ما في الأمر أنني دهشت . . وكيف لا
أدهش ؟ ان وصولك أمر لا يتوقع . .

— وما الذي يدهشك ؟ ركبت القطار وسافرت . وكان
القطار مريحا ، فلا اهتزاز ولا ارتجاج . هل كنت في نزهة ؟
— نعم قمت بجولة في الكازينو .

قالت الجدة وهي تنظر فيما حولها :

— يرتاح المرء هنا . الجو دافئ والأشجار رائحة !
هذا ما أحبه ! هل جماعتنا في البيت ؟ الجنرال ؟
— نعم هو في جناحه . أعتقد انهم جميعا هناك
في هذه الساعة .

— ها . . هنا أيضا . . يضبطون المواعيت ويراعون
الأصول ويضعون القواعد . قيل لي ان لهم مركبة ، هؤلاء
les seigneurs russes ! انهم بعد أن أتلفوا ثروتهم ،

^(١) النبلاء الروس ! (بالفرنسية في الأصل) .

انسلوا الى الخارج ! هل براسكوفيا . معه أيضا ؟
— نعم ، بولينيا ألكسندروفنا هنا أيضا .
— والفرنسي القصير ؟ ولكنني سأراهم جميعا بنفسى .
ألكسى ايفانوفتش ، قدنى الى الجنرال : وأنت ، أنت
هنا بخير ؟

— بين بين . . يا أنطونيدا فاسيلفنا .
— أنت يا بوتابتش ، قل لهذا الخادم الثقيل أن
يتزلونى شقة مريحة ، جميلة ليست عالية ؛ وليحملوا اليها
متاعى على الفور . ولكن لماذا يسعون جميعا ليحملونى ؟
ما شأنهم ؟ يا لهم من عبيد !
والتفتت الى مرة أخرى فسألتنى :
— من هذا الرجل الذى معك ؟
قلت :

— انه مستر آستلى .
— من هو مستر آستلى ؟
— مسافر من المسافرين أصبح لى نعم الصديق .
وهو يعرف الجنرال أيضا .

— هو انجليزى . لذلك يتفرس فى دون أن يفتح
فاه . على كل حال ، أنا أحب الانجليز . طيب انقلونى
الى فوق ، قودونى فوراً الى شقتهم . أين يقيمون ؟
أنهضت الجدة عن الأرض ، وتقدمت أنا الموكب
أصعد سلم الفندق العريض . كان موكبنا يخطف الأبصار .
كان جميع من نصادفهم يتوقفون ويأخذون ينظرون بكل أبصارهم .
ان فندقنا يعد أجمل فنادق المدينة ، وأغلاها سعرا ،

وأرفعها أرستقراطية . وأنت تلتقى دائما على السلم ، وفي الأروقة والممرات ، بسيدات بارعات الحسن ، وانجليز من ذوى المهابة والوقار . وقد مضى كثير من هؤلاء يسألون رئيس الخدم عن هذه السيدة من تكون ، وكان نفسه مأخوذا مفتونا ، فكان يجيب السائلين طبعاً بأنها أجنبية مرموقة من الطبقة الراقية ، ^(١) une russe, une contesse, grande dame وبأنها ستحتل الجناح الذى كانت تحتله منذ أسبوع ^(٢) la grande duchesse de N ان القسامت الصارمة والملامح المسيطرة فى الجدة المتربعة على عرشها المحمول هى التى كانت تجذب الانتباه خاصة . وكانت كلما صادفنا أحداً تزنه بنظرتها الفاحصة فوراً ، ولا تنى تلقى على أسئلة عن جميع الناس بصوت عال . كانت الجدة كبيرة الجسم ، وورغم أنها لم تبارح كرسيها فان المرء يحزر متى رآها أنها طويلة القامة . انها تجلس منتصبه الجذع كعمود لا تستند على الكرسى ، وترفع رأسها الكبير عالياً ، أبيض الشعر ، بوجه كبير التقاطيع حاد الملامح . وهى تنظر اليك نظرة كبرياء بل ونظرة تحد . ولكنك تحس أن نظرتها وحركاتها طبيعية تماماً لا اصطناع فيها . وورغم الخمسة والسبعين عاماً ، كان فى وجهها شيء من نضارة ، وحتى أسنانها لم تكن قد ساءت حالها كثيراً . وكانت ترتدى ثوباً من حرير أسود وتضع على رأسها قبعة صغيرة بيضاء .

^(١) روسية ، كونتيسة ، سيدة عظيمة الشأن (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) دوقة ن . العظيمة (بالفرنسية فى الأصل) .

قال لى مستر آستلى مدمدما وهو يصعد السلم الى
جانبى :

— انها تشوقنى كثيرا .

قلت لنفسى : «انها على علم بأمر البرقيات ، وهى
تعرف دى جريو ، ولكنها ما تزال تجهل m-Ile Blanche
فيما يظهر» . وأفصحت فوراً عن هذا لمستر آستلى .
أعترف ، على خجل ، أننى ما ان ذهبت عنى
دهشتى الأولى ، حتى شعرت بابتهاج شديد للضربة التى
كنا ذاهبين نكيلها للجنرال بعد لحظة . وكان لهذا الشعور
فى نفسى أثر الحافز والدافع ، فكنت أغد الخطى فرحا
كل الفرح .

كان أصحابنا قد اتخذوا مقرهم فى الطابق الثالث .
فلما وصلت فتحت الباب على مصراعيه دون انذار ومن
غير أن أطرقه ، فدخلت الجدة دخولها المظفر . كانوا
جميعا هنالك ، كأنما على عمد ، قد التأم شملهم فى
مكتب الجنرال . وكان الوقت ظهرا ، وكانوا ينون ، فيما
يظهر ، أن يقوموا بنزهة مشتركة ، اما فى المركبة واما على
ظهور الخيل . وكان هناك ضيوف أيضا . . كان فى المكتب
عدا الجنرال وبولينيا والأولاد وخدامتهم : دى جريو ،
m-Ile Blanche مرتدية تنورة الفارسات من جديد ،
وأما m-me veuve Cominges والأمير القصير ، وعالم رحال
ألمانى كنت قد رأيته عندهم مرة . قُدم كرسى الجدة حتى
صار فى وسط الحجرة على بعد ثلاث خطوات من الجنرال .
اللهم انى لن أنسى الأثر الذى أحدثه دخولنا ما حييت ! . .

حين دخلنا كان الجنرال يحكى شيئا ما ، وكان دى جريو يصححه . يجب أن أذكر أن m-lle Blanche ودى جريو قد أصبحا منذ يومين أو ثلاثة ملتفين حول الأمير القصير يحتفلان به أشد الاحتفال^١ à la barbe du pauvre général وكان الجمع قد اصطنع أسلوبا لعل فيه شيئا من تكلف ولكنه مرح ودود حميم . فلما رأى الجنرال الجدة جمد فاعراها فاه على النصف من كلمة كان ينطق بها . . وأخذ يحدق فيها جاحظ العينين كأن غولا ظهر له فأذهله وفتنه عن نفسه . وكانت الجدة تتأمله أيضا جامدة دون أن تنطق بكلمة ، ولكن ما كان أعجبها نظرة ظافرة متحدية ساخرة ! هكذا ظل الاثنان ينظر أحدهما فى الآخر مدى عشر ثوان كاملة فى صمت مطبق . وقد ذهل دى جريو أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ظهر فى وجهه قلق شديد الى أبعد الحدود . أما m-lle Blanche فقد رفعت حاجبيها ، وفغرت فاهها ، وراحت تنفوس فى الجدة كالبهائم . وكان الأمير والعالم يتأملان هذا المنظر متحيرين مرتبكين . وفى نظرة بوليننا كان يقرأ المرء دهشة عظيمة وارتباكاً شديداً ، ثم لم تلبث أن أصبحت بيضاء كالثلج على حين فجأة ؛ وما هى الا لحظة حتى عاد الدم يزدحم فى وجهها فاذا خداهها بلون الأرجوان حمرة . نعم لقد كان وصول الجدة كارثة للجميع ! وكنت أنا لا أزيد على أن أنقل نظراتى بين الجدة وسائر الحضور . أما مستر آستلى فقد ظل ، على

^١ امام عيني الجنرال المسكين (بالفرنسية فى الأصل) .

عادته ، متنجيا وقورا هادئا .

وانفجرت الجدة تقطع الصمت أخيرا فتقول :

— هأنذا ! لقد جثتكم بدل البرقية ! ما كنتم تتوقعون

مجيبى ، أليس كذلك ؟

— أنطونيدا فاسيلفنا . . يا عمى الطيبة . . يا لها من

مصادفة !

كذلك جمجم الجنرال المسكين ، ولو قد لزمت الجدة الصمت

بضع ثوان أخرى ، اذن لكان يمكن أن يصاب بنوبة .

— عن أية مصادفة تتحدث ؟ لقد ركبت القطار

وجثت . وما فائدة السكك الحديدية اذن ؟ كنتم تتصورون

جميعا أننى سأخرج من منزلى على نعش ، تاركة لكم

الميراث ؟ اننى أعرف أنك أرسلت برقيات من هنا . ولا

بد أن يكون ذلك قد كلفك نفقات باهظة . ان أجور

ارسال البرقيات من هنا ليست بالزهيدة . ولكننى حملت

شجاعى بين يدى وجثتكم بنفسى . هو ذا الفرنسى ؟

Monsieur دى جريو فيما أظن ؟

أجاب دى جريو :

—Oui, madame, et croyez, je suis si enchanté...

votre santé...c'est un miracle... vous voir ici, une

surprise charmante...^(١)

^(١) نعم يا سيدتى ، وفقى أننى مبتهج أشد الابتهاج . . . ان

عافيتك . . انها لمعجزة . . أنراك هنا . . انها لمفاجأة رائعة . . .

(بالفرنسية فى الأصل)

— اما أنها رائعة فنعم . اننى أعرفك أيها الممثل
المهرج ، ولا أصدق من كلامك مقدار أنملة ! (قالت
ذلك وهى ترفع خنصرها) . من هذه ؟ (سألت هذا السؤال
وهى تشير الى m-lle Blanche) . كان واضحا أن
الفرنسية المثيرة التى ترتدى تنورة الفارسات ، وتحمل بيدها
سوطا ، قد خطفت بصر الجدة . وأردفت الجدة تقول : —
أهى من هنا ؟
قلت :

— هى mademoiselle Blanche de Cominges
وهذه أمها madame de Cominges وهما تنزلان هذا
الفندق .

سألت السيدة العجوز بغير كلفة ولا حرج

— أهى متزوجة ؟

قلت بأكبر احترام ممكن وأنا أخفض صوتى عامدا :

— بل هى آنسة .

— أهى مرحة ؟

ولم أفهم السؤال .

— ألا يشعر المرء بالضجر من صحبتها ؟ هل تتكلم
الروسية ؟ لقد تعلم دى جريو شيئا من لغتنا فى موسكو
ولو بصورة سيئة .

فشرحت لها أن m-lle de Cominges لم تذهب الى
روسيا يوما .

قالت الجدة بلهجة مباغته وهى تتجه بالكلام الى
m-lle Blanche بغير توطئة ولا تمهيد :

— Bonjour! (١)

— Bonjour, madame.

كذلك ردت m-lle Blanche ، مغرقةً في تبجيل مقصود واحتفال مدروس ، مظهرةً من تحت ستار هذا التهذيب الشديد والتواضع البالغ ، بكل تعبير وجهها وشخصها ، دهشتها الفائقة من سؤال غريب هذه الغرابة ، ومن سلوك شاذ هذا الشذوذ .

— أوه . . انها تغض عينها ، وتصطنع الأدب ، فيرى المرء فوراً مع أى طير من الطيور يتعامل : ممثلة أو شيء من هذا القبيل . لقد نزلتُ هذا الفندق ، وسكنت تحت (قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تتجه فجأة نحو الجنرال) . سنصبح جيراناً أيسرك هذا أم لا ؟ فأجاب الجنرال :

— أوه . . عمتى ! ثقى أننى أشعر بأصدق عواطف الابتهاج . . .

كان الجنرال قد ثاب الى نفسه بعض الشيء ، واذ كان يعرف عند الضرورة كيف يجد التعابير المناسبة طامعاً فى أن تحدث أثرها ، فقد أخذ يسهب فى الكلام ويطنب فيقول فيما يقول : لشد ما آلمنا وهزنا ما كان يصل إلينا من انباء عن مرضك . . . لقد كانت تصلنا برقيات تبلغ من شدة ايلامنا أننا . . . وفجأة . . . فقطاعته الجدة فوراً تقول

(١) صباح الخير (بالفرنسية فى الأصل)

— كذاب ! كذاب !

فقاطعها الجنرال بدوره ، رافعا لهجته متظاهرا بأنه لم يسمع كذاب هذه :

— كيف قررت أن تقومي برحلة كهذه الرحلة ؟ لا شك أنك توافقيني على أن قيامك برحلة كهذه ، في مثل سنك وفي مثل حالتك الصحية .. هو .. على الأقل .. أمر لا يتوقع فلا عجب اذا دهشنا .. ولكنني سعيد جدا بوصولك الينا .. وسوف نبذل كل ما في وسعنا (هنا أخذ يتسم معبرا عن فرح حنون) من أجل أن نجعل اقامتك هنا ممتعة الى أقصى حد ممكن ..

— دعك من هذا الكلام .. كفى ثثرات لا فائدة منها . ما أراك تقول الا ترهات ، على عادتك . لسوف أعرف بنفسى كيف أحسن قضاء الوقت . على أننى غير حانقة عليكم ، فما أنا بالحقود .. تسألنى كيف قررت القيام بهذه الرحلة ؟ وماذا يعجبك ؟ الأمر بسيط غاية البساطة . ما لهم يتعجبون جميعا ؟ صباح الخير يا براسكوفيا . ماذا تفعلين هنا ؟

قالت بولينيا ، وهى تقترب :

— صباح الخير يا جدتى . هل طالت رحلتك ؟ — هذا سؤال اذكى من جميع الاسئلة ، بدلا من تلك الأوهام والآهات جميعها .. هذا ما حدث : لبثت زمانا طويلا راقدة فى سريرى أعالج من المرض . وبعدئذ طردت جميع الأطباء ، واستدعيت قندلفت كنيسه القديس نيقولا ، وكان قد شفى احدى النساء من هذا المرض نفسه

ببعض الأعشاب ؛ فخفض هذا الدواء عنى ، اذ رأيتنى
 بعد يومين أنضح عرقاً من كل جسمى ، فنهضت ، وجاء
 الألمان فقالوا لى مجتمعين ، بعد أن وضعوا نظاراتهم على
 أعينهم ، وبعد أن تذكروا فى الأمر : «اذا قمت الآن
 برحلة الى الخارج للتداوى بالمياه المعدنية ، فان انسداد
 الأمعاء سيزول زوالاً كاملاً» . قلت لفسى : «لم لا ؟»
 وأخذ افراد أسرة زاجيغين الحمقى يصيحون قائلين : «انه
 لجنون أن تذهبى الى هنالك !» ولكننى لم أكثرث . فما
 انقضت أربع وعشرون ساعة حتى صرت أمتعتى .
 فى الاسبوع الماضى ، يوم الجمعة ، أخذتُ
 خادمة وبوتابتش ثم خادم فيدور الذى عدت فأرجعته من
 برلين اذ رأيت أننى فى غير حاجة اليه قط ، وأنه كان
 فى وسعى أن أسافر وحدى . . . وحجزت فى القطار حجرة
 خاصة . ألا ما أكثر الحمالين فى جميع المحطات !
 تقدمهم عشرين كوبكاً ، فينقلونك الى حيث تشاء .
 وختمت الجدة كلامها وهى تنظر حوالها قائلة :
 — ان لكم لشقة جميلة ! من أين تجيء بالمال
 يا عزيزى ؟ لقد رهنت كل شيء اذا صدق ظنى : هذا
 الفرنسى الصغير وحده له عليك أكوام من مال ! أنا أعرف
 كل شيء ، أعرف كل شيء !
 قال الجنرال وقد بلغ ذروة الاضطراب :
 — أنا يا عمى فى دهشة . . وأحسب أننى أستطيع
 دون رقابة أحد أن . . ثم ان نفقاتى لا تريد على مواردى ،
 ونحن هنا . .

— نفقاتك لا تزيد على مواردك ؟ ألا انك لجريء ! ..
لا بد أنك جردت أولادك من آخر كوبيك اذن ، وأنت
الوصى عليهم !

عاد الجنرال يقول غاضبا : — بعد هذا ،
بعد مثل هذا الكلام الذى تقولينه .. لا أدرى ..

— لا تدري ماذا ؟ أعتقد أنك لا تتبعد عن الروليت
هنا ! فأنت اذن على الحصر !
بلغ الجنرال من الانصعاق أنه كاد يختنق من شدة
الانفعال .

— أنا أذهب الى الروليت ؟ أنا ؟ أرجل فى مثل
مركزى يفعل ذلك ؟ أنا ؟ هدنى روعك يا عمى .. يبدو
انك ما شفيت بعد

— كل هذا أكاذيب ! أراهن على أنه يستحيل انتراعك
من الروليت ! أنت تكذب لا أكثر ! .. سأذهب اليوم
بنفسى لأرى ما هى هذه الروليت ؟ براسكوفيا ، اذكرى
لى ما يستحق أن يزار هنا . سيقودنى الكسى ايفانوفيتش ..
أنت يا بوتابتش سجل قائمة بجميع الأماكن التى سنزورها .
ما الذى يستحق أن يرى هنا ؟ (كذلك رددت تقول متجهة
بالسؤال الى بولينا من جديد) .

— فى الضواحي توجد آثار قصر خرب ؛ ثم هنالك
شلانجنبرج .

— ما هو شلانجنبرج هذا ؟ أهو غابة ؟

— بل جبل . وتوجد هنالك قمة .

— ما هى هذه القمة ؟

— هي أعلى موضع في الجبل ، قد أحيط بسياج ،
فليس لجمال المنظر هنالك ما يضارعه .
— ويجب الصعود الى هناك في الكرسي . أهذا ممكن ؟
قلت :

— جدا . في امكاننا استئجار حمالين .
وفي هذه اللحظة جاءت فيدوسيا ، المريية ، تحيى
الجدة وأتت لها بأولاد الجنرال . .
— آ . . دعونا من التبويس . . أنا لا أحب تقبيل
الأطفال . انهم جميعا تسيل أنوفهم . . كيف تجددين نفسك
هنا يا فيدوسيا ؟
أجابت فيدوسيا تقول :

— نحن هنا بخير يا سيدتى الطيبة أنطونيدا فاسيليفنا .
وأنت كيف كان حالك يا سيدتى العزيزة ؟ لشد ما أفلقنا
أمرك !

— أعرف . أنت وحدك على الأقل انسانية بسيطة
النفس . أجميع هؤلاء الناس ضيوف عليكم ؟ (هكذا
أضافت الجددة توجه السؤال مرة اخرى الى بولينا) . من
هذا النجيل ذو النظارتين ؟
فأجابت بولينا همسا :

— هو الأمير نلسكى يا جدتى .
— آ . . هو اذن روسى ؟ وأنا كنت أظن أنه لا يفهم
كلامنا ! لعله لم يسمع ! لقد سبق أن رأيت مستر آستلى .
ولكن ها هو ذا مرة أخرى .
قالت الجددة ذلك حين لمحتته وحيته فجأة بقولها :

— صباح الخير !

فانحنى مستر آستلى دون أن يقول شيئا .
قالت الجدة :

— هيا . . قل لى شيئا ممتعا . قل شيئا ما ! ترجمى
له كلامى يا بوليننا .
وترجمت بوليننا .

— سأقول لك اننى مبتهج برؤيتك ابتهاجا كبيرا ،
ويسعدنى أن أراك موفورة العافية .

كذلك أجاب مستر آستلى بلهجة جادة ، ولكن على
لطف كبير . وترجمت هذه الكلمات للجدة ، فكان واضحا
أنها أعجبت بها . قالت الجدة :

— ان لى هؤلاء الانجليز جوابا على كل شىء دائما .
لا أدرى لماذا أحب الانجليز ! لقد أحببتهم عمري كله .
لا وجه للمقارنة بينهم وبين الفرنسيين ! أرجو أن تزورنى
يا مستر آستلى ، وسأحاول ان لا أضجرك كثيرا . ترجمى
له هذا الكلام ، وقولى له أننى أقيم هنا فى الأسفل .
فى الأسفل ، فى الاسفل ، هل سمعت ؟ (كررت الجدة
هذه الجملة الأخيرة وهى تشير بأصبعها الى أرض الغرفة) .
سُر مستر آستلى لهذه الدعوة سرورا عظيما .

وألقت الجدة على بوليننا نظرة متببهة راضية لفتها من
قمة رأسها الى أخمص قدميها . ثم قالت لها بغتة :
— أود لو أحببتك يا براسكوفيا . أنت فتاة شهمة .
أنت خيرهم جميعا . لكن لك طبعا من تلك الطباع . .
وأنا مثلك على كل حال . . استديرى قليلا : هل شعرك

هذا مستعار ؟

— لا يا جدتي ، هذا شعري أنا .

— الحمد لله . . اننى أمقت تلك «الموضة» السخيفة
الحديثة . أنت جميلة جدا . لو كنت شابا لوقعت فى
غرامك . لماذا لا تتزوجين ؟ ولكن آن لى أن أنصرف .
أحب أن أنتزه قليلا بعد أن قضيت ذلك الوقت كله فى
عربة القطار . . .

وأضافت تقول للجنرال :

— هه . . أما زلت غضبان ؟

قال الجنرال وقد هدأ روعه :

— كفى يا عمتى ، أرجوك . . اننى أفهم . . فى مثل

سنك . .

دمدم دى جريو يقول لى همسا :

— Cette vieille est tombée en enfance ^(١)

قالت الجدة للجنرال تسأله :

— أريد أن أرى كل شىء هنا ؛ هل تستغنى لى

عن ألكسى ايفانوفيتش ؟

— بكل سرور . ولكننا جميعا ، أنا وبولينسكا

و monsieur دى جريو . . سيسعدنا جميعا كثيرا أن

نصحبك . . .

قال دى جريو وهو يتسم ابتسامة فاتنة :

— Mais, madame, cela sera un plaisir. ^(٢)

^(١) هذه المعجزة رجعت الى الطفولة . (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) ولكن يا سيدتى ، انها لمسة لنا . (بالفرنسية فى الأصل) .

فقاطعته قائلة :

— هم ..plaisir.. أنت تضحكنى يا عزيزى .
على كل حال لن أعطيك شيئا من المال (أضافت هذه
الجملة الأخيرة متجهة الى الجنرال) . خذونى الى شقتى :
أريد أن القي عليها نظرة ؛ ومن ثم نمضى نطوف فى
كل مكان . انقلونى

حُملت الجدة من جديد ، ونزلنا السلم موكبا وراء
كرسيها . كان الجنرال يسير كمن أطاشت صوابه ضربة
من عصا . وكان دى جريو ممعنا فى التفكير . أما m-lle
Blanche فقد أرادت فى أول الأمر أن تمكث فى
المكتب ولكنها رأت بعد ذلك ، لسبب ما ، أن من الأفضل أن تتبعنا ،
فمشى الأمير وراءها رأسا . فلم يبق فى شقة الجنرال الا
الألماني و madame veuve Cominges .





الفصل العاشر

في مدن المياه المعدنية ، وربما في أوروبا كلها ، ترى مديري الفنادق ، ورؤساء خدم الفنادق ، حين يعينون لأحد النزلاء شقة من الشقق ، لا يستوحون اختيارهم من رغبات التزيل أو مطالبه ، بل يستوحونه من رأيهم في هذا التزيل . ويجب أن نعترف أنهم قلما يخطئون . ولكنهم خصصوا للجدة ، الله يدرى لماذا ، مسكنا يبلغ من البذخ أنهم في هذه المرة تجاوزوا الحدود : أربع غرف مزدانة بفاخر الأثاث ، مع حمام ، وحجرات ملحقة للخدم ،

غرفة مستقلة للوصيفة ، الخ الخ . ان grande duchesse
قد اقامت في هذه الغرف منذ سبعة أيام فعلا ، وأبلغ
التزاء الجدد هذه الواقعة على الفور طبعاً ، بغية ان يُخلع
على المسكن مزيد من القدر والقيمة . نقلت الجدة بل
قل نقلت بين جميع الغرف ، فكانت تدقق النظر فيها
بانتهاب وقسوة ، يصحبها رئيس الخدم نفسه ، وهو رجل
اصلح متقدم في السن قليلاً ، ويلاطفها أثناء هذه الجولة
التفقدية الأولية .

لا أدري من حسبوا الجدة . لا شك أنهم عدوها
شخصية مرموقة جداً ، وثرية جداً بخاصة . حتى لقد
أسرعوا يسجلون في سجل التزاء : “Madame la générale
”^(١) “princesse de Tarassevitcheva” رغم أن الجدة لم
تكن يوماً أميرة . ولا شك أن كثرة الخدم ، والجنح المحجوز
في القطار ، وهذا الجبل من الرزم التي لا لزوم لها ، ومن
الحقائب ، بل ومن الصناديق التي أنزلت مع الجدة ، لا
شك أن هذا كله كان بمثابة قاعدة قامت عليها مهابتها
في نظرهم ؛ ثم ان الكرسي الذي تقعد عليه ، واللهجة
القاطعة التي تخاطب الناس بها ، وصوتها ، وأسئلتها الغريبة
الشاذة التي تلقيها طليقة بلا تحفظ ، ولا تحتمل أى اعتراض
عليها ، وجملة شخصيتها المنتصبة ، العنيفة ، المتسلطة ،
أقول ان هذا كله قد انتهى بأن أكسبها تعظيم جميع الناس
وتبجيلهم . كانت الجدة ، أثناء استعراض شقتها ، تأمر

^(١) السيدة الجنرالة الأميرة تاراسيفيتشيفا (بالفرنسية في الأصل) .

بوقف كرسيها فجأة ، فتشير الى قطعة من قطع الأثاث ،
وتلقى على رئيس الخدم أسئلة ليست فى التوقع أو الحسبان ،
فيتسم اجلالا واحتراما ، ولكنه كان قد أخذ يرتجف ويرتعد .
وكانت تلقى عليه أسئلتها بفرنسيتهما الرديئة ، فكان على فى
أكثر الأحيان أن أتولى الترجمة . وكانت أجوبة الرئيس لا
يرضيها أكثرها ، وكانت تبدو لها ناقصة غير كافية . ثم
انها كانت تلقى أسئلة كأنها لا معنى لها والله يعلم عن
ماذا : كانت تتوقف على حين فجأة مثلا أمام لوحة من
اللوحات ، هى نقل ضعيف عن أصل شهير موضوعه مستمد
من الأساطير اليونانية ، فتسأل :

— من تصور هذه الصورة ؟

فيجيب رئيس الخدم بقوله :

— لعلها تصور إحدى الكونتيسات .

— كيف ؟ أنت لا تعلم ذلك علم اليقين ؟ أتسكن

هنا ثم لا تعلم علم اليقين ؟ لماذا وضعت هنا ؟ ولماذا
تنظر المرأة هذه النظرة الحولاء ؟

فكان رئيس الخدم لا يستطيع أن يجيب على هذه
الأسئلة كلها اجابات ترضيها ، حتى لقد كان يشده ويذهل .
قالت الجدة باللغة الروسية :

— يا له من غبى !

ونقلت الجدة الى أبعد من ذلك ، فتكرر هذا الأمر
نفسه بصدد تمثال صغير من الخزف تأملته الجدة طويلا ،
ثم أمرت باخراجه من هذا المكان ، لا يدري أحد لماذا !
وأغرقت الرئيس أخيرا بوابل من الأسئلة : كم كانت أثمان

سجادات غرفة النوم ، وأين تصنع هذه السجادات ، فوعدها
بأن يستعلم عن هذه الأمور .
دمدمت تقول :

— يا لهم من حمير !
ثم التفتت بانتباهها كله الى السرير . وقالت :
— يا له من غطاء فخم ! هيا . . فكُّوه !
ففك غطاء السرير .

— أيضا أيضا ، انزعوا كل شيء . انزعوا المخدات ،
والاغطية ، واللحاف .

قلب السرير رأسا على عقب . وراحت الجدة تنعم
النظر في كل شيء .

— من حسن الحظ أنه لا يوجد بق هنا . خذوا
جميع البياضات ! وستضعون في مكانها بياضاتي ومخداتي .
على كل حال ، هذا كله مسرف في الترف والبذخ . ما
حاجتي ، انا العجوز ، الى مثل هذه الشقة ؟ ان المرء
يشعر بالملل والضجر وحده ! يا الكسى ايفانوفتش لا يفوتتك
أن تأتي الى كثيرا بعد فراغك من تدريس الأولاد .
قلت :

— لقد أصبحت لا أعمل في خدمة الجنرال منذ
أمس وأسكن في الفندق مستقلا .
— لماذا ؟

— وصل من برلين منذ مدة ألماني ذو مكانة تصحبه
زوجته . انه بارون . وأمس ، أثناء التزهة ، خاطبته بالألمانية
دون أن أراعي اللهجة البرلينية .

— وما فى ذلك ؟

— عدّ ذلك وقاحة منى ، فشكاني الى الجنرال ،

فطرذنى الجنرال أمس من عملى فوراً .

— ولكن ماذا ؟ هل انت شتمت ذلك البارون ؟

(وهبك فعلت ، فليس فى هذا ضمير كبير !)

— بالعكس . انه هو الذى رفع عصاه علىّ .

فقلت العجوز للجنرال بغتة :

— وأنت يا مخاط ، كيف سمحت ان يُعامل مربى

أولادك هذه المعاملة ؟ ثم تطرده من عمله فوق ذلك كله ؟ ..

ما أرى الا أنكم جميعا دجاجات مبتلة لا تصلحون لشيء .

أجاب الجنرال بلهجة فيها الألفة والتعالى معا :

— لا تقلقى يا عمة . اننى أعرف كيف أدبر شئونى

بنفسى ثم ان ألكسى ايفانوفتش لم يصور لك الواقع

تصويرا صحيحا .

قالت لى الجدة :

— وكيف احتملت ذلك ؟

قلت مصطنعا أكبر التواضع وأعظم الهدوء :

— اردت ان أدعو البارون الى المبارزة ، ولكن الجنرال

عارض فى ذلك .

سألت الجدة الجنرال من جديد :

— لماذا عارضت ؟

ثم التفتت الى رئيس الخدم فقالت له أيضا :

— امض الى شأنك أنت يا عزيزى ، ثم تعود

متى ناديناك . لا فائدة فى ان تقف فاغرا فمك .

وأضافت :

— اننى لا أطيق رؤية سحن هؤلاء النورنبرجيين !
فحيا رئيس الخدم وانصرف ، دون أن يفهم هذا
التقريظ طبعا .

أجاب الجنرال وهو يطلق ضحكة صغيرة :

— عفوك يا عمى . . هل المبارزات ممكنة ؟
— ولم لا ؟ الرجال جميعا ديكة . كانا سيقتلان ،
ويتهى الأمر . ولكنكم دجاجات مبتلة ، كما أرى . انكم
عاجزون عن الدفاع عن شرف بلدكم . هيا احملونى !
بوتابتش ! دبر ان يكون هنالك دائما شيالان فى خدمتى .
عينهما وحدد الشروط . يكفى اثنان . لن يكون عليهما أن
يحملانى الا عند صعود السلم . أما على الأرض المستوية ،
وفى الشارع ، فسيدفعاننى . اشرح لهما هذا . وانقدهما
سلفة ، فيكونا أكثر أدبا وتهديبا . وستظل أنت دائما قربى .
وأنت يا ألكسى ايفانوفتش ، سوف ترينى هذا البارون
أثناء التزهة : أحب على الأقل أن أرى من هو هذا
«فون بارون» . هيا بنا ! أين هى تلك
الروليت ؟

فشرحت لها أن موائد الروليت موضوعة فى قاعات
الكازينو . ثم أخذت أسئلة الجدة تنهمر : «هل هناك
كثير من موائد الروليت هذه ؟ هل ثمة ناس كثيرين يقامرون ؟
هل تستمر المقامرة طول النهار ؟ كيف هى مرتبة ؟ . .»
فأجبت أخيرا بأن الأفضل أن ترى هذا كله بعينها ، لأن
الوصف بهذه الطريقة صعب .

— طيب . احملونى اذن الى هناك رأسا ! تقدمنا
أنت يا ألكسى ايفانوفتش !

— كيف هذا يا عمى ؟ هلا نلت قسطا من الراحة
أولا بعد الطريق المتعبة ؟

كذلك سألها الجنرال متلطفا .

كان الجنرال مضطربا بعض الاضطراب . على أن
الجميع كان يبدو فى وجوههم شىء من الارتباك ، وكانوا
يتبادلون النظرات . ولعل مرد ذلك الى أنه كان يزعجهم
أو يخجلهم أن يصبحوا الجدة الى الكازينو ، فقد تندفع
هنالك فى سلوك شاذ ، على مرأى من الناس فى هذه
المره . ومع ذلك اقترحوا جميعا بانفسهم أن يرافقوها .

— وعلام ارتاح ؟ لست تعبانة . لقد لبثت خمسة
أيام برمتها ساكنة لا أتحرك . وبعد ذلك نمضى الى بناييع
المياه المعدنية ، المياه الشافية . . وبعد يناييع المياه نذهب
الى . . كيف سميتها يا براسكوفيا ؟ . . الى القمة . . أهكذا
سميتها ؟

— نعم يا جدتى !

— نذهب الى القمة . وماذا يوجد هنا أيضا ؟

قالت بولينا مرتبكة :

— هنا أشياء كثيرة يا جدتى .

— طيب . انت نفسك لا تعرفين جيدا ! مارفا ،

تعالى معى أيضا .

كذلك خاطبت الجدة وصيفتها .

فقال الجنرال قلقا على حين فجأة :

— لماذا تريدین أن ترافقک یا عمتی ؟ هذا مستحيل .
وانی لأشک أيضا فی أن یسمح لبوتابتش بالدخول الی الکازینو .
— سخافات ! أندعها اذن خارج الکازینو ، لأنها
خادم ؟ ألیست مخلوقا حیا ؟ لقد قضینا اسبوعا نقطع
الطرق ، فهی تحب أيضا أن تری شیئا . مع من یمکن
أن تذهب اذا لم تذهب معی أنا ؟ انها لا تجرؤ حتی
أن تخطو فی الشارع وحدها !
— ولكن یا جدتی . . .

— لعلک تخجل أن تصحبنی . فما علیک الا أن
تبقى حیث أنت ، ولست أطلب منک شیئا جنرال !
شخصیة عظیمة ! ولكننی جنرالہ أنا أيضا ! ثم اننی لست
فی حاجة الی أن أجر ورائی کل هذا الموبک ، سأری کل
شیء فی صحبة الکسی ایفانوفتش . .
ولکن دی جریو أصر علی أن یرافقوها جمیعا ، وأخذ
یتدفق جملاً لطیفه تعبر عن متعة مرافقتها ، الخ . وسار
الجمیع

کرر دی جریو یقول للجنرال :

— Elle est tombée en enfance, seule elle
fera des bêtises...⁽¹⁾

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك . ولكن لا شک أنه
کان بیئت فی ذهنه فکرة ما ، بل لعله قد عاوده الأمل .

⁽¹⁾ لقد رجعت الی الطفولة . . فلو ترکناها وحدها اذن لارتکبت
حماقات . . . (بالفرنسیة فی الأصل)



المسافة بيننا وبين الكازينو خمسمائة متر تقريبا .
 سلطنا طريق أشجار الكستناء حتى وصلنا الى الساحة فدرنا
 حولها ثم دخلنا الكازينو رأسا . كان الجنرال قد أطمأن
 روعه بعض الاطمئنان ، لأن مؤكبتنا كان ، على غرابته
 وشذوذه ، لا يخلو من مهابة ووقار . وليس غريبا أن تأتي
 الى مدن المياه شخصية مريضة أصابها الضعف والكساح .
 ولكن كان واضحا أن الجنرال يخشى الكازينو . فعلام تذهب
 امرأة كسيحة ، هي فوق ذلك عجوز هرمة ، علام تذهب
 امرأة كهذه الى الروليت ؟ وكانت بولينا و m-lle Blanche
 تسييران على جانبي الكرسي المتحرك . ان m-lle Blanche
 تضحك ، وتظهر شيئا من مرح متخف ، وتبادل والجدة
 بعض الأمازيح من حين الى حين ، حتى أن الجدة لم
 يسعها الا أن تكيل لها آخر الأمر بعض المديح . وكانت
 بولينا ، على الجهة الأخرى من الكرسي ، مضطرة الى
 الاجابة على الأسئلة الكثيرة المستمرة التي تلقاها عليها الجدة ،
 وهي من نوع الأسئلة التالية : «من هذا الذى صادفناه
 الآن ؟ من هي تلك المرأة الراكبة العربية ؟ هل المدينة
 كبيرة ؟ هل الحديقة واسعة ممتدة الأطراف ؟ ما هذه
 الأشجار ؟ ما أسماء هذه الجبال ؟ هل يوجد هنا نسور ؟
 ما هذا السطح المضحك ؟ » . وتمتم مستر استلى الذى
 كان يسير الى جانبي ، تتمم يقول لى أنه يتوقع من هذا
 الصباح أشياء كثيرة . وكان بوتابتش ومارفا يسييران فى الخلف
 وراء الكرسي تماما : فأما بوتابتش فهو يرتدى لباسا رسميا
 مع ربطة عنق بيضاء ، ولكنه يضع على رأسه قبعة عادية ،

واما مارفا ، وهى فتاة فى الأربعين من العمر ، وذات خدين
حمراوين وشعر غزاه الشيب منذ ذلك الحين ، فقد كانت
تضع على رأسها قبعة من نوع «البونيه» ، وتلبس ثوبا من
قماش الشيت ، وتتعل حذاءين من جلد الماعز بصرفان .
وكانت الجدة تلتفت اليهما كثيرا فتكلمهما . وقد ظل دى
جريو والجنرال وراءنا بعيدين بعض البعد ، يدور بينهما الحديث
حاميا حارا . كان الجنرال كئيبا جدا . وكان دى جريو
يتكلم بحزم ويحاول أن يرد الى الجنرال بعض الشجاعة ؛
وكان واضحا أنه يسدى اليه ببعض النصائح . ولكن الجدة
كانت قد نطقت بجملتها الحاسمة : «لن أعطيك شيئا
من المال» . فلعلى دى جريو يعد هذا الكلام بعيدا عن
التصديق ، ولكن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة . وكنت
قد لاحظت أن دى جريو و m-Ile Blanche مستمران
فى تبادل النظرات المختلصة . ولمحت الأمير والرجال الألمانى
فى آخر الطريق : لقد تركا لنا أن نتقدم . ومضيا فى اتجاه
آخر . دخلنا الكازينو دخول الظافرين . وقد أظهر البواب
والحجّاب من الاحتفال بمقدمنا مثل الذى أظهره خدم
الفندق . ومع ذلك كانوا ينظرون الينا متعجبين . وأصدرت
الجدة أمرها أولا بالقيام بجولة فى جميع القاعات . فكانت
تكيل المديح والاطراء تارة ، وتبقى غير مكترثة ولا مبالية
تارة أخرى . ولكنها كانت تسأل عن كل شىء . ووصلنا
أخيرا الى قاعات القمار . فما ان رأنا الحاجب الواقف امام
الباب الموصل ، حتى فتح الباب على مصراعيه كمن تملكته
دهشة

وأحدث ظهور الجدة في قاعة الروليت أثرا عميقا في الناس . كان يتجمهر حول موائد الروليت وفي الطرف الآخر من القاعة ، حيث وضعت مائدة trente et quarante ، نحو من مائة وخمسين مقامرا أو مائتين اصطفوا صفوفوا متراسة . ان الذين استطاعوا منهم أن يتسللوا حتى المائدة يحرصون على البقاء في أماكنهم أشد الحرص ، وقد جرت العادة أن لا يتنازلوا عنها لأحد قبل أن يخسروا كل ما كان معهم من مال . ذلك أنه ليس يباح لأحد أن يكون في مكان من تلك الأماكن مشاهدا فحسب ، فيحتل عينا مكان لالعاب . ورغم أن هناك كراسي مصفوفة حول المائدة ، فان عددا قليلا من اللاعبين كان يجلس على الكراسي ، خاصة حين يكون الجمهور كثيفا ، لأن الوقوف يشغل حيزا أضيق من الحيز الذي يشغله الجلوس ، كما أن الواقف يسهل عليه أن يضع الرهان حيث يريد أن يضعه أكثر مما يسهل ذلك على القاعد . والناس يتراحمون في الصف الثاني أو الثالث وراء الواقفين في الصف الأول ، يراقبون اللعبة ويتنظرون دورهم ؛ ولكن صبرهم ينفد في بعض الأحيان فتراهم يدسون أيديهم بين اللاعبين في الصف الأول ليضعوا رهانهم على المائدة . والواقفون في الصف الثالث يجاهدون على هذه الطريقة نفسها من أجل أن يوصلوا رهانهم الى المائدة الخضراء . لذلك ما تكاد تنقضي عشر دقائق أو خمس حتى يسمع المرء أصوات مشاجرة أو مناقرة عند طرف من اطراف المائدة . على أن شرطة الكازينو منظمون أحسن تنظيم . من المستحيل طبعا أن يُمنع الازدحام . حتى

ليس أصحاب الكازينو أن يكون التهافت شديدا ، لأنهم يستفيدون من ذلك . غير أن هناك ثمانية قِيمين جالسين حول المائدة يراقبون اللعب مراقبة يقظة . انهم هم الذين يدفعون الأرباح ، فاذا نشب خلاف كانوا هم الذين يفصلون في الخلاف . ولا تُستدعى الشرطة الا في الحالات القصوى ، فيسوى الأمر عندئذ على الفور . ورجال الشرطة في القاعة يرتدون اللباس المدني ، ويقفون بين المشاهدين ، فلا يستطيع المرء أن يعرفهم . وهم يراقبون خاصة صغار اللصوص والمحترفين ، وما أكثرهم في الروليت ، وما أسهل ممارستهم صناعتهم في قاعتها ! ذلك أن السرقة في غير هذا المكان تحتاج الى نبش جيوب أو كسر أقفال ، وقد تجلب للشارق في حالة الاخفاق متاعب كثيرة . أما هنا فحسب اللص أن يقترب من الروليت ، وأن يأخذ يقامر ، ثم اذا هو فجأة ، على رؤوس الأشهاد ومن غير تخف ولا مداورة ، يمد يده الى ربح غيره فيستولى عليه ويضعه في جيبه . فاذا حدث اعتراض راح اللص يصيح بصوت عال ان الرهن رهنه . فاذا كان قد أحكم الضربة حاذقا ، وتردد الشهود ، استطاع اللص في كثير من الأحيان أن يحتفظ بالمال ، هذا اذا لم يكن المبلغ ضخما بطبيعة الحال ، والا فان القِيمين يكونون قد لاحظوه سابقا ، أو يكون لالعاب آخر قد لاحظته . أما اذا لم يكن المبلغ ذا بال ، فان الربح الحقيقي يكف من تلقاء نفسه عن مواصلة الشجار في بعض الأحيان وينسحب من اللعب مخافة الفضيحة . ولكن اذا أمكن كشف القناع عن وجه اللص ، طُرد من

اللعب فوراً بغير مراعاة ولا مداراة .
تأملت الجدة هذا كله ، من بعيد ، باستطلاع شره .
ولشد ما كانت تسرح حين يطرد لص من اللصوص . ولم
تفتنّها كثيراً لعبة *trente et quarante* وانما أعجبتها
الروليت وأسرتها ، وخاصة حين كانت تدور الكرة . وأرادت
أخيراً أن تشاهد اللعب عن كثب . لا أفهم كيف حصل
هذا فإذا بالخدم وأفراد متراحمين آخر (أغلبهم بولونيون دمرهم
القمار ، فهم يفرضون خدماتهم على المقامرين
الموقفين وعلى جميع الأجانب) يسارعون فيؤمنون لها مكاناً
قريباً من وسط المائدة قرب القيم الرئيسي ، ويجسرون
كرسيها إليه رغم الزحام الشديد . وها هي ذى جمهرة كبيرة
من الزوار الذين لا يقامرون بل يشاهدون المقامرة من الجانب
(وأكثرهم من الانجليز مع أسرهم) تتراحم فوراً نحو المائدة
تريد أن ترى الجدة من فوق أكف المقامرين . وتوجهت
المناظر العديدة نحو الجدة . وعقد القيمون على الجدة آمالاً
كبارة : ان مقامرة غريبة هذه الغرابة ، شاذة هذا الشذوذ ،
لتعد حقاً بأشياء خارقة . امرأة فى السبعين من عمرها ،
كسيحة ، تريد أن تقامر . ذلك ظرف نادر قلّ أن يواتى . .
واندستت أنا أيضاً حتى وصلت الى المائدة فوقفت قرب
الجدة . أما بوتابتش ومارفا فقد ظلّا بعيدين وسط الجمهور .
وانضم الجنرال وبولينا ودى جريو و *m-lle Blanche* الى
صفوف المشاهدين كذلك . أخذت الجدة فى أول الأمر
تلاحظ اللاعبين الذين يحيطون بها ، فتسألنى بصوت خافت
أسئلة سريعة : «من هذا الرجل ؟» «من تلك المرأة ؟»

وقد اهتمت اهتماما شديدا بشباب كان على طرف المائدة يقامر بمبالغ ضخمة ، فهو يضع الفرنكات آفا ، وكان قد ربح ، فيما كان يدمدم به الجيران ، حوالي أربعين ألف فرنك كانت قابعة أمامه كومة من القطع الذهبية والأوراق النقدية . كان الفتى ممتع اللون ، وكانت عيناه تقدحان شررا ، وكانت يدها ترتجفان . كان يضع المال من غير أن يعده ، فانما هو يتناوله قبضات قبضات ، وما ينفك مع ذلك يربح ، وما ينفك المال يتكدس أمامه ، وكان الخدم يتحركون من حوله ، فهذا يحمل اليه كرسيًا ، وذلك يوسع من حوله المكان ، حتى تزداد حركته طلاقة ، وحتى لا يزحمة الناس . . كل ذلك أملا في مكافأة طيبة . ان بعض المقامرين الموفقين المسرورين يعطونهم أحيانا بلا عد ، يخرجون المال من جيوبهم قبضات ملأى يمدونها اليهم عطايا . والى جانب الفتى كان قد جلس بولونى لا يستقر فى مكانه ، ويوشوشه فى كل لحظة باحترام ، ليسدى اليه النصيح وليوجهه فى اللعب من غير شك ، أملا فى مكافأة بطبيعة الحال . ولكن الفتى المقامر لا يكاد ينتبه اليه ، وانما هو يراهن خبط عشواء ، وما ينفك يكس ثم يكس . كالى واضحا أنه فى غاية الاندهال .

لاحظته الجدة خلال بضع دقائق .

ثم اهتمت فجأة فلكرتني بكوعها وقالت لى :

— قل له أن يكف ، قل له أن يلم ماله بأقصى

سرعة وأن ينصرف . سوف يخسر ، سوف يخسر كل شيء

فى لحظة واحدة !

قالت ذلك وهي تكاد تلهث من فرط الانفعال .
ثم أضافت :

— أين بوتابتش ؟ أرسلوا اليه بوتابتش ! لماذا لا تقول له ؟ قل له أن يرحل (قالت لى ذلك وهي تنكعنى) .
ولكن أين بوتابتش ؟ ^(١) Sortez, sortez! (هكذا أخذت تصيح للفتى بنفسها) .

فملت عليها وقلت بصوت خافت ولهجة حاسمة انه لا يُسمح بالصراخ فى هذا المكان على هذا النحو ، بل ويحظر الكلام الا بصوت منخفض . . لأن ذلك يعرقل اجراء الحسابات ، وسوف يخرجوننا من القاعة .

— خسارة ! ان هذا الرجل ضائع لا محالة . لا شك أنه يريد ذلك . . لا أطيع النظر اليه . قلبى يتمزق .
يا له من غبى !

قالت الجدة ذلك ، والتفتت الى جهة أخرى على الفور .

وهناك ، على الشمال ، على الطرف الآخر من المائدة ، كانت تُرى بين اللاعبين سيدة شابة يصحبها رجل يشبه أن يكون قزما من الأقزام . من هو هذا القزم ؟ لا أدرى . . أهو قريب من أقربائها ، أم انها جاءت به لتحدث أثرا ، وتلفت نظرا ؟ كنت قد لاحظت هذه السيدة قبل ذلك . انها تجيء الى الكازينو كل يوم ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتنصرف فى الساعة الثانية تماما . كانت تلعب اذن ساعة فى كل يوم .

^(١) اخرج ، اخرج ! (بالفرنسية فى الأصل) .

والناس يعرفونها ، وسرعان ما يقدمون لها كرسيًا تقعد عليه .
فتخرج من جيبها بضع قطع ذهبية وبضع أوراق نقدية من
ذات الألف فرنك ، وتراهن برصانة وبرود وحذر ، وتسجل
الأرقام على ورقة بقلم رصاص ، محاولةً أن تكتشف نظام
تجمع الاحتمالات في لحظة من اللحظات . كانت تخاطر
بمبالغ كبيرة . وتربح في كل يوم ألف فرنك ، أو ألفين ،
أو ثلاثة آلاف ، لا أكثر من ذلك ، ثم ما تلبث أن
تسحب . راقبتها الجدة برهة طويلة

— هذه لن تخسر ! هذه لن تخسر ! من أى طراز
هذه السيدة ؟ هل تعرف ؟ من هى ؟
فهمست أقول :

— هى فرنسية ، لعلها من أولئك النسوة .
— من طيرانه يُعرف الطير . واضح أن لها مخالب
حادة . . اشرح لى الآن ماذا تعنى كل دورة ، وكيف تجب
المراهنة .

فشرحت للجدة ، ما أمكنتى الشرح ، مزاجات اللعب
التي لا حصر لعددها : rouge et noir, pair et impair,
manque et passe^(١) وشرحت لها بعد ذلك بعض الأمور
المتصلة بنظام الأعداد . فكانت الجدة تصغى الى كلامي
منتبهة أشد الانتباه ، وتحفظ ما أقول ، وتلقى أسئلة جديدة
وتستريد من التعلم والفهم . وكان من السهل أن أضرب

^(١) أحمر وأسود ، شفع ووتر ، نقص او زيادة (بالفرنسية فى

الأصل)

لها مثالا مباشرا على كل نظام من نظم المراهنة ، فكان ذلك يسير لها حفظ الدرس بسهولة وسرعة . وسرت الجدة من ذلك كله سرورا عظيما .

— وماذا يعنى " zéro " ؟ ان القيم الرئيسي ،

هناك ، ذا الشعر الأجدد ، قد صاح يقول الآن : zéro . ولماذا لم كل ما كان على المائدة ؟ هل أخذ تلك الكومة كلها لنفسه ؟ ما معنى هذا ؟

قلت :

— Zéro ، يا جدة ، يعنى أن الراح هو البنك . فاذا وقفت الكرة على zéro كان كل ما على المائدة للبنك بغير حساب . الواقع أنهم يديرون دورة أخرى للسحب ، ولكن البنك لا يدفع شيئا .

— غريب . . ولا آخذ شيئا ؟

— اذا كنت قد راهنت على zéro سلفا ووقفت الكرة على zéro ، فانهم يدفعون لك المبلغ الذى وضعته مضاعفا خمسا وثلاثين مرة .

— خمسا وثلاثين مرة ؟ وهل يخرج الصفر كثيرا ؟

فلماذا لا يضعون عليه ، هؤلاء الأغبياء ؟

— لأن هناك ستة وثلاثين احتمالا مخالفا ، يا

جدة !

— يا له من سخف ! بوتابتش ! بوتابتش ! لا

بأس مع ذلك ، ان معى بعض المال ايضا . خذه !

^{١١} صفر (بالفرنسية فى الأصل) .

(أخرجت من جيبها كيسا منتفخا فتناولت منه فردريكا) .
خذ هذا ، وضعه على zéro فوراً .
— ولكن zéro قد خرج لتوه ، يعنى أنه لن يخرج
مرة أخرى الا بعد زمن طويل . انك ستخسرين كثيرا .
تريشى بعض التريث .

— لن أنتظر . كلامك سخيف . ضع هذا !
— كما تريدين . ولكن قد لا يخرج مرة أخرى قبل
المساء ، وستخسرين حتى الألف . هذا شيء معروف .
— سخافات ، سخافات ! لا يذهب الى الغابة
من يخاف الذئب . ماذا ؟ خسرت ؟ ضع مرة ثانية !
وخسرنا فردريكا ثانيا . ووضعتنا مرة ثالثة . ان الجدة
لا تكاد تستقر في مكانها . انها تحضن بعينها البراقتين
الكرة التي تتواهب بين حجرات الصفيحة الدائرة . وخسرنا
فردريكا ثالثا مرة ثالثة . لقد خرجت الجدة عن طورها .
أصبحت لا تستطيع المحافظة على هدوئها ، حتى لقد
ضربت المائدة بقبضة يدها حين نادى القيم قائلاً :
« trente six ، بدلا من أن يعلن خروج zéro المرتقب .
قالت الجدة زعلانة :

— هيا . . لا بأس . . هل هذا الصفر اللعين سيخرج
قريبا ؟ أفضل أن أضيع على أن لا أبقى الى أن يخرج
zéro ! الذئب ذئب ذلك القيم الملعون الخبيث الأبعد
الشعر ، ان الصفر لا يخرج معه أبدا ! الكسى ايفانوفتش

⁽¹⁾ ست وثلاثون (بالفرنسية فى الأصل) .

ضع قطعتين مرة واحدة ! سنخسر كل اموالنا عبثا اذا ظللنا
نضع على هذه الطريقة ، فلو خرج zéro لما ربحنا
شيئا

— يا جدة ! . . .

— ضع ، ضع ! ليس المال مالك .

ووضعت فرديكين . وتدرجت الكرة برهة طويلة على
الصفحة ، ثم أخذت تتواهب فوق الحجرات . جمدت
الجدة وشدت على ذراعي . وفجأة . . . تك ! zéro

— zéro .

كذلك أعلن القيم .

قالت الجدة وهي تلتفت فورا نحوي بحماسة
ورضاء :

— رأيت ؟ رأيت ؟ كنت على حق ! قلت لك !

الرب نفسه هو الذى ألهمنى أن أضع فرديكين . كم
أقبض الآن ؟ لماذا لا يدفعون ؟ بوتابتش ، مارفا ! أين
هما اذن ؟ وجماعتنا كلهم ، أين ذهبوا ؟ بوتابتش ،
بوتابتش !

فدمدمت أقول لها :

— بعدئذ ، يا جدة . بوتابتش على الباب . لن

يأذنوا له بالدخول الى هنا . أنظري يا جدة . . . ها هم
يدفعون لك المال خذيه !

وألقيت الى الجدة لفة ثقيلة تضم ٥٠ فرديكا مغلفة
بورق أزرق قاتم ، وعدَّ لها عدا ذلك عشرون فرديكا بغير
لف وقربت المبلغ كله بمجرقة الى أمام الجدة .



—Faites le jeu, messieurs! Faites le jeu, messieurs. Rien ne va plus? ⁽¹⁾

كذلك صاح القِيم يدعو اللاعبين الى الحط ، وبتهاياً
لقذف الكرة .

— رباه ! تأخرنا فى الحط ! سيدأون فوراً ! حط .
حط . أسرع . لا تضيع الوقت .

هكذا أخذت تقول الجدة ، وقد خرجت عن طورها
وأخذت تلكزنى بكوعها بكل قواها .

— ولكن أين أحط يا جدة ؟

— على zéro ! على zéro ! أيضاً على zéro !
حط أكبر مبلغ ممكن ! كم يبلغ كل ما معنا ؟ سبعين

فردريكا ؟ لا فائدة من التباخل . حط عشرين دفعة واحدة .
— تعقلى يا جدة ! قد لا يخرج zéro بعد مائتى

دورة ! كذلك هو فى بعض الأحيان . أحلف لك . لسوف
تخسرين كل ما معك من مال .

— كفى سخافات ، كفى سخافات . حط بسرعة !
لا تثرثر ! أنا أعرف ما أفعل .

هذا ما قالته الجدة التى كانت ترتجف من توتر
أعصابها .

قلت :

— النظام يحظر أن يحط اللاعب دفعةً واحدةً أكثر من اثنى عشر

⁽¹⁾ العبوا ايها السادة ! العبوا ايها السادة ! هل وضع الجميع
رهونهم ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

فردريكا على zéro ، يا جدة ، ها قد حطتها .
— كيف هذا ؟ ألا تكذب ؟ — هكذا قالت الجدة ،
ثم اتجهت نحو القيم الذي كان يجلس على يسارها ويهم
أن يقذف الكرة ، فلكرته الجدة بكوعها قائلة :
— يا مسيو! يا مسيو! combien zéro? douze ?
douze? (١)

فأسرعت أشرح السؤال بالفرنسية . فأجابها القيم في
أدب :

(٢) — Oui, madame كما لا يجوز أن تتجاوز حطة
كل فرد أربعة آلاف فلورين
وأضاف معللا ذلك قوله :
— بهذا يقضى النظام .

— طيب . لا حيلة لنا اذن . حط اثني عشر فردريكا .
صاح القيم :
(٣) — Le jeu est fait!

ودارت العجلة ، فخرج الرقم «ثلاثة عشر» . لقد
خسرنا .

صاحت الجدة تقول لى :
— حط أيضا ، حط أيضا !

(١) كم على الصفر ؟ اثنا عشر ؟ اثنا عشر ؟ (بالفرنسية في
الأصل) .
(٢) نعم ، يا سيدتى (بالفرنسية في الأصل) .
(٣) تم اللعب ! (بالفرنسية في الأصل) .

لم أعترض في هذه المرة ، بل أسرعت أحط اثني عشر فردريكا وأنا أرفع كفتي . ودارت العجلة زمنا طويلا . فكانت الجدة ترتجف وهي تلاحقها . قلت لنفسي وأنا أنظر اليها مندهشا : «أهى تعتقد حقا أن zéro سيربح أيضا ؟» وكان يلتمع في وجهها ايمان مطلق بأنها ستربح ، وأمل راسخ في أنها ستسمع بعد قليل صيحة : zéro ! ووثبت الكرة الى احدى الحجرات : فهتف القيم :

— Zéro!

قالت الجدة ملتفتة نحوى وقد بدا في وجهها معنى الانتصار وروح التهجم :

— رأيت ؟ !

لقد كنت مقامرا انا نفسي . أحسست بذلك في تلك اللحظة عينها . كانت ذراعى وساقاى ترتجف وصعد الدم الى رأسى . لقد كان نادرا بطبيعة الحال أن يخرج zéro ثلاث مرات خلال عشر ضربات . ولكن لم يكن في هذا ما يبعث على دهشة خاصة . فلقد رأيت zéro بنفسى ، أول البارحة ، يخرج ثلاث مرات متتالية ؛ وقال أحد اللاعبين في تلك المناسبة ، وكان قد سجل الضربات على ورقة تسجيلا دقيقا ، قال بصوت عال ان zéro ، فى اليوم السابق نفسه ، لم يخرج الا مرة واحدة خلال أربع وعشرين ساعة .

أعطيت الجدة ربحها مقرونا بالاحترام والانتباه الخاصين اللذين يستحقهما كل من حقق ربحا ضخما . لقد تقاضت أربعمئة وعشرين فردريكا على التمام والكمال ، أى أربعة

آلاف فلورين وعشرين فردريكا . عُدت لها الفردريكات نقودا ذهبية ، وأعطيت الفلورينات أوراقا مالية .

ولكن الجدة لم تناد بونابش في هذه المرة . لقد كان في رأسها شيء آخر يشغلها عن ذلك ! أصبحت الآن لا تضطرب ولا ترتعش في الظاهر ، ولكنها كانت في داخل نفسها ترتعش ان صح هذا التعبير . كان انتباهها كله مركزا على نقطة كأنها تسدد الى هدف ؛ وقررت أخيرا فقالت لى :

— الكسى ايفانوفتش ، لقد قال القيم ان اللاعب لا يجوز له أن يحط أكثر من أربعة آلاف فلورين في آن واحد ؛ أليس كذلك ؟ اليك اذن هذه الأربعة آلاف ؛ حطها على الأحمر .
كان من العبث أن يحاول المرء صرفها عن تصميمها .
ودارت العجلة . واذا بالقيم يصيح :

—Rouge!

ريح جديد قدره أربعة آلاف فلورين . أصبح المجموع ثمانية آلاف .

أمرتنى الجدة بقولها :

— دع لى أربعة آلاف ، وحط الأربعة الأخرى على الأحمر مرة ثانية .

فجازفت بالآلاف الأربعة مرة أخرى . ثم اذا بالقيم يعود فيصيح :

—Rouge!

— المجموع اثنا عشر الفا ! أعطنى كل شيء .

ضع الذهب في الكيس ، ولم الأوراق المالية .
— كفاتنا هذا الآن ! لنعد الى المنزل ! دخرجوا
كرسيى !





الفصل الحادى عشر

دُحرج الكرسي نحو الباب فى الطرف الآخر من القاعة . كانت الجدة مشرقة . وأسرع جماعتنا كلهم يحيطون بها مهثين . فمهما يكن سلوك الجدة غريبا شادا ، فان انتصارها يغطى أشياء كثيرة ؛ لقد أصبح الجنرال لا يخشى على سمعته ومهابته بين الناس من قرابته بامرأة غريبة الأطوار هذه الغرابة كلها ؛ حتى لقد أخذ يهنئ الجدة وهو يتسم ابتسامه متلطفة ، ويظهر تعظفا مرحا ودودا ، كما يفعل المرء مع طفل يريد أن يسليه . وكان واضحا من جهة

أخرى أنه كان مأخوذا كسائر المشاهدين ، الذين يعلقون على الحادث ويشيرون الى الجدة . حتى ان كثيرا منهم كانوا يمرون قربها ليروها عن كذب . وكان مستر آستلي يتحدث عنها بعيدا مع اثنين من معارفه الانجليز . وهذه سيدات مرموقات وقورات يتأملنها فى دهشة فخمة نظرتهن الى ظاهرة عجيبة . وكان دى جريو يتدفق تهانى وبسمات . قال :

— Quelle victoire! (١)

وأضافت m-lle Blanche وهي تبتسم ابتسامة مداهنة

متملقة :

— Mais, madame, c'etait du feu! (٢)

فقلت الجدة :

— نعم ، قررت دفعة واحدة ان أربح ، فربحت اثنى عشر ألف فلورين ! ماذا أقول ؟ اثنى عشر ألف ؟ هذا عدا القطع الذهبية . فيكون المجموع ثلاثة عشر ألفا على وجه التقريب . كم يساوى هذا المبلغ روبلات ؟ حوالى ستة آلاف ؟

فأوضحت لها أن المبلغ يساوى أكثر من سبعة آلاف روبل ، وقد يصل الى ثمانية آلاف بالسعر الراهن .
— ثمانية آلاف . . ليس هذا بمزحة ! يا لكم من مغفلين ، تجلسون هنا واضعين أيديكم على خدودكم !

(١) يا له من نصر ! (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) ولكن يا سيدتى ، لقد كان هذا رائعا ! (بالفرنسية فى

الأصل)

هل رأيتما يا بوتابتش ويا مارفا ؟
صاحت مارفا مفرطة في الاطراء :
— ولكن كيف فعلت يا سيدتى ؟ ثمانية آلاف روبل ...
— خذا ، هذه خمسة قطع ذهبية لكل منكما ،
خذا !

فأسرع بوتابتش ومارفا يقبلان يدها .
— وليوهب فردريك واحد لكل حمال . أعط كلا
منهم دينارا ذهبيا يا ألكسى ايفانوفتش . ما لذلك الخادم
ينحنى تلك الانحناءات ؟ وذاك الآخر أيضا ؟ تهنته لى ؟
هب لكل منهما فردريكا أيضا !

— Madame la princesse... un pauvre expatrié...
malheur continuel... les princes russes sont si
généreux. ^(١)

كذلك أخذ يقول مستجديا مستعظيا شخص ذو
شاربين وقف قرب الكرسي يبدلته المهترئة وصديرته المبرقشة ،
رافعا قبعته ، مبتسما ابتسامة التذلل والخضوع . .
— اعطه فردريكا أيضا ، بل اعطه فردريكين .
والآن كفى ! والا لما كان لهذا نهاية . . ارفعونى ، انقلونى !
براسكوفيا ! (قالت هذا لبولينا ألكسندروفنا) سأشترى لك
قماشاً للثوب فى الغد ، وكذلك *mademoiselle* .
ما اسمها ؟ *Mademoiselle Blanche*,

^(١) سيدتى الاميرة . . فقير منفى من وطنه . . . شقاء متصل . . .
الأمراء الروس كرام جدا . (بالفرنسية فى الأصل) .

أليس كذلك ؟ سأشتري لها قماشا للشوب أيضا . ترجمى لها هذا الكلام يا براسكوفيا !
— Merci, madame.

كذلك قالت m-lle Blanche وهى تنحنى اجلالا للجدة ، وترسم على شفيتها ابتسامة ساخرة تتجه بها الى دى جريو والجنرال . وكان الجنرال مرتبكا بعض الارتباك ، فلم يتخفف من ضيقه الا حين بلغنا الطريق الذى تصطف على حافته أشجار الكستناء .
قالت الجددة وهى تتذكر مربية اطفال الجنرال

— وفيدوسيا ، وفيدوسيا ! لن تصدق أذنيها حين تسمع النبأ . يجب أن أعطيها أيضا ما تصنع به لنفسها ثوبا . هيه ! الكسى ايفانوفيتش ، الكسى ايفانوفيتش اعط هذا الشحاذ شيئا !
كان يمر فى الطريق رجل مقوس الظهر يرتدى أسمالا بالية ، وينظر الينا .
قلت :

— قد لا يكون هذا الرجل شحاذا بل وغد من الأوغاد !
— أعطه ! أعطه ! أعطه غولدنا !
فاقتربت من الرجل ومددت اليه قطعة النقد ، فنظر الى مشدوها ، ولكنه تناول غولدنا دون أن ينبس بكلمة . وكانت رائحة الخمرة تفوح منه .
— وأنت يا الكسى ايفانوفيتش ، ألم تجرب حظك بعد ؟
— لا لم أفعل بعد يا جددة .

— كانت عينك تلتمعان ؛ لاحظت انا ذلك .
— سأحاول حتما ، يا جدة ، ولكن فيما بعد .
— حط على zéro دون تردد ! وسوف ترى !
كم معك من مال ؟

— عشرون فردريكا فحسب ، يا جدة .
ليس هذا بالكثير . سأقترضك خمسين فردريكا
إذا شئت . خذ ، خذ هذه اللفة . أما أنت يا عزيزى
(قالت هذه الجملة متجهة بها الى الجنرال على حين فجأة)
فلا تراودنك الأوهام والأحلام : لن أعطيك شيئا !
فاضطرب الجنرال ولكنه لم يقل شيئا ؛ وقطب دى
جربو حاجبيه ؛ ثم التفت الى الجنرال يدمدم من بين
أسنانه قائلا :

— Que diable, c'est une terrible vieille! (1)

صاحت الجدة :

— شحاذ ، شحاذ ، شحاذ آخر ! يا ألكسى
ايفانوفتش ، اعط هذا الرجل غولدا أيضا .
كان يقبل علينا فى هذه المرة شيخ عجوز أبيض
الشعر ، يسير على ساق من خشب ، ويرتدى نوعا من
معطف طويل كحلى اللون ، ويحمل بيده عصا يتوكأ عليها .
انه يشبه أن يكون واحدا من قدماء المحاربين . فما ان
مددت اليه الغولدن حتى ارتد خطوة الى وراء ، وهو يحدق
الى مهددا ، ويقول :

(1) اللعنة ، يا لها من عجوز فظيمة ! (بالفرنسية فى الأصل) .

— Was ist's der Teufel! ^(١)

ثم يضيف الى سؤال التعجب هذا سيلا من الشتائم .
قالت الجدة وهي تومئ بيدها ايماءة عدم اهتمام :
— يا له من غبى ! امضوا بى ! أكاد أموت
جوعا ! سوف أتناول غدائي فورا ، ثم أرتاح قليلا ، لأعود
بعد ذلك الى هناك .
هتفت متعجبا :

— أتريدين أن تقامرى مرة أخرى يا جدة ؟
— ماذا تظن اذن ؟ أتحسب أن علىّ ، اذا أنتم
لبثتم تتعفنون هناك ، أن أكفى بالنظر اليكم ؟
قال دى جريو وهو يقترب :

— Mais, madame, les chances peuvent tourner,
une seule mauvaise chance et vous perdrez tout...
surtout avec votre jeu... c'était terrible! ^(٢)

وزازأت m-lle Blanche تقول :

— Vous perdrez absolument. ^(٣)

— وما شأنكم انتم جميعا ؟ ان ما سأخسره ليس
مالكم بل مالى ! ولكن أين هو ذلك المستر آستلى ؟
(أقلت هذا السؤال علىّ) .

^(١) اللعنة ، ما هذا ؟ ! (بالألمانية فى الأصل) .

^(٢) ولكن الحظوظ يا سيدتى يمكن أن تنقلب . ورب حظ
سييء واحد يفقدك كل شيء... وخاصة اذا لعبت على طريقته...
هذا رهيب ! (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٣) لسوف تخسرين حتما . (بالفرنسية فى الأصل) .

-- بقى فى الكازينو يا جدة .

-- خسارة ! انه لفتى شهم حقا .

فلما وصلنا الى الفندق ، فصادفت الجدة رئيس الخدم

على السلم ، نادته وأخذت تتباهى بما حققته من ربح .

ثم استدعت فيدوسيا فأعطتها ثلاثة فردريكات ، وأمرتها

باعداد للغداء . وفى اثناء تناول الطعام كانت فيدوسيا ومارفا

تندفقان عبارات تعجب .

قالت مارفا :

-- كنت أنظر اليك يا عزيزتى ، فأقول لبوتابتش :

«ماذا تريد سيدتنا أن تفعل ؟» . ثم تكدس المال وتكدس .

يا قديسى السماء ! لم أر فى حياتى مالا بهذا المقدار !

وليس من حولك الا اسياد ، ليس من حولك الا اسياد !

«من أين يأتى جميع هؤلاء السادة يا بوتابتش ؟» كذلك

كنت أسأل بوتابتش . ثم أقول : «فلتساعدنا العذراء أم

الرب !» كنت أدعو لك يا سيدتى الطيبة . وكان قلبى

يكاد يبارحنى ؛ يكاد يبارحنى . وكنت أرتعش ، ارتعش

من قمة رأسى الى أخمص قدمى . «كن فى عونها يا رب»

كذلك كنت أضرع الى الله . وقد حماك الله ورعاك .

وما زلت أرتعش من ذلك حتى الآن ، ما زلت أرتعش

من قمة رأسى الى أخمص قدمى .

-- ألكسى ايفانوفتش ! هبى نفسك بعد الغداء .

سندهب الى هناك فى نحو الساعة الرابعة . فالى ذلك الحين

أودعك الآن . ولا تنس أن تبعث الى بواحد من أولئك

الأطباء التافهين . يجب على أن أشرب المياه المعدنية أيضا .

فقد أنسى أمر العلاج وسط هذا كله .

خرجت من عند الجدة كمن طاش صوابه . كنت أحاول أن أتصور ما سيحدث لأفراد جماعتنا كلهم ، وأن أتخيل المجرى الذى ستجرى فيه الأمور . كنت أرى رؤية واضحة أنهم لما يفيقوا بعد من الصدمة الأولى (وخاصة الجنرال) . ان وصول الجدة بدلا من البرقية التى كان يُرتقب وصولها من ساعة الى ساعة منبئةً بموتها (ومنبئة تبعا لذلك بفض الوصية) قد دمر جميع ما بنوه من مشاريع وخرّب ما اتخذوه من قرارات ، حتى أصبحوا يتابعون باضطراب شديد وبنوع من الانشده ما ستقوم به الجدة من مغامرات فى الروليت . ومع ذلك ففعل هذا الأمر الثانى أن يكون أخطر شأنًا من الأمر الأول ، ذلك أن تصريح الجدة مرتين بأنها لن تعطى الجنرال شيئا من المال ، يجب أن لا يفقدهم مع ذلك كل أمل . لا شك أن دى جريو ، المشارك فى جميع شئون الجنرال ، لم ييأس . وأغلب الظن أن m-lle Blanche التى تهتم بالأمر اهتماما كبيرا (أو التى لا بد أن تهتم به اهتماما كبيرا على الأقل : زواج من الجنرال ، وميراث عريض) لن تشبط عزميتها كذلك ، وأنها سوف تعتمد الى جميع ما تملكه من وسائل الاغراء والفتنة والغنج للتأثير فى الجدة ، خلافا لبوليننا المتفطرسة المتعجرفة التى لم تكن تجيد الخضوع ولا تحاول أن تجامل سعيًا الى الارضاء . أما الآن ، الآن وقد قامت الجدة بتلك المآثر فى الروليت ، الآن وقد تأكدت شخصيتها أمام أعينهم واضحةً هذا الوضوح كله (عجوزًا عنيدة مستبدة

(et tombée en enfance) ، أما الآن فلعل كل شيء
 قد ضاع . لقد كانت سعيدة سعادة تلميذ تحرر من الحجر
 عليه ، فلا بد أنها ستندفع في اللعب الى ان تخسر كل
 شيء . قلت لنفسي (وأنا أشعر بفرح خيث أسأل الله أن
 يغفره لى) : يا رب ، يا رب ! ان كل فردريك جازفت
 به الجدة منذ قليل ، كان يطعن قلب الجنرال طعنا ،
 وكان يحنق دى جريو حنقا شديدا ، وكان يثير غضب
 m-Ile de Cominges التى يمرون بالملعقة تحت أنفها !
 شيء آخر : حتى حين راحت الجدة ، وهى فى فرحة
 الربح ، توزع المال على جميع الناس ، وتعد كل عابر
 شحاذا ، حتى حينذاك لم تستطع أن تمنع نفسها ان تقول
 للجنرال : «أما أنت فلن أعطيك شيئا !» هذا معناه أن
 العجوز قد استقرت على هذه الفكرة ، وأنها مصرة عليها ،
 وأنها آلت على نفسها أن تفعل . فالأمر اذن خطر خطر !
 هذه الخواطر كلها كانت تضطرب فى رأسى بينما
 كنت أصعد من عند الجدة على السلم الرئيسى الى غرفتى
 الصغيرة فى الطابق الأخير . كان ذلك كله يهمنى كثيرا .
 ورغم اننى استطعت أن أستشف الخيوط الأساسية التى تشد
 هؤلاء الممثلين بعضهم الى بعض أمام بصرى ، فلقد كنت
 أجهل جميع وسائل هذه التمثيلية وأسرارها . ان بوليننا لم
 تمحضنى ثقة كاملة فى يوم من الأيام . صحيح أنها كانت
 قد فتحت لى قلبها أحيانا عفو المخاطر ، ولكننى كنت قد
 لاحظت أنها فى كثير من الأحوال ، بل فى جميع الأحوال
 تقريبا ، ما تكاد تفضى الىّ ببعض الأسرار حتى تحيل

الى مزاح كل ما سبق أن قالته ، أو حتى تبادل الى «الخطبة» كل شيء فتعمى الأمور عامدة . نعم . . لقد كانت تخفى عنى أشياء كثيرة ! ومهما يكن من أمر ، فقد كنت أحس أن هذا الوضع السرى العجيب المتوتر يقترب من خاتمته . فما هى الا ضربة واحدة أخرى حتى ينتهى كل شيء ، ويزول كل قناع . أما مصيرى أنا ، وهو مرتبط بهذا كله أيضا ، فكنت لا أكاد أحفل به . ما أغرب هذه الحالة النفسية التى أنا فيها : ليس فى جيبى الا عشرون فردريكا ، وأنا بعيد عن وطنى ، بلا عمل ، بلا موارد ، بلا أمل ، بلا مشاريع ، الخ . . ثم لا يقلبنى ذلك ! ولولا أن بولينا ماثلة فى ذهنى ، اذن لاستسلمت استسلاما تاما لهذا الاهتمام بالخاتمة القريبة التى ستختتم بها هذه المهزلة ، ولضحكت ملء صدرى . ولكن بولينا تثبت فى نفسى الاضطراب . اننى أحس أن مصيرها سيتقرر قريبا . ومع هذا فأنا أعترف أن ذلك ليس ما يشغل بالى . اننى أتمنى أن أنفذ الى أسرارها ، أن تجيء الى فتقول «فعلا ، أننى أحبك» ، والا فما الذى أرغب فيه ، اذا لم تكن هذه الفكرة الجنونية ممكنة التحقيق ؟ هل أعرف ما الذى أرغب فيه ؟ اننى كالذى فقد صوابه . ان كل ما أريده هو أن أبقى قريبا منها ، فى الهالة التى تحيط بها ، فى الاشعاع الذى يصدر عنها ، الى الأبد ، مدى الحياة . لا أعرف أكثر من هذا ! هل أطيق أن أبتعد عنها ؟

فلما بلغت الطابق الثالث شعرت ، فى دهليزهم ، بما يشبه الصدمة ؛ فالتفت فاذا أنا ألمح بولينا على مسافة



عشرين خطوة ، او أكثر ، خارجةً الى الممر . لكنّها كانت
تربص بى ، وتتجسس على ، أومات فورا الى أن أتقرب .
هتفت :

— بولينا ألكسندروفنا . . .

فأمرتنى بقولها :

— أخفض صوتك !

فقلت بصوت خافت :

— تصوّرى أننى أحسست فى هذه اللحظة بما يشبه

ضربة فى جنبى ، فألتفت فاذا أنا أراك ! لكأن شعاعا
كهربائيا يخرج منك !

قالت بولينا وقد بان فى وجهها التجهّم والهّم (وأغلب
الظن أنها لم تسمع كلامى) :

— خذ هذه الرسالة فاعطها مستر آستلى حالا شخصيا .

فورا . أرجوك . ولن يعطيك جوابا ؛ انه . . .

ولم تتم جملتها

قلت مدهوشا :

— أعطى الرسالة الى مستر آستلى ؟

ولكن بولينا كانت قد اختفت وراء الباب .

— هكذا اذن . ان بينهما مراسلة !

وهرعت طبعاً أبحث عن مستر آستلى : ذهبت أولاً

الى الفندق فلم أجده ، ثم مضيت الى الكازينو فطفت

فى جميع قاعاته فلم أجده ؛ وفيما كنت أعود الى المنزل

حانقا غاضبا يائسا ، رأيت مصادفة مع موكب من الانجليز ،

رجال ونساء على ظهور الجياد . فأشرت اليه ، فوقف ،

فناولته الرسالة . ولم يتسع الوقت لأن تتبادل النظرات .
وأظن أن مستر آستلي قد تعمد ذلك ، فانه ما ان تناول
الرسالة حتى لكز حصانه يستحث خطاه !

هل كانت الغيرة تعذبني ؟ لقد كنت منهارا انهيارا
كاملا . لم أشأ حتى أن أستطلع موضوع المراسلة . هو
موضع سرها ومحل ثقتها اذن ! أما أنه صديقها فذلك
واضح (منذ متى ؟) ، ولكن هل بينهما حب ؟ همس
لى عقلى قائلا : «حتما لا» . ولكن العقل وحده ليس
له كبير وزن فى مثل هذه الحوادث . وكيف كان الحال ،
يجب على أن أخرج هذا أيضا الى النور . كانت الأمور
تتعدد تعقدا مزعجا .

ما كدت أدخل الفندق حتى هرع الى البواب ورئيس
الخدم الذى خرج من غرفته يبلغانى أن الجماعة طلبتني ،
وأنها تسأل عنى ، وأنها أرسلت ثلاث مرات حتى الآن
تستطلع عن المكان الذى ذهبت اليه ، وأنها ترجونى أن
أمضى الى غرفة الجنرال بأقصى سرعة . كنت معتكر المزاج
مضطرب النفس . وجدت الجنرال فى حجرته ومعه دى
جربو ، و m-Ile Blanche وحدها دون أمها ؛ لا
شك أن هذه الأم كانت تمثل دور من له شأن ، وهى
فى حقيقة الأمر لا شأن لها البتة ، وتستعمل قصد التظاهر
فقط : فمتى كان هناك «قضية» حقا ، رأيت m-Ile Blanche
تصرف الأمور وحدها ؛ بل اننى لأشك فى أن تكون هذه
المرأة على علم بشئون ابنتها المزعومة .
كانوا يتناقشون فى كثير من الحرارة والاندفاع ، حتى

أن باب الغرفة كان مقفلا بالمفتاح ، وذلك أمر لم يسبق
 أن حدث يوما . سمعت ، حين اقتربت من الباب ،
 أصواتا عالية : سمعت لهجة دى جريو الوقحة اللائمة ،
 وسمعت الصيحات الحانقة تطلقها m-lle Blanche ،
 وسمعت الصوت المتباكي ، صوت الجنرال الذي كان واضحا
 أنه يحاول أن يبرئ نفسه . فلما دخلت عليهم ثابوا الى
 أنفسهم ، وأصلحوا وضعهم . فها هو ذا دى جريو يعدل
 شعره ويصنع لنفسه وجها باسما : يا لهذه البسمة الفرنسية ،
 المتظرفة ، الرسمية ، الخيثة ، كم أمقتها ! وهذا هو
 الجنرال ، المرهق ، الطائش اللب ، ينتصب ، ولكن
 بحركة تشبه أن تكون آليّة . ان m-lle Blanche وحدها
 لم تكد تغير هيئة الغضب والحنق في وجهها ، فصمتت وهي
 تحديق اليّ بنظرة نافذة الصبر . يجب أن أذكر هنا أنها
 كانت الى ذلك الحين تعاملني معاملة فيها من قلة الاكتراث
 ما لا يصدقه عقل ، فهي ترفض حتى أن ترد على تحياتي
 وتتجاهل وجودي تجاهلا كاملا .

ابتدرني الجنرال يقول لي بلهجة عتب ودود :

— ألكسى ايفانوفتش ! اسمح لي أن ألفت نظرك
 الى أنه من الغريب ، من الغريب كل الغرابة .. أقول باختصار
 ان سلوكك نحوي ونحو أسرتي .. أقول بايجاز ان هذا السلوك
 عجيب ، غريب الى أقصى حدود الغرابة . . .

— Eh! ce n'est pas ça..

هكذا قاطعه دى جريو بحق يمازجه احتقار (لا شك
 في أنه كان صاحب الأمر !) ؛ وأردف يقول :

— Mon cher monsieur, notre cher général
(١) se trompe حين يتخذ هذه اللهجة (تابعتُ كلامه
بالروسية) . انه يريد أن يقول لك . . . أعني أن ينبهك ،
أو قل أن يرجوك ملحا أن لا تضعيه ، نعم أن لا تضعه !
وأنا أستعمل هذا التعبير صراحة . . .
فقاطعته قائلا :

— ولكن كيف ؟ كيف ؟

قال دى جريو مرتبكا :

— اسمح لى ، لقد جعلت من نفسك دليلا (أو
كيف اقول هذا ؟) نعم ، جعلت من نفسك دليلا لهذه
السيدة العجوز ، *cette pauvre terrible vieille* . ولكنها
ستخسر ، ستخسر آخر قرش تملكه ! لقد رأيت بنفسك
كيف تلعب ، لقد شهدت ذلك بنفسك ! فاذا أخذت
تخسر ، فلن تترك مائدة القمار بعد ذلك قط ، عنادا
واصرارا أو حنقا وغيظا ، وستقامر من كل بد ، ستقامر
من كل بد ! ان المرء فى مثل هذه الحالة لا يسترجع
ما خسره أبدا ، وعندئذ ، وعندئذ . . .
قال الجنرال مؤيدا :

— وعندئذ ستضيع الأسرة كلها ! اننا ، أنا وأسرتى ،
ورثتها ، فليس هناك من هو أقرب اليها منا . وانى لأقول

(١) ليس هذا هو المقصود . . . يا سيدى العزيز ، ان صاحبنا
الجنرال يخطيء (بالفرنسية فى الأصل) .
(٢) لهذه العجوز المسكينة الرهية (بالفرنسية فى الأصل)

لك بصراحة : ان أموري مضطربة ، مضطربة أشد الاضطراب .
ولعلك تعرف طرفا من ذلك . . فاذا خسرت مبلغا ضخما
أو حتى اذا خسرت ثروتها كلها وهذا ممكن (يا رب !) ،
فما عسى أن يصير اليه أولادى ! (قال الجنرال ذلك وهو
يلقى نظرة على دى جريو) ، وما عسى أن أصير اليه أنا !
(قال هذا ونظر الى m-lle Blanche التى أشاحت وجهها
باحترقار . أنقذنا يا ألكسى ايفانوفتش ! انقذنا ! . .
قلت :

— ولكن كيف يا جنرال ، قل لى كيف أستطيع
أن . . ما شأنى أنا فى هذا الامر ؟
قال :

— أرفض ، أرفض ، اتركها ! . .
فصحت أقول :

— سيوجد شخص آخر !

فقال دى جريو مقاطعا مرة أخرى :

— Ce n'est pas ça, ce n'est pas ça, que diable!

لا تتركها ، ولكن عظها ، انصحها ، اصرفها عن القمار . .
أو لا تدع لها أن تخسر كثيرا ، سلها بطريقتة من
الطرق .

فقلت مصطنعا السذاجة :

— ولكن كيف أفعل هذا ؟ ليتك تتولى هذا الأمر

بنفسك يا monsieur دى جريو !

فما ان قلت هذا الكلام حتى رأيت نظرة سريعة ،
محركة ، متسائلة ، تلقيها m-lle Blanche على دى جريو .

فاذا بوجه دى جريو يتخذ ، فى مدى لمحة طرف ،
تعبيرا خاصا صادقا لم يستطع اخفاه .
— المصيبة أنها لن تقبلنى ! ولو قبلت . . . فيما
بعد . . .

كذلك هتف دى جريو وهو يحرك يده باشارة عجز .
ثم ألقى دى جريو نظرة سريعة ذات دلالة على
m-lle Blanche .

فاذا بـ m-lle Blanche نفسها تجيء الىّ وهى
تبتسم ابتسامة فائنة ، فتتناول كلتا يدي ، وتشد عليها ، وتقول لى :
— Oh mon cher monsieur Alexis, soyez si bon ⁽¹⁾

اللعنة ! ان هذا الوجه الشيطانى يعرف كيف يتحول على
النور ! ان وجهها يعبر الآن عن ضراعة كبيرة ، ولطف
عظيم ، وابتسامة كابتسامة الأطفال ، ومكر كمكر الأطفال .
حتى لقد توجهت الىّ ، فى ختام عبارتها ، بغمزة عابثة
مختلصة ؛ أتراها تريد أن تغزوى رأسا ؟ انها تعرف كيف
تفعل ذلك ، ولكن الأسلوب كان هنا مفضـوـحا
للغاية !

وانبجس الجنرال وراءها (نعم «انبجس» ، هذه هى
الكلمة) ، فأخذ يقول لى متوسلا :

— ألكسى ايفانوفتش ، اغفر لى الطريقة التى استعملتها
فى التعبير منذ هنيهة ؛ ليس ذلك ما كنت أريد أن أقوله
تماما . . . فانما أنا أرجوك ، بل أضرع اليك ، وأنحنى

⁽¹⁾ عزيزى السيد ألكسى ، كن طيبا . (بالفرنسية فى الأصل) .

لك حتى الحزام على الطريقة الروسية . أنت وحدك ، وحدك ،
تستطيع أن تتقدنا ! أنا و m-lle de Cominges نتوسل
اليك ، نبتهل اليك . أنت فاهم ، أنت فاهم ، أليس
كذلك ؟

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يدلنى بنظرته على
m-lle Blanche . كان يُرئى لحاله حقا .
وفي هذه اللحظة نُقر الباب ثلاث نقرات خفيفة
مهذبة . فلما فتح للطارق ، ظهر خادم الطابق ، وظهر
وراءه ، على مسافة بضع خطوات ، بوتابتش واقفا . لقد
أرسلتهما الجدة ، وأمرتهما أن يبحثا عنى ، وأن يجيئها
بى حالا .

قال بوتابتش :

— انها غاضبة .

قلت :

— ولكن الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف !

— لم تستطع أن تنام ، لم تستقر فى سريرها ،

ثم اذا هى تنتصب فجأة ، فتطلب كرسيها ، وترسل تستدعيك .

هى الآن على باب الفندق . . .

صاح دى جريو يقول :

— Quelle mégère! ⁽¹⁾

ووجدت الجدة فعلا عند فسحة المدخل ، حائقة
من غيابى لم تطق الانتظار حتى الساعة الرابعة

⁽¹⁾ يا لها من امرأة سليطة ! (بالفرنسية فى الاصل)

صاحت حين رأته :
— هيا . ارفعوا كرسيي !
وتوجهنا الى الروليت من جديد .





الفصل الثاني عشر

كانت الجدة مهتاجة احتياجا شديدا . وكان واضحا
أن الروليت تحاصر فكرها . انها لا تنتبه الآن الى شيء
آخر غير الروليت ، وتبدو ذاهلة ذهولا قويا على وجه العموم .
من ذلك مثلا أنها لم تلق على أسئلة أثناء الطريق كما
فعلت في الصباح . وحين لمحت عربة فخمة تبختر
أمامنا ، حركت يدها قليلا تسألني : « ما هذا ؟ من أين ؟ » ،
ولكنها لم تسمع جوابي في أغلب الظن . وكان يقطع
استرسالها في الأفكار حركات متقطعة تنبئ عن نفاذ الصبر

وهيجانات مفاجئة . حتى اذا اقتربنا من الكازينو ، فرأيت البارون والبارونة فورمرهلم ، فأشرت اليهما من بعيد وسميتهما ، نظرت اليهما نظرة ذاهلة وقالت بلهجة تدل على أنها لا تكترث* للأمر أقل اكتراث : «هه !» وهي تلتفت بحركة قوية نحو بوتابتش ومارفا اللذين كانا يتبعانها ، فتقول لهما : — ما لكما تلازمانى ؟ لن أصطحبكما فى كل مرة !
عودا !

وأضافت تقول لى حين انصرف الآخران بعد أن ودعاها بتحية سريعة :

— أنت تكفينى .

كانت الجدة تُنتظر فى الكازينو . وفى الحال حجز لها المكان نفسه ، قرب القيم . يخيل الى أن هؤلاء القيمين الوقورين دائما الذين يظهرون بمظهر الموظفين المتجردين الذين يكاد يستوى عندهم أن يربح البنك أو أن يخسر ، ليسوا فى حقيقة الأمر غير مبالين بخسارة البنك . فلا شك أنهم مزودون بتعليمات لاجتذاب المقامرين ، والحرص على مصالح الخزانة ، ولا شك أن هذا يعود عليهم بمكافآت وهبات . ان أقل ما يقال هو أنهم كانوا ينظرون منذ الآن الى الجدة نظرتهم الى ضحية . ووقع ما كان يتوقعه جماعتنا .

واليكم كيف جرت الأمور :

اختارت الجدة zéro رأسا ، وأمرتني أن أحط اثني عشر فردريكا دفعة واحدة . فحططنا مرة أولى ، فمرة ثانية ، فمرة ثالثة . . . ولكن zéro لم يظهر . فكانت الجدة ما تنفك تلكرزنى بكوعها نافذة الصبر قائلة : «استمر ، استمر !»

فكنت أطيع الأوامر .

وسألتنى أخيرا وهى تصر بأسانها من نفاذ الصبر :

— كم مرة خسرتنا ؟

— اثنتى عشرة مرة ، يا جدة . وقد خسرتنا مائة

وأربعة وأربعين فردريكا . أعود فأقول لك ، قد يجيء

المساء قبل أن . . .

فقاطعتنى تقول :

— اسكت ! حط على zéro ، وحط ألف غولدن

الآن على الأحمر . هاك ورقة نقدية .

فخرج الأحمر ، ولكن zéro امتنع عن الخروج

فى هذه المرة أيضا . واسترجعنا ألف غولدن .

قالت الجدة بصوت خافت :

— أرايت ؟ أرايت ؟ ها نحن استرجعنا كل ما خسرتناه

تقريبا . حط أيضا على zéro . وسننصرف بعد عشر

دورات .

ولكن الجدة اصابها الضجر بعد خمس دورات .

قالت لى آمة :

— دعك من هذا الصفر المنحوس خذ . حط

أربعة آلاف غولدن على الأحمر .

فتضرعت اليها قائلا :

— هذا كثير يا جدة ! . . ماذا اذا لم يخرج الأحمر؟

ولكنها أوشكت أن تضربنى (هذا الى أن لكزات كوعها

كانت لطمات حقا) ، وكان لا بد من الامتثال لأمرها ،

فوضعت على الأحمر الأربعة آلاف غولدن التى ربحناها

في الصباح . وأخذت الدائرة تدور . كانت الجدة هادئة ،
منتصبه القامة ، معتزة ، واثقة من أنها ستربح .

صاح القيم :

—Zéro.

فلم تفهم الجدة في أول الأمر ؛ ولكنها حين رأت
القيم يلم ألوفها الأربعة من الغولدنات مع كل ما كان موجودا
على المائدة ، فأدركت أن zéro الذي ظل مختفيا طوال
تلك المدة والذي خسرنا عليه ما يقرب من مائتي فردريك ،
قد ظهر الآن ، كأنما عن عمد وقصد ، بعيد أن أهانته
وهجرته ، صرخت صرخة تعجب ، وشفقت كفا بكف
صفقا مدويا . فأخذ الناس من حولها يضحكون .

— يا قديسي الجنة ! ها هو ذا يخرج الآن ، هذا
الملعون ! الذنب ذنبك ! هذا كله ذنبك ! (قالت ذلك
وهي تهجم على حانقة وتأخذ تنكعني) . أنت ثبنتني عن
الصفرة

— يا جدة ، أنا حاولت أن أردك الى التعقل ،
ولست مسئولا عن جميع الحظوظ

فجمجت تقول بلهجة التهديد :

— لسوف أعطيك حظوظا ! هيا انصرف !

قلت وأنا أتحول عنها كمن يريد أن ينصرف :

— وداعا يا جدة .

— ألكسى ايفانوفتش ، ألكسى ايفانوفتش ! ابق

معي ! الى أين أنت ذاهب ؟ ماذا بك ؟ هو زعلان !

انت الاحمق ! ابق ، ابق قليلا أيضا . لا ترعل ! أنا

نفسى الحمقاء ! قل لى ما يجب أن نفعل الآن !
— لن أنصحك بشيء بعد الآن يا جدة ، حتى لا
تلومينى . العبى بنفسك . أنت تأمرين ، وأنا أحط .
— طيب طيب : حط أيضا أربعة آلاف غولدن على
الأحمر ! اليك محفظتى (قالت ذلك وهى تخرج محفظتها
من جيبتها وتمدها الىّ) . أسرع . فيها عشرون ألف روبل
نقدا .

تمتت أقول :

— يا جدة ! هذه مبالغ . . .
— أوثر أن أموت على أن لا أسترد . حط .
فحططنا وخسرنا .
— حط أيضا . حط أيضا . حط ثمانية آلاف
دفعة واحدة !
— هذا ممنوع يا جدة . الحد الأقصى هو أربعة
آلاف ! . . .

— حط اذن أربعة آلاف !
فربحنا فى هذه المرة . فاستردت الجدة شجاعتها .
قالت لى وهى تلكزنى بكوعها :
— أرايت ؟ أرايت ؟ حط أربعة آلاف أخرى !
فحططنا ، فخسرنا ، ثم حططنا وخسرنا . . . وخسرنا
مرة أخرى .
قلت لها مبلّغا :

— ضاعت الاثنا عشر ألف غولدن كلها يا جدة .
فأجابتنى بنوع من الحق الهادئ ان صح التعبير :

— أعرف أنها ضاعت .

ثم أضافت مدممة ، وهي جامدة النظرة كأنها تفكر :

— أعرف أنها ضاعت يا عزيزي ، أعرف . هيه !

أوتر أن أموت . . حط أربعة آلاف غولدن أخرى !

— لم يبق معنا نقود يا جدة . لم يبق في محافظتك

الا اوراق مصرفية بفائدة خمسة في المائة ، وبضعة سندات ؛

أما المال فلا مال .

— وفي كيسى ؟

— فكة فقط يا جدة .

فقلت الجدة بلهجة قاطعة :

— ألا يوجد هنا صرافون ؟ لقد قيل لى ان فى

وسعنا أن نبذل جميع ما معنا من أوراق مالية .

— تستطيعين تبديل كل ما تريدن تبديله ! ولكنك

ستخسرين فى عملية التبديل . . ألا ان يهوديا ليرتعش من

هذا !

— سخافات ! سوف أسترده مالى ! قدنى الى الصرافين .

استدع هؤلاء المغفلين .

فدحرجت الكرسي ، وهرع الحمالون يدركوتنا ، وخرجنا

من الكازينو .

قالت الجدة آمرة :

— اسرعوا ، اسرعوا ! أرنا الطريق يا الكسى

ايفانوفتش . . خذنا الى أقرب صراف . . أهو بعيد ؟

— على مسافة خطوتين يا جدة .

ولكن ، عند المنعطف ، حين اجتزنا الساحة وسلكتنا

طريق أشجار الكستناء ، صادفنا جماعةنا كلها : الجنرال
ودى جريو و m-Ile Blanche وأمها ، ولم تكن بوليننا
ألكسندروفنا معهم ، ولا مستر آستلي .

— هيا بنا ، هيا بنا ! لن نتوقف ! ماذا تريدون ؟
ليس في وقتي متسع لكم !
كذلك صاحت الجدة

وكنت أسير في الخلف ، فلحق بي دى جريو ،
فقلبت له بصوت خافت على عجل :

— خسرت كل ما ربحته في الصباح ، واثنى عشر
ألفا زيادة . ونحن ذاهبون نبدل سندات فائدتها خمسة
في المائة

فضرب دى جريو الأرض برجله ، وهرع ينيئ الجنرال
بالخبر . وكنا ما نزال ندفع كرسى الجدة .

فتمتم الجنرال يقول لى وقد جن جنونه :
— أوقفها ، أوقفها !

فأجبتة همسا :

— حاول ذلك أنت

فقال الجنرال وهو يقترب :

— يا عمتي ، يا عمتي الطيبة ! .. نحن ذاهبون ..
نحن ذاهبون (كان صوته يرتجف ثم تكسر) نستأجر جيادا
لنقوم بجولة في الضواحي .. منظر رائع .. القمة .. كنا آتين
لندعوك أن تصحبينا .

فقالت الجدة بحركة انزعاج لتدفعه عنها :

— اذهب أنت وقمك الى الشيطان !

فاستأنف الجنرال يقول وقد فقد الأمل في هذه المرة :
 — يوجد هناك قرية . . . نحسنى فيها الشاي . . .
 وأضاف دى جريو بلهجة تنم عن عداوة كاسرة :
 * « Nous boirons du lait, sur l'herbe fraîche »
 Du lait, de l'herbe fraîche ذلك أقصى ما
 يتخيله بورجوازي باريسى من متعة شعرية مثالية ؛ ذلك هو ،
 كما تعرفون ، كما تصوره حول * « ٢ » "nature et la vérité"
 صاحت الجدة :

— لا يهمنى لبنك ! اذهب فاشرب منه وحدك .
 أما أنا فاللبن يؤذى معدتى . لماذا تلحون ؟ قلت ان
 وقتى لا يتسع !
 صحت أقول للجدة :

— وصلنا يا جدة ! هذا هو المكان !
 ودفعنا كرسيها نحو المبنى الذى يوجد فيه مكتب الصراف .
 ومضيت أنا أتولى تبديل السندات ، وليثت الجدة تنتظرني
 عند المدخل . وظل دى جريو والجنرال و Blanche
 بعيدين لا يعرفون ماذا عساهم صانعين . ورشقتهم الجدة
 بنظرة غضبى ، فساروا فى الطريق الى الكازينو .
 عرض على الصراف سعرا بخسا جدا ، فترددت وعدت
 أسأل الجدة ما تأمر به .

فصاحت الجدة وهى تصفق يدا بيد :

(١) سنشرب لبنا على العشب الطرى (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) «الطبيعة والحقيقة !» (بالفرنسية فى الأصل)

— آ. . يا لهم من لصوص ! — ومع ذلك صاحت بحزم :

— لا بأس ! بدلها !

ثم قالت لى متداركة :

— انتظر . ادع لى صاحب المصرف !

— لعلى أدعو أحد الموظفين يا جدة ؟

— سيان . أدع أحد الموظفين . آه . . يا للصوص !

ورضى الموظف أن يخرج حين علم أن التى تستدعيه كونتيسة عجوز ، ضعيفة عاجزة ، لا تستطيع ان تمشى . فألقت عليه الجدة خطابا طويلا بصوت غاضب ومرتفع ، وصفته فيه بأنه محتال ، وكانت تساومه بمزيج من روسية وفرنسية وألمانية ، فكنت مضطرا أن أترجم له . فكان الموظف الرصين ، ينظر إلينا كلينا هازا رأسه دون أن ينبس بكلمة ؛ حتى لقد كان يتفرس فى الجدة باستطلاع ملحاح يقارب قلة الأدب ثم أخذ يبتسم .

صرخت الجدة تقول :

— طيب ، امشِ ! ان شاء الله يخنقك مالى !

بدل عنده يا ألكسى ايفانوفتش ، ليس لدينا متسع من الوقت ، والآ لمضينا الى غيره . . .

— هو يدعى أن غيره يعطى سعرا أبخس من سعره .

لا أتذكر الآن كم كانت «العمولة» على وجه الضبط ،

ولكنها كانت رزية . قبضت اثنى عشر ألف غولدن ، قطعا

ذهبية وأوراقا نقدية ، وأخذت فاتورة الحساب ، ومضيت

بها الى الجدة .

قالت الجدة وهي تلوح بيديها :
— طيب طيب . لا داعى الى العد . أسرع ، أسرع ،
أسرع !

حتى اذا صرنا قرب الكازينو دمدمت قائلة :
— لن أخط شيئا بعد الآن قط لا على zéro
المنحوس ، ولا على الأحمر .

وحاولت فى هذه المرة ، بكل ما أوتيت من قوة ،
أن أقنعها بأن لا نحط الا مبالغ ضئيلة ، حتى اذا رأينا
الحظ يواتينا سيتسع الوقت لنا أن نحط مبالغ ضخمة .
ولكنها كانت نافذة الصبر ، فرغم أنها استجابت لحججى
فى البداية ، لم أستطع أن أكبح زمامها أثناء اللعب .
وما ان أخذت تريح عشر فردريكات أو عشرين حتى راحت
تلكزنى بكوعها قائلة :

— أرايت ؟ أرايت ؟ لقد ربحتنا ، فلو قد حططنا
أربعة آلاف فريدريك بدلا من عشر ، اذن لربحتنا أربعة
آلاف . أما الآن . . ان الذنب فى ذلك كله ذنبك !
فقررت أخيرا أن أصمت وأن أعدل عن اسداء النصح
لها بتاتا ، رغم ما كنت أشعر به من غيظ حين أراها
تقامر بهذه الطريقة .

وها هو ذا دى جريو ينبجس على حين فجأة . لقد
كانوا هم الثلاثة فى أطراف القاعة . لاحظت أن m-Ile Blanche
كانت متحية جانبا مع أمها فى صحبة الأمير تلافه وتتودد
إليه . وكان واضحا أن الجنرال منبوذ ، حتى ليكاد يكون
منفيا . ان Blanche ترفض حتى أن تنظر إليه ، رغم

تقربه منها واحتفاله بها . مسكين هذا الجنرال ! لقد كان
يصفر ويحمر ويرتعش ، منصرفاً حتى عن مراقبة مقامرات
الجددة . وخرجت Blanche أخيراً مع الأمير ، فهرع الجنرال
يعدو في اثرهما

قال دى جريو موشوشا الجدة بصوت متلطف معسول :
— Madame, madame — .. هذا اللعب لن يربح ..

مستحيل . . لا !

قال ذلك بلغة روسية رديئة .
فسألته الجدة :

— فماذا أفعل اذن ؟ قل لى ما ترى أن أفعله !
فأخذ دى جريو يتكلم بالفرنسية متدفقا ، ويسدى
النصائح تلو النصائح وهو يتململ ، ويقول انه كان عليها
أن تنتظر موافاة الحظ ، حتى لقد أخذ يجرى بعض
الحسابات . . . لم تفهم الجدة شيئاً . وكان دى جريو يلتفت
الىّ فى كل لحظة من أجل أن أترجم . وكان يسدد اصبعه
نحو المائدة يظهر الجدة على ما يريد اظهارها عليه ، وتناول
آخر الأمر قلما فألقى على الورق بعض الأرقام . فنقد صبر
الجددة أخيراً ، فقالت له :

— امض ، امض ! ما أراك قائلاً الا خزعبلات !
“Madame, madame” أما أنت نفسك فلا تفقه شيئاً !

هيا اذهب !

فتمتم دى جريو يقول مستأنفا التوضيح والشرح ،
وكان جلياً أنه كالمسوع :

— Mais, madame

فأمرتنى الجدة قائلة :

— طيب . . حط مرة كما يقول : فقد ينجح نصحه .
كان كل ما يريد دى جريو أن يمنها من حط
مبالغ ضخمة : فاقترح عليها أن تحط على الأرقام منفصلة
ومجموعة . فاتبعت رأيه ، فحطت فردريكا على سلسلة من
الأعداد الوترية فى الاثنى عشر الأولى ، وحطت خمسة
فردريكات على مجموعات من الأرقام من اثنى عشر الى
ثمانية عشر ومن ثمانية عشر الى أربع وعشرين : وبذلك
حططنا مبلغا مقداره ستة عشر فردريكا وأخذت الدائرة
تدور .

— Zéro.

بهذا صاح القيم . فخرنا كل ما حططناه .

هتفت الجدة ملتفتة نحو دى جريو تقول :

— يا لك من ابله ! يا لك من فرنسى سخيف !
انظر الى هذا الوحش يسدى الينا بنصائحہ ! هيا امض ،
امض ! لا يفقه شيئا ثم يحشر أنفه فى كل شيء !
فاستاء دى جريو استياء شديدا ، فرفع كتفيه استخفافا ،
وألقى على الجدة نظرة احتقار ، ثم انسحب . لقد شعر
بالعار من تدخله فى شأنها وتعريض نفسه للمهانة منها ،
ولكنه لم يطق أن يمنع نفسه عن ذلك .

وما انقضت ساعة واحدة ، الا وقد خسرنا كل شيء ،

رغم جميع الجهود المستميتة

صرخت الجدة قائلة :

— لنعد الى المنزل !

لم تنبس الجدة بكلمة واحدة طوال مسيرتنا حتى بلغنا طريق أشجار الكستناء . وهناك ، في هذا الطريق ، حين أوشكنا أن نصل الى الفندق ، أفلتت من لسانها عبارات كهذه :

— يا لى من بلهاء ! يا لى من حمقاء ! ما أنا الا عجوز غبية ! . . .

حتى اذا صرنا فى مسكنها صاحت تقول :
— الىّ بشيء من الشاى ! ولتتهياً للسفر رأسا بعد ذلك . سوف نساfer !

قالت مارفا مجازفة :

— الى أين تريدان أن تذهبى يا سيدتى الطيبة ؟
فقاطعتها الجدة :

— أهذا شأنك ؟ اهتمى بأمرى أنت ! يا بوتابتش ، هبى جميع الأمتعة . نحن عائدون الى موسكو ! لقد خسرت خمسة عشر ألف روبل !

— خمسة عشر ألفا ، يا سيدتى العزيزة ؟ رباه رباه ! هكذا صاح بوتابتش ، وهو يضرب كفا بكف ، مظهرا الاشفاق والحنان ، لاعتقاده أن هذا يرضى سيده .
— هيا هيا أيها الغبى ! ها هو ذا قد أخذ يتباكى ! أسكت ! وامض هبى السفر . وليأتونى بفاتورة الحساب بأقصى سرعة !

قلت من أجل أن أهدئ غضبها :

— يسافر القطار التالى فى الساعة التاسعة والنصف ، يا جدة .

— وكم الساعة الآن ؟

— الساعة والنصف .

— شيء مضجر ! لا بأس ! ألكسى ايفانوفتش ،

لم يبق معى كويك واحد . اليك بهاتين الوقتين النقديتين ،
فأسرع الى هناك لتبديلهما ، والا لم يكن معى ما
أسافر به .

فخرجت ممثلا لأمرها . حتى اذا رجعت بعد نصف
ساعة وجدت جميع أصدقائنا عند الجدة . كانوا كمن أذهلهم
نبأ رحيلها الى موسكو ، أكثر مما أذهلهم نبأ الخسارة التي
منيت بها فى الروليت . ما عسى أن يصير اليه الجنرال بعد
رحيلها ، مع التسليم بأن رحيلها هذا ينقذ ثروتها من
الضياع ؟ من ذا الذى سيرد الى دى جريو ديونه ؟ ومن
الطبيعى ان m-lle Blanche لن تنتظر موت الجدة ،
ولا شك أنها ستنسل مع الأمير الصغير أو مع شخص آخر .
لقد كانوا جميعا هنالك ، أمام الجدة ، يحاولون أن يواسوها
وأن يقنعوها ان تبقى . وكانت بوليننا غائبة فى هذه المرة
أيضا . وكانت الجدة تصيح فيهم محتدة :

— ابعدوا عن طريقي أيها الشياطين ! لماذا تتدخلون
فى شئونى ؟ فيم تأتى لحية التيس هذا فتتحكك بسى ؟
(بهذا كانت الجدة تصيح فى وجه دى جريو) . وأنت يا
عصفورة ، ماذا تريدین ؟ (بهذا توجهت الى m-lle Blanche)
مالك تملقین ؟

كانت عينا m-lle Blanche تقدح شررا من شدة
الغضب ، فما لبثت أن دمدت تقول :

— Diantre! ^(١)

ولكنها انفجرت تفهقه على حين فجأة ، ثم مضت
تخرج من الغرفة . حتى اذا صارت على الباب صرخت
تقول للجنرال :

— Elle vivra cent ans! ^(٢)

فصاحت الجدة بصوت حاد تقول للجنرال :
— اذن فأنت تعول على موتى ! هيا أغرب عن
وجهى ! يا ألكسى ايفانوفتش ، اطردهم جميعا ! ما شأنكم
أنتم ؟ لقد خسرت مالى أنا لا مالكم أنتم !
فرغ الجنرال كفيه ، وحنى ظهره ، وخرج . وتبعه
دى جريو .

قالت الجدة تأمر مارفا :

— نادى براسكوفيا .

فما هى الا خمس دقائق حتى عادت مارفا مصطحبة
بولينا . لقد ظلت بولينا طوال تلك الفترة فى غرفتها مع
الأطفال ، ويبدو أنها قررت عامدة أن لا تخرج فى ذلك
النهار . وكان وجهها ينم عن جد وحزن وهم .
بادرتها الجدة بقولها :

— أصحيح يا براسكوفيا ما علمته منذ قليل على نحو
غير مباشر من أن هذا الغبى زوج أمك يريد أن يتزوج
تلك المرأة المذبذبة ، تلك الفرنسية التافهة التى لا أدرى

^(١) يا للشيطان ! (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) لسوف تعيش مائة عام (بالفرنسية فى الأصل)

أهى ممثلة أم هى شر من ذلك أيضا ؟ قولى أصحيح
هذا ؟

فأجابت بولينا :

— لا أعلم شيئا علم اليقين يا جدة ، ولكننى أستنتج
من أقوال mademoiselle Blanche التى
لا ترى أن من المفيد أن تخفى الأمر ، أستنتج أن . . .
فقاطعتها الجدة قائلة بلهجة قوية :

— كفى ! فهمت كل شيء ! ولقد كنت دائما
أقدر أنه قد يرتكب شيئا من هذا القبيل وكنت دائما أعده
أفرغ رجل وأطيش رجل على وجه الأرض . انه يتباهى
برتبة الجنرال التى يحملها (وقد أخذها حين أحيل على
التقاعد وهو فى رتبة كولونيل) ، ويتخذ أوضاع الأبهة والعظمة .
ولكننى أعرف كل شيء يا عزيزتى ؛ أعرف أنكم أرسلتم
البرقية تلو البرقية الى موسكو تسألون : «هل الجدة العجوز
مشرفة على الموت؟» . كتمت تنتظرون أن تثرثوني . ولولا هذا المال
لما كان لهذه المخلوقة (ما اسمها ؟ de Cominges

فيما أتذكر !) أن ترضاه خادما لها بأسنانه المصنوعة هذه !
يقال انها تملك مالا كثيرا ، وانها تقرض بالربا ، وانها
كوتت ثروتها بسلوكها الطيب . لست أتهمك يا براسكوفيا ،
فما أنت التى أرسلت البرقيات ، ولا أريد أن أعود الى
الماضى . أنا أعلم أن لك طبعا سيئا . . . أنا أعلم أنك . . .
زينور ! . . اذا لسع أوجع وأورم ! ولكننى أشعر بالشفقة
عليك ، لأننى كنت أحب والدتك المرحومة كاترينا . فاسمعى
ما سأقوله لك : دعى كل هذا ، وتعالى معى . ليس

هناك مكان تذهيبين اليه ، وليس يليق بك أن تبقى معهم الآن . انتظري ، (قالت الجدة ذلك لبولينا حين همت بولينا أن تجيئها) لم أتم كلامي بعد . لن أطلب منك شيئا . أنت تعرفين منزلي بموسكو : انه قصر . لسوف تحتلين طابقا بأسره اذا شئت ؛ وفي وسعك أن تمكثي أسابيع بكاملها دون أن تجيئي اليّ اذا كان طبعي لا يرضيك . أتقبلين أم لا ؟

— اسمحي لي أن ألقى عليك أولا هذا السؤال :

أأنت تنوين حقا أن ترحلي على الفور ؟

— هل يظهر في وجهي أنني أمزح ، يا صغيرتي ؟

قلت انني سأسافر ، فسأسافر . خسرت اليوم خمسة عشر ألف روبل ، في هذه الروليت المنحوسة الملعونة . لقد نذرت منذ خمس سنين أن أعيد بناء الكنيسة المبنية بخشب ، والموجودة في أراضيّ حوالي موسكو ، نذرت أن أعيد بناءها بحجر ؛ فبدلا من أن أحقق النذر ، خسرت أموالى فى القمار . واننى أسافر الآن يا عزيزتى لأنفذ النذر فأعيد بناء كنيستى .

— والمياه المعدنية يا جدتى ؟ لقد جئت الى هنا

للاستشفاء بها .

— دعيني من مياهك المعدنية ! لا تغضبينى يا

براسكوفيا ! أنت تفعلين هذا عامدة ؟ قولى : أتجيئين معى أم لا ؟

فبادرت بولينا تقول بانفعال وتأثر :

— أنا يا جدتى ممتنة أشد الامتان لما تعرضينه

على من ابوائى فى منزلك . لقد حزرت بعض الوضع الذى
أنا فيه . فأنا أشكر لك ذلك أجزل الشكر ، بل أبلغ من
هذا الشعور بالجميل الذى تقدمينه لى أننى سألحق بك
وحتى قد ألحق بك قريبا ، صدقيني . أما الآن فهناك
أسباب .. هامة .. فلا أستطيع أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى
على الفور . ولكن اذا مكثت هنا ولو أسبوعين . . .

— اذن أنت لا تريدین ؟

— اذن لا أستطيع . يضاف الى ذلك أننى لا أقدر
على ترك أخى وأختى على كل حال . . اذ يمكن أن يبقيا
وحيدین فعلا . . فاذا كنت توافقين على ضم الطفلين يا
جدتى ، فلا شك عندئذ فى أننى سأجىء اليك ؛ وثقى
أننى سأكون جديرة بهذا ! (أضافت بولينا هذه العبارة الأخيرة
بحرارة وحماسة) أما بدون الأطفال ، فلا أستطيع يا جدتى .

— طيب طيب . . دعيك من التباكى ! (والحق
أن بولينا لم يخطر ببالها أن تتباكى ، ثم انها لم تذرف
فى حياتها دمعة) ، سنجد مكانا للأفراخ أيضا : العش
واسع سعة كافية . ثم انه قد آن للطفلين أن يذهبا الى
المدرسة . اذن لن تسافرى الآن . حذار يا براسكوفيا !
اننى أريد لك الخير ، وأعلم لماذا لا تريدین أن تسافرى . .
اننى أعرف كل شىء يا براسكوفيا ! لا تتوقعى خيرا من
هذا الفرنسى الحقيق .

احمرت بولينا احمرارا شديدا . وارتعشت أنا (كانوا
جميعا يعلمون ! وكنت أنا الجاهل الوحيد !)
— طيب ، طيب ، لا تعبسى . لا أريد أن أفيض

فى هذا الموضوع . ولكن حذار أن تقع كارثة . . هل تفهمين
ما أريد أن أقول ؟ أنت فتاة ذكية ، وسوف يحز فى
نفسى أن يصيبك سوء . حسبى هذا الآن . أتمنى أن
لا أرى وجوهكم كلكم ! هيا اذهبي . وداعا !
قالت بولينا :

— سأصحبك يا جدتى . .

— لا فائدة ، لسوف تزعجيني . . وقد غمرتمونى
بالمزعجات حتى قمة الرأس .
قبلت بولينا يد الجدة ، ولكن الجدة سحبت يدها
وقبلت الفتاة على خدها

وحين مرت بولينا أمامى ألفت على نظرة سريعة ،
ثم أشاحت ببصرها عنى على الفور .

— أودعك أنت أيضا يا ألكسى ايفانوفتش ! لم
يبق لسفر القطار الا ساعة واحدة . وما أحسب الا أنك
قد تعبت منى . خذ هذه الخمسين فردريك .
قلت :

— أشكر لك هذا أجزل الشكر يا جدة ولكننى لا
أجرؤ أن . . .

فصاحت الجدة تقول بصوت بلغ من العنف والتهديد
أننى لم أتجاسر أن أرفض ، فتناولت المال .
وأضافت قولها :

— اذا وجدت يوما فى موسكو بغير وظيفة ، فتعال
الى لأوصى بك . والآن هيا انصرف !

مضيت الى غرفتى وتمددت على سريرى لبثت

مستلقيا على ظهري ، طاويا ذراعي تحت رأسي ، قرابة نصف ساعة . لقد انفجرت الكارثة ، وثمة ما يوجب التفكير . وقررت أن أحدث بولينيا في الغداة جادا . هه ! الفرنسي الصغير . الأمر اذن صحيح ! ولكن ما الذي عماء حدث ؟ بولينيا ودي جربو ؟ يا رب يا رب ! كيف يمكن وضعهما جنبا الى جنب ! ؟

حقا ان هذا أمر لا يصدقه العقل . ورأيتني أنهض فجأة وقد خرجت عن طوري ، لأمضي باحثا عن مستر آستلي على الفور ، ولأحمله على الكلام مهما كلف الأمر . لا شك عندي في أنه يعرف عن هذا الأمر أكثر مما أعرف . مستر آستلي ؟ ألا انه اللغز هو أيضا !

ولكنني ما لبثت أن سمعت طرقا على باب غرفتي ، ففتحت لأرى من عسى يكون الطارق ، فوجدتني أمام بوتابتش .

— يا سيدى الطيب ألكسى ايفانوفتش ، ان سيدتى تطلب أن تجيء اليها .

— ماذا جرى ؟ هل هي على أهبة السفر ؟ ما زال على موعد القطار عشرون دقيقة كاملة

— انها مضطربة أشد الاضطراب يا عزيزي ، لا تكاد . تستطيع الاستقرار في مكانها «أسرع ، أسرع !» أقصد انها تطلبك أنت . لاجل المسيح لا تتأخر !

فزلت حالا . فوجدت الجدة قد نقلت الى الدهليز ، وفي يدها محفظة نقودها فما ان رأتني حتى قالت : — ألكسى ايفانوفتش ، سر أمامنا ، فلنذهب ! . .

— الى أين يا جدة ؟

— لسوف أسترد مالي ولو كان على أن أهلك !
هيا ، امش . لا تلق على أي سؤال ! اللعب يستمر الى
منتصف الليل ، أليس كذلك ؟

جمدت في مكاني مطرقا أفكر . ولكنني ما لبثت
أن اتخذت قرارا .

— لك ما تشائين يا أنطونيدا فاسيليفنا . ولكنني لن
أصحبك .

— لماذا ؟ ما الذي جرى ؟ هل جنّ جنونكم جميعا ؟

— لك ما تشائين يا جدة . ولكنني لا أريد أن
أندم في المستقبل ، لا أريد . لن أكون لا شاهدا ولا
مشاركا . اعفيني من هذا يا أنطونيدا فاسيليفنا ! اليك الخمسين
فردريكا التي اعطيتنيها ، والوداع !

قلت هذا ووضعت لفة الفردريكات على منضدة صغيرة
كانت موجودة الى جانب كرسي الجدة ، ثم حيث وانصرفت .
صاحت الجدة تقول :

— ما هذه البلاهة ! طيب ، لا تجيئ ، سأعرف

الطريق بنفسى ! تعال معى يا بوتابتش . هيا جرونى !

لم أعثر على مستر آستلى ، فعدت الى الفندق . وفي

وقت متأخر من الليل ، فى الساعة الواحدة بعد منتصف

الليل ، عرفت من بوتابتش كيف انتهى يوم الجدة . لقد

خسرت كل ما كنت قد بدلتها لها ، أى عشرة آلاف روبل

أخرى . ان البولونى الذى سبق أن أهدت اليه فردريكين ،

قد تعلق بأذيالها ، ووجه لعبها طوال الوقت . فى البداية

أمرت بوتابتش أن يحط ، ولكنها لم تلبث أن طردته .
وفي تلك اللحظة انما ظهر البولوني . ومن المصادفات التي
تشبه أن تكون مقصودة أن هذا البولوني كان يفهم اللغة
الروسية ، وكان يرطن بعض الرطن بخليط من ثلاث لغات ،
فأمكن أن يتفاهما . وكانت الجدة تغلظ له القول رغم أنه
كان مستعدا ، حسب قوله ، أن «يزحف تحت قدمي
السيدة زحفا» .

وأضاف بوتابتش يحكى القصة قائلا :

— لا وجه للمقارنة بينك وبينه يا ألكسى ايفانوفتش .
لقد كانت تعاملك أنت معاملتها سيداً من السادة . أما
الآخر (رأيتَه بأَم عيني ، وليصعقني الله صعقا ان كنت
كاذبا) فقد كان يسرق مالها على مرأى منها ؛ حتى لقد
ضبطته متلبسا بالجرم مرة أو مرتين ، فشتمته ، ووصفته
بجميع الأوصاف ، بل لقد شدت شعره . صحيح . لست
أكذب . وقد ضحك الناس من ذلك . خسرت كل شيء
يا سيدى الطيب : خسرت كل ما كان معها ، كل ما
بدلته لها . ورجعنا بها الى هنا ، السيدة العزيزة . فما
زادت على أن طلبت كأسا من ماء ، ثم رسمت اشارة
الصليب ، ومضت الى فراشها ونامت على الفور خائفة القوى .
أسأل الله أن يبعث اليها بأحلام ملائكية !

وختم بوتابتش قصته قائلا :

— آه آه من البلاد الأجنبية ! لقد قلت ان هذه
الرحلة الى الخارج لن تأتي بخير . لو نعود بسرعة الى مدينتنا
العزيزة موسكو . ماذا كان ينقصنا هنالك ؟ .. حديقة جميلة ،

وأزهار لا نرى لها هنا مثيلا ، وهواء نقي ، وأشجار تفاح
غضة ، ومكان فسيح . . . كلا . . . كان لا بد من أن نسافر
الى الخارج ! آه آه . . .





الفصل الثالث عشر

منذ شهر كامل تقريبا لم ألمس هذه المذكرات التي بدأت كتابتها وأنا نهب مشاعر مضطربة مشوشة لكنها قوية . ان الكارثة التي كنت أحس اقترابها قد وقعت فعلا ، ولكنها جاءت أقوى وأكثر بغتة مما كنت أتصور ، مائة مرة . كان كل شيء غريبا فاضحا ، بل فاجعا ، فيما يتصل بى أنا على الأقل . لقد وقعت لى أمور تشبه أن تكون معجزات ؛ أو هذا ما أراه فيها حتى الآن ، رغم أنها لا تكاد تستحق أن توصف الا بأنها استثنائية بعض الشيء ، اذا نحن

نظرنا إليها من زاوية أخرى ، ولا سيما باعتبار سير الأحداث التي كنت أشارك فيها آنذاك . ولكن المعجزة ، بالنسبة الى ، هي ذلك الموقف الذي اتخذته تجاه تلك الأحداث . . اننى ما زلت عاجزا عن الفهم ! ولقد وقع ذلك كله كأنه حلم . . وحتى هيامى بيولينا يصدق عليه هذا الوصف . ولقد كان حبى قويا صادقا مع ذلك . ولكن ماذا أصبح الآن ؟ انه ليخطر ببالي هذا السؤال فجأة في بعض الأحيان : « ترى ألم أكن مجنوننا حينذاك ؟ ألم أقض ذلك الوقت كله في مستشفى من مستشفيات المجانين ؟ ألا يمكن أن أكون فيه حتى الآن ؟ ألا يمكن أن يكون خيل لى كل هذا ولا يزال يخيّل حتى الآن ؟ »

جمعت أوراقى وأعدت قراءتها . (ومن يدرى ، لعلى ما فعلت هذا الا لأقتنع بأننى لم أكتبها فى مستشفى من مستشفيات المجانين ؟) أنا الآن وحيد فى هذا العالم . لقد جاء الخريف ، واصفرت أوراق الأشجار . اننى أقيم فى هذه البلدة الصغيرة الكثيرة (آه ما أشد ما يمكن أن تكون المدن الألمانية الصغيرة كثيرة !) ، وبدلا من أن أفكر فى الخطوة القادمة ، أرانى أحيا تحت تأثير احساسات مرت حديثا ، تحت تأثير ذكريات قريبة ، تحت تأثير كل تلك العاصفة التي ما تزال قريبة ، تلك العاصفة التي حملتنى زوبعتها زمانا ثم ألقتنى الى مكان ما . وما زلت أحس فى بعض اللحظات أن الزوبعة ما زالت تأخذ بى ، أن العاصفة ستنتقل ، فيطبق جناحها علىّ اثناء عبورها ، وأننى وقد فقدت التوازن وطاش صوابى ،

سأخذ أدور ، وأدور ، وأدور . . .

على أنني قد اثبت وأكف عن الدوران ، إذا أنا
أوجزت كل ما وقع خلال هذا الشهر ايجازا دقيقا صحيحا
على قدر الامكان . ان بسى حاجة الى الامساك بالقلم
من جديد . ثم اننى فى بعض الأحيان لا أجد ما أعمله
اطلاقا اذا جاء المساء . ومن عجب أننى ، من أجل
أن أشغل نفسى ، أستعير من المكتبة الحقيبة فى هذه
البلدة روايات للمؤلف بول دى كوك * (مترجمة الى الألمانية!) ،
وهى روايات لا تطاق ولا تحتمل تقريبا ، ولكننى أقرؤها ،
واستغرب أنا نفسى لماذا أقرؤها : لكأننى أخشى اذا أنا قرأت
كتابا ذات شأن أو شغلت نفسى بأمر ذى بال ، ان أحطم
افتتان الماضى القريب ؛ لكأن هذا الحلم القبيح وجميع
تلك الانطباعات التى خلفها فى نفسى ، عزيزة عندى الى
حد أخشى معه كل اتصال ، مخافة أن تتبدد دخانا !
أفأكون اذن حريصا على هذا كله هذا الحرص الشديد كله ؟
نعم ، لا شك فى ذلك . ولعلنى سأظل أتذكره بعد
أربعين سنة . . .

هاأنا ذا أمسك بالقلم اذن . وعلى كل حال فان
جميع الأمور يمكن أن تسرد الآن سردا موجزا الى حد ما :
ذلك أن انطباعاتى ليست الآن كما كانت من قبل .

ولتبدأ أولا بالكلام على الجدة فنفرغ منها . لقد خسرت
فى اليوم التالى كل شيء . وكان لا بد أن يحدث ذلك :

فان من يسير مثلها فى هذه الطريق ينحدر بسرعة ما تنفك تزداد ، كأنه يتدحرج على زلاقة من قمة جبل تغطيه الثلوج . لقد ظلت تقامر طوال النهار حتى الساعة الثامنة من المساء . ولم أشهد أنا ذلك ، وانما روى لى .

كان بوتابتش يصحبها خفيرا لها فى الكازينو من أول النهار الى آخره . والبولونيان اللذان كانا يوجهانها قد حل كل منهما محل الآخر عدة مرات . لقد بدأت بطرد البولونى الذى وجهها فى الليلة البارحة والذى شدت شعره ؛ طردته وأحلت محله بولونيا آخر . ولكن البولونى الثانى كان اسوأ من صاحبه تقريبا ، فما لبثت أن طردته ، واستعادت الأول الذى لم يبارح المكان ، بل ظل يحوم وراء كرسيها بعد فقدانه حظوتها ، ماداً رأسه فى كل لحظة من فوق كتفها . وأصبحت الجدة آخر الأمر فى حالة يأس كامل . والبولونى الثانى لم يشأ هو أيضا أن يغادر المكان : فاستقر احد الرجلين على يمين الجدة ، واستقر الثانى على يسارها . وكانا لا ينفكان يتشاجران ويتشاتمان لاختلافهما فى الرأى حول المبالغ التى يجب حطها والمواضع التى يجب حطها فيها ، فهما يتراشقان السباب ، وينعت كل منهما صاحبه بأنه وغد حقير ، ويصفه بصفات جميلة أخرى مما تجرى به السنة البولونيين ؛ ثم يتصالحان ، ويرميان المال ذات اليمين وذات الشمال على كل حال ودون اى نظام . وكانا اذا اختصما حط كل واحد منهما مبلغا فى موضع ، فهذا يحط على الأحمر مثلا ، وذاك يحط على الأسود . وقد بلغا من تضليل الجدة أنها توصلت الى قيم عجوز ، والدموع

تكداد تترقق فى عينيهما ، أن يحميها من هذين الرجلين فيطردهما . وذلك ما تم فورا ، رغم صراخهما ورغم احتجاجهما ، فقد أخذوا كلاهما يرغيان ويزبدان معاً مدعين أن الجدة مدينة لهما بمال ، وأنها خدعتهما وغشتهما ، وأنها عاملتهما معاملة غير شريفة دنيئة . قص على بوتابتش هذا كله فى ذلك المساء نفسه بعد الخسارة والدموع فى عينيه ، قائلا انهما قد ملئا جيوبهما بالمال ، وانه رأهما بعينه يختلسان المال جهارا بغير حياء فيحشوان به جيوبهما . وكان من أعمالهما مثلا أن يطلب أحدهما من الجدة خمسة فردريكات أجرا له ، ثم يحط هذا المبلغ الى جانب المبلغ الذى يحطه للجدة على موضع ما من المائدة ، فاذا ربحت الجدة صاح يقول انه هو الذى ربح ، وانها هى التى خسرت . فلما ضاقت ذرعا بهما فتم طردهما تدخل بوتابتش قائلا ان جيوبهما ملأى ذهباً . فأسرعت الجدة تطلب الى القيم أن يتخذ الاجراءات اللازمة ، وما هى الا لحظة اذا بالشرطة تظهر ، فتفرغ جيوبهما على الفور رغم عياطهما (وكأنهما ديكان امسكوا بهما) ، وترد المال الى الجدة . ان الجدة كانت تتمتع بمهابة واحترام لدى القيمين ولدى ادارة الكازينو خلال هذا اليوم كله ، ما بقى معها مال . وقد ذاع صيتها فى المدينة كلها شيئا بعد شىء . وصار الناس الذين يأتون الى مصائف المياه المعدنية من جميع البلاد ، أبسطهم وأشهرهم على السواء ، يهرعون الى الكازينو ليروا “une vieille comtesse russe, tombée en enfance”

وخسرت على مائدة الروليت «عدة ملايين»

ولكن الجدة لم يجدها تخلصها من البولونيين الا قليلا جدا جدا . فما ان طرد البولونيان حتى ظهر ثالث يعرض عليها خدماته . وكان هذا الثالث يجيد الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، ويرتدى من الملابس ما يرتديه سراة القوم ، رغم أنه أشبه بخادم وله شوارب كبيرة وغرور كبير . كان هو أيضا يقبل «آثار خطوات» السيدة «ويزحف على قدميها» ، ولكنه يعامل سائر من حوله في غطرسة ، ويأمر كما يأمر طاغية مستبد ؛ أى كان يصطنع لا وضع الخادم للجدة بل وضع الوصى عليها . وكان يلتفت اليها ، عند كل حطة ، فيحلف لها بأغلظ الايمان أنه سيد «أنوف» وأنه لن يأخذ منها كوييكا واحدا . وبلغ من تكرار هذه الأيمان أن الجدة أصبحت تخشاه حقا . ولكن لما كان هذا السيد قد بدا في أول الأمر أنه يصحح لعبها ، ولما كان قد أخذ يربح ، فان الجدة نفسها لم تعزم أمرها على التخلص منه . وبعد ساعة واحدة عاد البولونيان اللذان طردا من الكازينو ، فظهرا وراء كرسى الجدة ، يعرضان عليها خدماتهما من جديد ، بل ويعرضان عليها أن يكونا تحت أمرها . وقد حلف لى بوتابتش أن هذا «السيد الأنوف» قد تبادل معهما غمزات ، بل وأنه أعطاهما شيئا ما خلسة . واذا كانت الجدة لم تتناول غداءها ولم تكذب تبارح كرسيتها ، فقد استطاع أحد البولونيين أن يفيدها فعلا . فها هو ذا يهرع الى مطعم الكازينو فيأتيها بفنجان من المرق أولا ، وبشئ من الشاي بعد ذلك . والحق أن البولونيين كليهما كانا يسعيان فى هذا . ولكن فى آخر النهار ، حين استطاع

جميع الناس أن يدركوا أنها تخسر آخر ورقة مالية تملكها ،
كان ستة بولونيين يقفون وراء كرسيها ، لم يسبق أن رأهم
أحد قبل ذلك قط . فلما راحت الجدة تخسر آخر نقودها
أصبحوا لا يطيعونها ، بل أصبحوا لا ينتبهون إليها البتة ،
فهم يميلون على مائدة القمار من فوق كتفيها ، يلمون المال ،
ويصدرون الأوامر ، ويحطون المبالغ ، ويتشاجرون ، ويصيحون ،
ويخاطبون السيد الأنوف بلا كلفة . أما هذا السيد الأنوف
فقد نسى تقريبا حتى وجود الجدة . وحين خسرت الجدة
كل شيء تماما ، ومضت عائدة الى الفندق في نحو الساعة
الثامنة من المساء ، كان هناك ثلاثة أو أربعة بولونيين لم
يستطيعوا أن يقرروا تركها ، فهم يتراخضون حول كرسيها
صائحين منادين ، يرددون جهارا سريعا أن الجدة قد خدعتهم ،
وأنها مدينة لهم بشيء ما . على هذا النحو وصلوا جميعا
الى الفندق ، وهناك فى الفندق طرد البولونيون دفعا .
لقد خسرت الجدة فى ذلك اليوم ، اذا صدقت
حسابات بوتابتش ، حوالى تسعين ألف روبل ، عدا ما
خسرتة فى الليلة البارحة . لقد أبدلت جميع ما كانت تملكه
من أوراق مالية : سندات على الدولة بفائدة خمسة فى
المائة وسندات القروض الداخلية وجميع الأسهم التى كانت
معها واحدا بعد آخر . أدهشنى أن الجدة استطاعت أن
تظل خلال هذه الساعات السبع أو الثمانى ، قابعة فى
كرسيها لا تكاد تترك مائدة القمار لحظة ، ولكن بوتابتش
روى لى أنها قد أخذت فعلا ، خلال مرتين أو ثلاث
مرات ، تجنى أرباحا ضخمة ، فقوى ذلك عزيمتها وشحذ

آمالها ، فلم تملك أن تنصرف . على أن المقامرين يعرفون أن في امكان المقامر أن يمكث في مكانه أربعاً وعشرين ساعة تقريبا ، حاملا اوراق اللعب بيديه ، لا يلتفت ببصره يسرة ولا يمينة .

وفي اثناء ذلك اليوم ، كانت تقع أحداث حاسمة أيضا في فندقنا . ففي الصباح ، قبل الساعة الحادية عشرة ، بينما كانت الجدة ما تزال في مسكنها ، اتفقت كلمة أصحابنا على أن يقوموا بمسعى أخير يحسم الأمر (ذلك كان رأى الجنرال ودى جريو) . لقد علموا أن الجدة لا تفكر حتى في السفر بل تتوجه من جديد الى الكازينو ، فجاءوا اليها جماعة (باستثناء بولينا) يحدثونها في الأمر حديثا جازما نهائيا بل و صريحا . وكان الجنرال يرتجف وبنهار حين يتصور العواقب الرهيبة التي ستصيبه هو من جراء سلوك الجدة هذا ، فلم يملك أن يمتنع عن أن يعنف لها القول : فبعد أن ظل مدة نصف ساعة يقدم لها الرجاء تلو الرجاء ، والضراعة تلو الضراعة ، بل وبعد أن اعترف لها صراحة بهيامه بـ m-lle Blanche (كان قد طاش صوابه تماما) لم يلبث أن اتخذ لهجة التهديد والوعيد على حين فجأة ، بل طفق يصيح ويصرخ ويضرب الأرض بقدمه ، ويصبح قائلا ان الجدة تلتطخ شرف الأسرة كلها ، وانها أصبحت فضيحة في المدينة بأسرها ، ثم انها أخيرا . . «توسخ اسم الروس» . وهتف يقول خاتما كلامه : «يا سيدتى ، ان لهذا الأمر شرطة تمنعه !» فما كان من الجدة الا أن تطرده من عندها طردا بالعصا (بالعصا الحقيقية) .

وقد تباحث الجنرال ودى جريو مرة أخرى أو مرتين آخرين في ذلك الضحى نفسه ، فكانا يتساءلان خاصة : ألا يستطيعان أن يستطيعان أن يستنجدا بالشرطة فعلا ؟ ألا يستطيعان أن يقولوا للشرطة ان هناك امرأة مسكينة ، لكنها سيدة عجوز محترمة ، قد فقدت صوابها ، فهي بسبيل تبديد ثروتها الاخيرة فى القمار ، الخ ، فهلا يمكن أن تردع أو أن تمنع بطريقة من الطرق ؟ ولكن دى جريو لم يلبث أن رفع كتفيه هازئا ، وانفجر ضاحكا أمام أنف الجنرال ، فأخذ الجنرال وقد نفدت حججه وأسقط فى يده ، يذرع حجرته جيئة وذهابا . وأخيرا حرك دى جريو يده بحركة احتقار ، ثم انصرف ولم يظهر بعد ذلك قط . وعلم فى المساء أنه قد غادر الفندق الى غير رجعة بعد حديث حاسم سرى جرى بينه وبين m-lle Blanche . أما m-lle Blanche فقد اتخذت اجراءات قاطعة منذ الصباح : فأبعدت الجنرال اباعادا قاطعا ، وأصبحت لا تسمح له حتى أن يوجد حيث توجد عرضا . وحين جرى الجنرال وواءها الى الكازينو ، فصادفها متأبطة ذراع الأمير الصغير ، لم تعرفه لا هى ولا m-me veuve Cominges ؛ ولا حيَّاه الأمير القصير . وقضت m-lle Blanche النهار كله تسبر غور الأمير وتجسس نبضه وتداوره بشتى الوسائل بغية أن يصرح لها آخر الأمر بشيء جازم . ولكن حساباتها الخاصة بالأمير كانت خاطئة خطأ صاعقا وا أسفاه ! وقد وقعت هذه الكارثة الصغيرة عند المساء ، حين اكتشف فجأة أن الأمير فقير فقر أيوب ، حتى أنه كان يعول على أن يقترض منها مالا

مقابل سند منه ليقامر في الروليت . فطردته Blanche
 مستاءة ، وجبست نفسها في غرفتها لا تبارحها .
 وفي صباح ذلك اليوم نفسه ذهبت الى مستر آستلي ،
 او قل اننى ظلمت أبحث عنه طول الصباح دون أن أعثر
 له على أثر . لم يكن في منزله ، ولا في الكازينو ، ولا
 في الحديقة . ولم يتناول طعام الغداء في الفندق هذه
 المرة . وبعد الساعة الرابعة بعد الظهر لمحتة على حين فجأة
 عائدا من محطة القطار الى فندق d'Angleterre .
 وكان يحث الخطى ويبدو مهموما ، رغم أن من الصعب
 على المرء أن يرى في وجهه شيئا مما يشغل باله أو أى
 نوع من الاضطراب مدّ الى يده مصافحا فى مودة ،
 مطلقا صيحته المألوفة «ها !» ، ولكنه لم يتوقف بل تابع
 سيره بخطى سريعة . فلحقت به ، ولكنه عرف كيف
 يجينى بما لا يدع مجالا لأى سؤال ألقيه عليه . يضاف
 الى ذلك أننى كنت أشعر بجرح رهيب من أن أدير الحديث
 على بولينا ؛ ولم يسأل هو عنها بكلمة . حكيت له ما
 وقع للجدة ، فكان يصغى الى كلامى فى جد وانتباه ،
 ثم لم يلبث أن هز كتفيه
 قلت :

— ستخسر كل شيء .

فأجاب :

— أوه ، طبعا . حين سافرتُ أنا كانت قد ذهبت
 الى الكازينو لتقامر ، وكنت على يقين من أنها ستخسر .
 ولسوف أمضى الى الكازينو اذا اتسع وقتى ، لأرى الأمور

بنفسى ، فان هذا لطريف شائق . .

— الى أين سافرت ؟

كذلك هتفت مدهوشا من أننى لما أطرح عليه ذلك

السؤال بعد . فقال :

— الى فرانكفورت

— لأعمال ؟

— نعم . لأعمال .

عَمَّ كنت أستطيع أن أسأله زيادة على ذلك ؟ ثم

اننى كنت أحاذيه فى السير ، فاذا هو يتجه فجأة نحو

فندق ^(١) "De quatre saisons" الذى كان فى الطريق ،

فحيانى مودعا بحركة من رأسه ، واختفى . وفيما كنت

عائدا الى مسكنى وصلت شيئا فشيئا الى يقين كامل بأننى

لو لبثت أكلمه ساعتين لما استطعت أن أعرف منه شيئا

البتة ، لأننى . . . لم أكن أملك سؤالا ألقيه عليه ! نعم ،

كذلك كان الأمر حتما ! فانى ما كنت لأستطيع أن أصوغ

سؤالى .

وقد ظلت بولينا تنتره فى الحديقة طول النهار مع

الأطفال والخادمة ، أو تمكث فى منزلها . كانت قد أخذت

منذ فترة طويلة تتهرب من لقاء الجنرال ، ولا تكاد تكلمه ،

أو لا تكاد تكلمه فى أمور جدية على أقل تقدير . كنت

قد لاحظت ذلك منذ مدة . لكننى ، وقد عرفت كيف

كان وضع الجنرال فى ذلك اليوم ، قدرت أنه لم يستطع

(١) «الفصول الاربعة» (بالفرنسية فى الأصل)

الا أن يلقي بولينا ، أى لا بد أن يكون قد قام بينهما حديث تناول أمورا عائلية هامة . ومع ذلك فأننى حين كنت عائدا الى الفندق بعد المحادثة التى جرت بينى وبين مستر آستلى ، قد التقيت ببولينا والأطفال ، فرأيت فى وجهها معانى الهدوء الاقصى ، كأن تلك الزواج العائلية كلها لم تتجنب أحدا سواها . حتى اذا حبيتها ردت التحية بحركة من رأسها . وصعدت الى غرفتى مهتاجا أشد الالتهياج . كنت أتحاشى أن أكلمها طبعاً ، ولم ألتق بها مرة واحدة منذ حادثتى مع أسرة فورمرهلم . حينذاك كنت أغتر بنفسى وأتصنع بعض الشيء . ولكن الحق كان يزداد غليانا فى نفسى بمرور الزمن : هبها لا تحبنى البتة ، ان هذا لا يجيز لها أن تدوس عواطفى على هذا النحو ، ولا أن تقابل اعترافى بمثل هذا الاحتقار . انها تعلم أننى أحبها حقاً ؛ وقد تسامحت فأذنت لى أن أكلمها على هذه الصورة ! صحيح أن الأمر بدأ بيننا بداية غريبة ؛ كنت قد لاحظت منذ زمن (زمن أصبح منذ الآن بعيداً ، فقد انقضى عليه شهران) أنها تريد أن تتخذنى صديقاً ، وأن تجعلنى نجيتها وموضع سرها . حتى لقد قامت بمحاولات فى هذا السبيل . ولكن الأمر لم ينجح ، فاحتفظنا بهذه الصلات الغريبة الحالية . وبسبب هذا انما بدأت أكلمها على هذه الصورة . ولكن اذا كان حبسى قد ساءها ، فلماذا لم تمنعنى من أن أكلمها فيه منعا باتاً ؟

انها لم تفعل شيئاً من ذلك ، حتى لقد كانت فى بعض الأحيان تحضنى على الكلام . . لتسخر منى طبعاً .

أنا واثق من هذا . لقد شعرت به : كان يتمتعها ويحلو لها ، بعد أن تصغى اليّ وتستثيرني الى حد العذاب ، أن تلبلني فجأة بعلامة صارخة تنبئ عن احتقار أو تدل على قلة الاكتراث . وهى تعلم مع ذلك أننى لا أستطيع أن أحيأ بدونها . ها قد انقضت اذن أيام ثلاثة على حادثتى مع البارون ، وها أنا ذا أصبحت منذ الآن لا أستطيع احتمال فراقنا . وحين صادفتها منذ هنيهة قرب الكازينو ، بلغ قلبى من شدة الخفقان أن وجهى امتقع لونه . وهى أيضا لا تستطيع أن تعيش بدونى ! انها فى حاجة اليّ . . . فهل يمكن أن تكون حاجتها اليّ كحاجتها الى مهرج مثل بالاكيريف * فحسب ؟

ان لها سرا . . هذا واضح ! ان حديثها مع الجدة قد طعن قلبى طعنا . ذلك أننى طلبت اليها ألف مرة أن تكون صريحة صادقة معى ، وهى تعلم أننى مستعد فعلا لأن أضحي بحياتى فى سبيلها . ولكنها أبعدتنى دائما بما يشبه الاحتقار والازدراء ، أو طلبت اليّ ، بدلا من التضحية بحياتى فى سبيلها ، أن أقوم بأعمال شاذة ، مثل تحرشى ذلك بالبارون ! أليس هذا أمرا مثيرا ؟ هل يمكن أن يكون ذلك الفرنسى كل شىء عندها ؟ ومستر آستلى ؟ هنا تستعصى القضية على الفهم ، ما فى ذلك ريب . . ومع ذلك فما أشد ما كنت أقاتس من عذاب يا رب !

حين وصلت الى غرفتى رأيتنى وقد استبد بى الحق والغيظ أمسك بالقلم وأخط لها هذه الأسطر :

«بولينا ألكسندروفنا ! اننى أرى بكل وضوح اقتراب

الخاتمة . ولا شك في أنها ستناولك أنت أيضا . لذلك أعود فأكرر لك للمرة الأخيرة هذا السؤال : أنت في حاجة الى حياتي ؟ اذا كان في وسعي أن أكون مفيداً لك في أى أمر من الأمور ، فتصرفي بي كما تشائين . أنا الآن في غرفتي ، أمكث فيها أكثر الأوقات ، ولا أبارحها الى أى مكان . فاذا احتجت الىّ ، فاكبى لى أو استدعيني» .

غلقت الرسالة ، وأمرت خادم الطابق أن يمضى بها الى بولينا ، فيسلمها اياها يدا بيد . ولم أكن أتوقع جوابا ، ولكن الخادم جاءنى بعد ثلاث دقائق يقول انها «تبعث الىّ بتحياتها» .

وفي نحو الساعة السابعة من المساء . استدعانى الجنرال . كان في حجرته مرتديا ملابسه كمن يتهبأ للخروج . وكانت قبعته وعصاه على الديوان . فلما دخلت عليه بدا لى واقفا في وسط الغرفة مابعدا ما بين ساقيه ، خافضا رأسه ، يكلم نفسه . فما ان رآنى حتى ارتمى نحوى وهو يوشك أن يصرخ ، فاذا أنا أترجع خطوة الى وراء ، على غير ارادة منى ، وأهم أن أولى هاربا ، ولكنه أمسك بكلتا يديّ ، وجذبني نحو الديوان ، فقعده عليه وأقعدنى على كرسى أمامه ، وراح يقول لى بصوت متوسل متضرع ، دون أن تطلق يده سراحى ، وقد أخذت شفتاه ترتجفان ، بينما الدموع تتلأأ على رموشه :

— ألكسى ايفانوفتش ، انقذنى ، انقذنى ، ارحمنى !
لبثت برهة طويلة لا أستطيع أن أفهم شيئا . كان يتكلم بلا توقف ، ويكرر فى كل لحظة قوله : «ارحمنى ،

ارحمنى !» وقدرت أخيرا أنه يطلب منى شيئا يشبه أن يكون نصحا ، أو قل انه وقد هجره الجميع وداهمه الغم واستبد به القلق ، تذكرنى فاستدعانى لا لشيء الا أن يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم .

ولكنه كان قد فقد عقله ، أو طاش صوابه تماما فى أقل تقدير . فما هو ذا يضم يديه احديهما الى الأخرى متضرعا ، ويوشك أن يرتدى على ركبتى راجيا (هل فى وسعكم أن تحزروا ما عسى أن يكون رجاؤه ؟) أن امضى فورا الى m-lle Blanche ، فأبتهل اليها وأحضها على أن تعود اليه فتتروجه .
هتفت أقول :

— اسمح لى يا جنرال ! لعل mademoiselle Blanche

لما تلاحظ وجودى بعد . فماذا أستطيع أن أفعل ؟
كان عبثا أن أحتج وأن أتعلل . فانه لم يكن يفهم شيئا مما يقال له . وطفق يفيض فى الكلام على الجدة أيضا ، فيقول عبارات مفككة غير منسجمة ، ولا يعدل بعد عن فكرة اللجوء الى الشرطة .
أخذ يقول وهو يغلى حنقا على حين فجأة :

— فى بلادنا . . فى بلادنا . . اقصد فى بلادنا . .
فى دولة منظمة لها سلطات مسئولة ، توضع أمثال هذه العجائز تحت الوصاية على الفور !
وأضاف بغتة بلهجة التائب وهو ينهض من مكانه على حين فجأة ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويخاطب شخصا خياليا فى ركن من الأركان :

— نعم أيها السيد العزيز.. انك لم تكن تعرف هذا..
فاعلم اذن أن الأمر كذلك.. نعم.. في بلادنا يحجر
على العجائز اللواتي من هذا النوع ، يحجر عليهن . نعم
أيها السيد . آه .. يا للعتة !

وارتمى على الديوان من جديد ؛ وبعد لحظة ، أخذ
يقص على مسرعا لاهثا يكاد ينشج ويختنق ، كيف أن
m-lle Blanche لا تريد أن تتزوجه لأن الجدة هي
التي وصلت بدلا من البرقية ، ولأنه أصبح واضحا الآن
أنه لن يرث . كان الجنرال يظن أنني لما أطلع على شيء
من ذلك بعد . فأردت أن أتكلم عن دى جريو ، ولكنه
أوقفنى عن الكلام بإشارة منه قائلا :

— سافر ! وقد رهنت جميع أملاكى لديه ، فأنا
الآن عريان عرى دودة ! ان ذلك المال الذى جئتني به ..
ذلك المال .. ولا أدري كم بقى منه على كل حال ..
أظن أنه سبعمائة فرنك .. هو كل ما بقى لى ، وخلاص ،
أما الآن فلا أدري ، لا أدري ! ..
صحت مدعورا :

— ومن أين ستدفع أجور الفندق ؟ ثم .. بعد ذلك ؟
فنظر الى نظرة شاردة ، ولكن كان واضحا أنه لم
يفهم شيئا ، بل ولا سمع شيئا . وحاولت ان أجبل الكلام
حول بولينا ألكسندروفنا وحول الصغار ، فأسرع يقول «نعم
نعم !» ، ولكنه لم يلبث أن طفق يتحدث عن الأمير
الذى ستسافر معه Blanche.. وعندئذ .. عندئذ ..
قال وهو يلتفت فجأة نحوى :

— وعندئذ ما الذى سأصير اليه يا الكسى ايفانوفتش ؟
ما الذى سأصير اليه ؟ يا رب يا رب . . قل لى يا ألكسى
ايفانوفتش : هذا جحود . ألا ترى أن هذا جحود ؟
وظفق يبيكى آخر الأمر بدموع سخينة .
لم يكن ثمة ما يصنعه المرء لرجل فى مثل حاله .
ثم ان تركه وحيدا لا يخلو من خطر كذلك : فقد يقع
له شيء ما . وعلى كل حال فقد تخلصت منه بطريقة
من الطرق ، لكننى قلت للمربية أن تجيء اليه من حين
الى حين لترى كيف حاله . وكلمت خادم الطابق عدا ذلك ،
وهو فتى ذكى جدا ، فوعدنى أن يكون يقظا هو أيضا .
ما كدت أترك الجنرال حتى جاءنى بوتابتش يرجونى
أن أوافى الجدة . كانت الساعة قد بلغت الثامنة ، وكانت
الجدة قد عادت من الكازينو منذ برهة قصيرة ، بعد خسارتها
المطلقة . نزلت الى الجدة . كانت السيدة العجوز قاعدة
فى كرسيها مهدودة القوى مرهقة ، وكان واضحا أنها مريضة .
ناولتها مارفا قدحا من الشاى حملتها على احتسائه بما يشبه
القسر . وكان صوت الجدة وكانت لهجتها قد تغيرا تغيرا
واضحا .

قالت لى وهى تحنى رأسها ببطء ووقار :

— نعمت يوما يا ألكسى ايفانوفتش ، يا عزيزى .
اغفر لى ازعاجى اياك مرة أخرى ، وما أحسب الا أنك
مسامح امرأة عجوزا تقدمت بها السن . لقد خلفت كل
شئ هنالك يا صديقى ، لقد خسرت قرابة مائة ألف
روبل . كنت على حق حين رفضت أن تصحبنى أمس .

والآن ليس معى شىء البتة ، ليس معى كوبيك . ولا أحب أن ألبث هنا لحظة واحدة . يجب أن أسافر فى الساعة التاسعة والنصف . لذلك استدعيت صاحبك الانجليزى : اسمه مستر آستلى فيما أظن . أريد أن أقترض منه ثلاثة آلاف فرنك أردھا اليه بعد أسبوع . فقل له أن لا يظن بى سوءا ، وأن لا يرفض اقراضى هذا المبلغ . لا أزال مع ذلك على جانب من الغنى يا عزيزى . اننى أملك ثلاث قرى ودارين ، وما يزال عندى مال ، فاننى لم أحمل الى هنا كل ما أملك من مال . أقول لك ذلك حتى لا يتريب صاحبك فى شىء... ها .. ها هو ذا قد وصل ! واضح أنه رجل شهم .

لقد هرع مستر آستلى يلبى نداء الجدة . ولم يلبث أن نقدها ثلاثة آلاف فرنك بغير تردد وبغير كلام نافل ؛ ووقعت له الجدة سندا بالمبلغ فأخذه . ثم حيا وانصرف . — والآن دعنى يا ألكسى ايفانوفتش . لم يبق لى من الوقت الا ساعة وبعض ساعة . سأستلقى على فراشى لحظة ، فان عظامى تؤلمنى . لا تؤاخذنى ، فما أنا الا عجوز بلهاء . لن أتهم الشبان بعد اليوم بالخفة . بل اننى لأتخرج الآن من لوم صاحبك الجنرال المسكين . ولكنى لن أعطيه شيئا من مال ولن ألبى رغبته ، فهو فى رأبى مغفل كبير . أما أنا فبلهاء عجوز لا أملك من الذكاء أكثر مما يملك هو . ان الله يقتص من المغترين عاجلا أو آجلا . هيا ، وداعا . انهضينى يا مارفا . ومع ذلك كنت أنوى أن أودع الجدة . وعدا ذلك

كنت في الوقت نفسه أتوقع حدوث شيء ما . كان يخيل
اليّ أن هناك أمرا سيقع بين لحظة وأخرى . لم أستطع
أن أمكث في غرفتي . فخرجت الى الدهليز عدة مرات
وحتى مضيت الى طريق اشجار الكستناء منتزها بعض الوقت .
لقد كانت رسالتي الى بولينا واضحة قاطعة ، وكانت الكارثة
الراهنة حاسمة من غير شك . لقد سمعت في الفندق أن
دى جريو سافر . الخلاصة : اذا كانت بولينا ستفرضني
صديقا ، فقد تقبلني خادما ، لأنها في حاجة اليّ ،
ولو لترسلني لاداء مهامها . نعم هي في حاجة اليّ ، ذلك
واضح !

حين أرفت لحظة رحيل الجدة هرعت الى المحطة ،
فأركبتها القطار ؛ وكانوا جميعهم قد اتخذوا أماكنهم في
عربة عائلية خاصة .

قالت لي الجدة وهي تودعني :

— أشكر لك مسيرتك المنزهة عن الغرض يا صديقي ؛
كرر لبراسكوفيا ما قلته لها أمس . لسوف أنتظرها .
وعدت أدراجي قاصدا غرفتي . فلما مررت قرب شقة
الجنرال التقيت بالمربية ، فسألتها عن حال سيدها .
فأجابتنى حزينة :

— لا بأس يا سيدي الطيب ..

ودخلت مع ذلك . ولكنني لم ألبث أن تسمرت
عند باب مكتبه مذهولا . كان الجنرال و m-Ile Blanche
يضحكان مقهقهين . وكانت veuve Cominges موجودة
معهما ، جالسة على الأريكة . كان واضحا أن الجنرال

قد جن عقله فرحا ، فهو يتدفق في الكلام سخافات وترهات
من كل نوع ، وهو يصاب بنوبات من المرح العصبى
والضحك المتواصل تحدد وجهه بغضون صغيرة عديدة ،

وتخفى عينيه علمت فيما بعد ، من Blanche
نفسها ، أنها ، بعد أن طردت الأمير وعلمت بما آلت
اليه حالة الجنرال من حزن وقنوط ، أرادت أن تعزبه فجاءت
تزوّه زيارة قصيرة . ولكن الجنرال المسكين كان يجهل

أن مصيره قد تقرر في تلك اللحظة ، وأن Blanche
كانت قد أخذت تعد حقائقها وتحزم أمتعتها ، لتسافر في
اليوم التالى الى باريس على قطار الصباح الأول

لبثت لحظة عند عتبة حجرة الجنرال ، ثم عدلت
عن الدخول ، فانصرفت منسلا لم يلمحنى أحد . وصعدت
الى غرفتى . فلما فتحت الباب لمحت فى شبه ظلمة
الغرفة قامة جالسة على كرسى فى ركن قرب النافذة ، فلم
تنهض عند دخولى ، فأسرعت أقترب ، ونظرت . . فانقطعت
أنفاسى : انها بولينيا !





الفصل الرابع عشر

أفلت منى صرخة
فسألتنى بصوت غريب :
— ما بك ؟ ماذا دهاك ؟
وكانت شاحبة اللون ، وتبدو قاتمة المزاج
— ما بى ؟ ماذا دهانى ؟ أنت ؟ أنت .. هنا ..
عندى !
— أنا اذا جئت جئت كلى . تلك عادتى . ولسوف
ترى ذلك توا . أشعل شمعة .

امتلتُ ، فنهضتُ واقتربت من المنضدة تضع أمامي رسالة مفوضه ، وتأمرنى أن أقرأها :
— اقرأ .

صحت وأنا أتناول الرسالة :

— هذا خط دى جريو !

كانت يداى ترتجفان ، وكانت الأسطر تتراقص أمام عيني . لقد نسيت الآن نصّ الرسالة بالضبط ، ولكن ها هي ذى الرسالة معنى معنى ان لم تكن كلمة كلمة :
« Mademoiselle » ، ان ظروفا حرجة تضطرنى الى السفر بغير ابطاء . ولقد لاحظت ، ولا شك ، أننى تحاشيت عامدا أن أتصارع تصارحا حاسما قبل أن يتضح كل شيء . ان وصول قريبتك السيدة العجوز (de la vieille dame) ، وكذلك سلوكها الأحمق قد أنهيا كل تردداتى . ان اضطراب شئونى الخاصة يمنعنى قطعاً من الاستمرار فى عقد تلك الآمال العذبة التى أذنت لنفسى أن أمنى بها نفسى زمنا . اننى آسف لما وقع ، ولكننى أرجو أن لا تجدى فى سلوكى ما يشين رجلا راقيا أو انسانا شريفا (gentilhomme et honnête homme).

اننى وقد أضعت مالى كله اقراضا لزوج أمك ، أجدنى مضطرا الى الحفاظ على ما بقى لى تصريفا لشئونى . وقد أبلغت أصدقائى ببطرسبرج أن يبادروا دون ابطاء الى بيع الأملاك المرهونة لدى . لكننى لعلمى بأن زوج أمك الطائش قد أتلف ثروتك كلها ، قررت أن أعفيه من خمسين ألف فرنك ، فأرد إليه ما يساوى هذا المبلغ جزءا من صكوك

الرهن . وبذلك يكون في وسعك أن تستردى كل ما فقدت
باللجوء الى القضاء مطالبة برد أملكك اليك . ارجو ، يا
mademoiselle ، أن تكون هذه البادرة منى مفيدة
لك في الظروف التي تلابس أحوالك الآن ؛ كما أرجو أن
أكون بهذه البادرة قد قمت بالواجبات التي تجب على رجل
شريف ونبيل . وثقى أن ذكراك ستظل منقوشة في قلبي
الى الأبد» .

قلت ملتفتا نحو بوليننا

— الأمر واضح .

ثم أردفت أقول حانقا مغتاظا :

— أكنت تتوقعين غير هذا حقا ؟

فأجابتنى بهدوء ظاهر ، وان بدا نوع من الارتجاف

في صوتها :

— لم أكن أتوقع شيئا . لقد رأيت فيه رأيسى منذ

زمن طويل : كنت أقرأ أفكاره وعرفت ما فيها . ظن أننى

أسعى الى . . . ظن اننى قد ألح على . . . (قالت ذلك ثم

توقفت فعضت على شفتها في وسط الجملة وصمت .)

وتابعت بعد لحظة تقول :

— لقد تعمدت أن أضعف احتقارى نحوه . وكنت

أنتظر ما عساه يفعل . ولو قد وصلت البرقية عن الميراث ،

اذن لقدفته في وجهه بالمال الذى يدين له به هذا الأبله

(زوج أمى) ، ولطردته بعدئذ شر طردة ! لقد أصبحت

منذ زمن طويل لا أطيق أن أراه ! آه . . . كان من قبل

رجلا آخر ، رجلا آخر تماما . . . أما الآن ! . . . فما أشد

ما سأشعر به من فرح عظيم لو أتيح لي أن أرمى له ،
في وجهه الكريه ، هذه الخمسين ألف فرنك ، وأن
أبصق . . . وأن أدعك البصقة !

— ولكن هذا الصك الذي يرد الخمسين ألفا هو
الآن بين يدي الجنرال ، فما عليك الا أن تأخذه وأن
ترديه الى دى جريو !

— أوه . . ليس الأمران سواء ! ليس الأمران سواء ! . .
قلت

— صحيح صحيح . ليس الأمران سواء ! ثم لأى
شء يصلح الجنرال الآن ؟
ثم رأيتنى أهتف على حين فجأة :
— والجدة ؟

فنظرت الى بولينا نظرة شاردة نافذة الصبر . ثم قالت
معتكرة المزاج :

— لماذا تسألنى عن الجددة ؟ اننى لا أستطيع أن
أذهب اليها . . .

ثم أضافت بصوت يفيض انزعاجا :

— ولا أريد أن أطلب من أحد غفرانا .
هتفت أقول :

— وما العمل ؟ ولكن قولى لي : كيف ، كيف
أمكنك أن تحبى دى جريو ؟ هذا وغد حقير ، هذا
وغد حقير ! هل تريدن أن أقتله بمبارزة ؟ أين هو الآن ؟
— فى فرانكفورت ، وسيمكث هنالك ثلاثة أيام .

قلت متحمسا تحمسا أهوج

— قولى كلمة واحدة فأذهب اليه غدا على أول قطار!
فأخذت تضحك ثم قالت :
— لعله سيقول لك : «ردوا اليّ الخمسين ألفا أولا .»
ولماذا تراه يرضى أن يبارز ؟ . . ما هذا الغباء !
فكررت أقول وأنا أصر بأسناني ، كأن من الممكن
فجأة أن نلم هذا المبلغ من الأرض :
— ولكن من أين اذن نأخذ هذه الخمسين ألف
فرنك ، من أين ؟
وراودتني فكرة غريبة فأردفت أسألها :
— اسمعى ! ومستر آستلى ؟
فأخذت عيناها تلتمعان ، ثم قالت وهي تحديق اليّ
بنظرة ناقبة مع ابتسامة مرة :
— أتريد أنت نفسك اذن أن أتركك من أجل هذا
الانجليزى ؟

وكانت هذه أول مرة تخاطبني فيها بصيغة المفرد .
ولا شك أن دوارا ألم بها في تلك اللحظة ، من
شدة الانفعال : فانها لم تلبث أن تهالكت على الديوان ،
كأنها مهدودة القوى منهكة
وشعرت كأن برقاً بهر بصرى . فتسمرت في مكاني
واقفا ، لا أصدق عيني ولا أصدق اذني ! هي اذن تحبني !
لقد جاءت اليّ أنا ، ولم تذهب اليّ مستر آستلى ! هي
الفتاة العذراء تجيء اليّ غرفتي بالفندق وحيدة مسيئة بذلك
الي سمعتها في رأى جميع الناس ! ولبثت متسمرًا في
مكاني أمامها لا أفهم !

ولمعت فى خاطرى فكرة مجنونة

قلت :

— بولينا ، امهلىنى ساعة واحدة ! انتظرى هنا ساعة واحدة فقط . . . أعود بعدها اليك ! هذا . . . لا بد منه ! لسوف ترين ! امكثى هنا ، امكثى هنا !
وخرجت من الغرفة راكضا دون أن أجيب على نظرتها الدهشة المستفهمة . وصاحت تقول لى شيئا ، ولكنى لم أرجع .

نعم ، رب خاطر هو أقرب الخواطر الى الجنون ، وأدائها الى الاستحالة ، يبلغ من قوة رسوخه فى الفكر أن المرء يخاله ممكن التحقيق ، حتى اذا كان هذا خاطر مرتبطا برغبة قوية ملتهبة جامحة اعتقد المرء أخيرا انه أمر حتمى ، ضرورى ، فرضه القدر ، أمر لا يمكن الا أن يكون ، ولا يمكن الا أن يحدث ! وربما كان ههنا شىء أكثر من ذلك : ربما كان ههنا مزيج من نبوءات يحسها المرء ، وجهد خارق تبذله الارادة ، وخيال سمم المرء به نفسه بنفسه ، وأشياء أخرى ايضا . . . لست أدرى . . . ولكنى فى ذلك المساء (فى ذلك المساء الذى لن أنساه ما حييت) وقعت لى مغامرة معجزة . ولئن كانت هذه المغامرة تفسر بالحساب ، فانها تظل فى نظرى حتى الآن معجزة . ولماذا ، لماذا كان هذا اليقين قد بلغ ذلك المبلغ من العمق والرسوخ فى نفسى ، منذ أمد طويل ؟ لقد كنت أفكر فيه (أعود فأكرر ذلك) لا تفكيرى فى احتمال جائز (ومن ثم غير مؤكد) ، بل كنت أفكر فيه تفكيرى فى شىء

لا يمكن الا أن يحدث !

كانت الساعة هي العاشرة والرابع . دخلت الى الكازينو ممثلا بأمل قوى ، وطافحا بانفعال قوى لا عهد لى بمثله من قبل . كان لا يزال فى قاعات القمار ناس ، وان يكن عددهم نصف عددهم فى الصباح .

وليس يبقى حول الموائد بعد الساعة العاشرة الا المقامرون حقا ، المقامرون المدمنون الذين لا يوجد فى مدن المياه المعدنية فى نظرهم الا الروليت . انهم لم يجيئوا الا من أجلها ، ولا يكادون يلاحظون شيئا مما يجرى حولهم ، ولا يعنون بشيء غيرها طوال الفصل . ليس لهم عمل الا أن يقامروا من الصباح الى المساء ، ولا شك أنهم مستعدون لأن يستمروا فى المقامرة الليل كله حتى مطلع الفجر لو كان ذلك فى الامكان . وهم لا يتفرون الا على مضض وحسرة ، حين يقفل الكازينو أبوابه عند منتصف الليل .

فاذا صاح أكبر القيمين ، قبيل اغلاق الكازينو، أى قبيل منتصف الليل ، يعلن : *"Les trois derniers coups, messieurs!"*^(١)

رأيتهم مستعدين فى بعض الأحيان أن يحطوا فى هذه الضربات الثلاث الأخيرة كل ما فى جيوبهم ؛ وفى تلك اللحظة انما تقع أضخم الخسارات فى الواقع . اتجهت نحو تلك المائدة نفسها التى كانت تقامر عليها الجدة . ولم يكن الزحام شديدا ، فسرعان ما استطعت أن أشغل مكانا قرب المائدة واقفا . وأمامى تماما ، على المائدة

(١) «ثلاث ضربات أخيرة أيها السادة !» (بالفرنسية فى الأصل) .

الخضراء ، كانت مكتوبة كلمة : "Passe" . ان "Passe" هذه هي سلسلة من الأرقام تمضى من ١٩ الى ٣٦ ؛ أما السلسلة الأولى فهي من ١ الى ١٨ ، وتسمى "Manque". ولكن هل يهمنى هذا كله ؟ اننى لم أكن أحسب ، ولا سمعت الرقم الأخير الذى ظهر . ولا سألت عنه حين بدأت اللعب ، كما يفعل أى لاعب مهما يكن قليل الاحتياط والحذر . أخرجت العشرين فردريكا وهى كل ما كنت أملكه من المال ورميتها على "passe".

صاح القيم :

— (١) Vingt deux!

لقد ربحت . وغامرت مرة أخرى بالمجموع أى بما حظته فى المرة الأولى مضافا اليه الربح نادى القيم :

— (٢) Trente et un!

ربحت أيضا ! أصبح معى اذن ثمانون فردريكا ! حططت المبلغ كله على الأرقام الاثنى عشر التى فى الوسط (الربح هنا مثلث ، ولكن اثنين من الاحتمالات معاكسة) . وأخذت الدائرة تدور ، فخرج الرقم ٢٤ ؛ فنُقدت ثلاث لقات من ذات الخمسين فردريكا ، وعشر قطع ذهبية . أصبحت أملك الآن مائتى فردريك اعترانى نوع من الحمى فدفعت بهذه الكدسة كلها

(١) اثنان وعشرون ! (بالفرنسية فى الأصل)

(٢) واحد وثلاثون ! (بالفرنسية فى الأصل)



من المال أحطها على الأحمر . . وثبت الى رشدى فجأة !
كانت تلك هى المرة الوحيدة أثناء ذلك المساء كله ،
أثناء اللعبة كلها ، التى جمدنى فيها الخوف حتى صرت
كالثلج ، فيداى وقداى ترتجفان . لقد أدركت مذعورا
هلعا فى ومضة من شعور ، ماذا كان يعنى الخسران عندى
فى هذه اللحظة ! لقد قامت بحياتى كلها !

صاح القيم :

Rouge!—

فردت الى روجى ، وأحسست كأن نملا محرقا يجرى
على جسمى كله . أعطيت أوراقا مالية . اذن ، أصبح
المبلغ الاجمالى أربعة آلاف فلورين وثمانين فردريكا (كنت
ما أزال أستطيع ان أحسب حينذاك) .

وبعد ذلك ، أذكر أنتى حططت ألفى فلورين على
الاثنى عشر رقما التى فى الوسط ، فخسرت ، ثم حططت
ما كان معى من ذهب بالاضافة الى الثمانين فردريكا
فخسرت أيضا . استبد بى غيظ شديد : فتناولت الألفى
فلورين التى بقيت لى فحططتها على الاثنى عشر رقما الأولى . .
حططتها هكذا . . على غير هدى ، على عماوة ، دون
حساب ! فكان ثمة لحظة انتظار ، وكان ثمة انفعال لعله
يشبه الانفعال الذى شعرت به * m-me Blanchard

حين هوت فى باريس من منطادها على الأرض .

هتف القيم :

Quatre! (١) —

(١) أربعة ا (بالفرنسية فى الأصل) .

أصبح المبلغ الاجمالي مع الربح السابق ، ستة آلاف فلورين من جديد . أصبحت منذ الآن اتخذ أوضاع الظافرين ، لا أهاب شيئا اطلاقا . رميت أربعة آلاف فلورين على الأسود . فسارع نحو تسعة أشخاص يحطون مثلى على الاسود . وتبادل القيمون النظرات وتكلموا فيما بينهم . ومن حولي كان الناس يتكلمون وينتظرون .

وظهر الأسود ، أصبحت منذ تلك اللحظة لا أتذكر المبلغ ولا تعاقب الحطات . كل ما أتذكره أنني كنت قد ربحت حوالي ستة عشر ألف فلورين ، وأنا فيما يشبه الحلم ؛ ثم اذا بثلاث ضربات شقية تخسرنى من ذلك المبلغ اثني عشر ألفا . فرأيتنى أضع الآلاف الأربعة الأخيرة على "passe" (ولكننى لم أشعر بشيء تقريبا فى تلك اللحظة ، وانما كنت أنتظر انتظارا آليا دون أن أفكر فى شيء) . فربحت من جديد ، ثم ربحت أيضا فى أربع ضربات متتالية . كل ما أذكره اننى كنت ألم النقود آلافا آلافا . وأذكر أيضا أن أرقام الوسط الاثنى عشر التى تشبث بها هى التى كانت تظهر فى أغلب الأحيان . كانت تظهر ، على نحو مطرد ، ثلاث مرات متتالية أو أربعا ثم تغيب دورتين لتعود الى الظهور بعد ذلك فى ثلاث مرات متتالية أو أربع . ان هذا الاطراد الذى يبعث على الدهشة يحدث فى فترات ، وذلك ما يبلبل المقامرین المدمنين الذين يحملون أقلاما ويجرون حسابات . أية سخريات رهيبية لا يظهرها الحظ هنا ؟

أظن أنه لم يكن قد انقضى على وصولى أكثر من نصف ساعة ، حين أعلن لى القيم فجأة أن أرباحى بلغت

ثلاثين ألف فلورين ، وأن الخزنة ليست مستولة عن أكثر من ذلك فى لعبة واحدة ، فلذلك ستعلق الروليت الى صباح الغد . أخذت ذهبى كله ، فحشوت به جيوبى ، ثم لمت جميع أوراقى النقدية وذهبت الى مائدة اخرى الى قاعة أخرى كان فيها روليت ثانية . فهرع الجمهور يلحق بى ، وسرعان ما أفسح لى هنالك مكان ، فاستأنفت أقامر خبط عشواء بغير حساب . لست أدرى ما الذى أنقذنى ! على أن فكرة الحساب كانت تراودنى من حين الى حين . كنت أتعلق ببعض الأرقام ، ببعض الاحتمالات ، ثم ما ألبث أن أهجرها ، وأعود ألعب على غير تفكير . لا شك أنى كنت فى حالة ذهول شديد . أذكر أن القيمين قد صححوا لعبى عدة مرات . فلقد كنت أرتكب أخطاء جسيمة . وهرع بولونيون يعرضون علىّ خدماتهم ، ولكننى لم أصغ الى أحد . كان صدغاي مبللين بالعرق ويداي ترتجفان . وكان الحظ حليفى ! وفجأة دوت من حولى صيحات وقهقهات . وأخذ الناس يهتفون «مرحى ، مرحى !» ، حتى أن بعضهم أخذ يصفق . لقد بلغت أرباحى ثلاثين ألف فلورين هنا ايضا ، وأغلقت الخزنة حتى صباح الغد ! — اذهب ، انصرف .

كذلك دمدم يقول لى رجل كان على يمينى . انه يهودى من فرانكفورت ، كان قد ظل الى جانبى طول الوقت ، وأظن أنه أعانى مرة أو مرتين فى اللعب . ووشوشنى صوت آخر فى أذنى اليسرى قائلا : — ناشدتك الله أن تذهب .

فألقيت نظرة سريعة على من وشوشنى : انها سيدة فى نحو الثلاثين من العمر ، ترتدى ملابس متواضعة لكنها لائقة ، ويبدو فى وجهها التعب وشحوب المرض ، ولكن الناظر اليها يدرك أنها كانت على جانب عظيم من جمال أخاذ . وكنت فى تلك اللحظة أحشو جيوبى بالأوراق النقدية مجعدا اياها ، وألم ما قد بقى على المائدة من ذهب ، فتناولت آخر لفعة من ذات الخمسين فردريكا ، واستطعت ، دون أن يلاحظنى أحد ، أن أدمها فى يد السيدة الشاحبة ؛ وكنت أريد جدا أن أفعل هذا فى ذلك الوقت ، وأتذكر أن أصابعها الرفيعة النحيقة ضغطت على يدى بقوة اعترافا بالجميل . ولم يستغرق هذا كله الا ثانية واحدة

حتى اذا فرغت من لمّ كل شيء ، أسرعرت أذهب الى مائدة trente et quarante .

ان مائدة trente et quarante يرتادها جمهور أرستقراطى . انها غير الروليت . انها ————— من ألعاب الورق . والخزنة هنالك تتحمل مائة ألف تالير دفعة واحدة . وأكبر حطة هى أربعة آلاف فلورين أيضا . كنت أجهل مجرى اللعب جهلا تاما ، ولا أكاد أعرف كيف أحط ، اللهم الا على الأحمر والأسود ، الموجودين هنا أيضا . لذلك تعلقت بهما . وتحلق الكازينو كله حولى . لا أذكر أن بولينا خطرت ببالي مرة واحدة فى تلك السهرة . كنت ، وأنا أمسك بالأوراق المالية التى تتكدس أمامى ، أشعر بلذة لا سبيل الى مقاومتها .

لكأن القدر كان يدفعني حقا . وفي هذه المرة ،
طراً ظرف ، كأنما عن عمد ، وان يكن يطرأ في القمار
أحيانا كثيرة . كان يتشبث الحظ بالأحمر مثلا فما يتركه
الا بعد عشر دورات أو خمس عشرة دورة . حتى لقد كنت
سمعت أول البارحة أن الأحمر ظهر في الأسبوع الماضي
اثنتين وعشرين مرة على التوالي . وذلك أمر لا يتذكر أحد
أنه وقع في الروليت مرة واحدة ، فكان الناس يتحدثون
عنه مدهوشين ومن الطبيعي أن اللاعبين ما يلبثون أن
يتركوا الأحمر ، فما من أحد يجرؤ أن يحط عليه بعد
أن يظهر عشر مرات متتالية مثلا . ولكن ما من مقامر خبير
يحط عندئذ على الأسود ، نقيضه . فان المقامر المجرب
يعرف ماذا تعني «نزوة الصدفة» ؛ فاذا ظهر الأحمر ست
عشرة مرة مثلا اعتقد اللاعبون أن الضربة السابعة عشرة
ستقع على الأسود حتما ؛ فاذا باللعبين الأغرار يترامون
على الأسود ، مضاعفين المبالغ مثنى وثلاث ، فيتكبدون
من ذلك خسائر فادحة .

أما أنا فقد بدا لي ، بنزوة غريبة ، بعد أن ظهر
الأحمر سبع مرات متتالية ، أن أتعلق به وأثبت عليه .
اننى مقتنع بأن للغرور دخلا في هذه النزوة ، فلقد كنت
أحب أن أبعث الدهشة في نفوس المشاهدين بمجازفة
هوجاء ؛ ولكننى (ألا انه لاحساس غريب !) ما زلت
أذكر بوضوح أن ظمأ هائلا الى المجازفة قد تملكنى على
حين فجأة دون أن يحضنى على ذلك شيء من الغرور .
لعل نفس الانسان ، بعد أن تعانى مثل هذا العدد الكبير

من الاحساسات ، لا تنتهي الى الشبع منها ، بل تحتاج وتطلب المزيد من احساسات جديدة ما تنفك تعنف ثم تعنف ، الى أن تصل الى درجة الانهاك . ولست أكذب حين أقول اننى كنت مستعدا للمجازفة بخمسين ألف فلورين حطة واحدة لو كان نظام اللعبة يسمح بذلك . وكان الناس من حولى يصيحون قائلين ان هذا جنون ، فقد ظهر الأحمر أربع عشرة مرة متتالية !

قال صوت مجهول بجانبى :

— Monsieur a gagné déjà cent mille florins. ^(١)

فلما سمعت كلامه صحت فجأة . كيف ؟ أربحت فى هذه السهرة مائة ألف فلورين ؟ ولكننى لست فى حاجة الى أكثر من ذلك ! وما لبثت أن تناولت الأوراق المالية بسرعة فدفستها فى جيبى فوضى على غير ترتيب ، ومن غير عد ، ثم لمت القطع الذهبية لفات لفات ، وأسرت أخرج من الكازينو . كان جميع الناس يضحكون وهم يروننى أجتاز القاعات منتفخ الجيوب مترنح الخطى من ثقل الذهب . أعتقد أن وزن الذهب الذى كنت أحمله يربو على نصف بود * . وامتدت الى بعض الأيدى ، فوزعت المال قبضات قبضات ، على قدر ما كانت تسع منه يدي . وأوقفنى يهوديان عند الباب ، فقالا لى :

— أنت متهور ، متهور جدا ! فسافر غدا ، غدا فى الصباح ، فى أبكر ساعة من الصباح ، والا فلسوف

^(١) ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين (بالفرنسية فى الأصل) .

تخسر كل شيء
لم أصغ اليهما . وكانت الظلمة في طريق أشجار
الكستناء من الشدة بحيث لم أكن أستطيع أن أميز يدي .
والمسافة بيني وبين الفندق نصف فرسخ تقريبا . وأنا امرؤ
ما خفت من اللصوص ولا من قطاع الطرق يوما ، منذ
أن كنت طفلا . فكذلك لم أفكر فيهم في تلك اللحظة
أيضا . ثم اننى لا أتذكر الآن فيم كنت أفكر أثناء الطريق .
كان رأسى خاليا . ولكننى كنت أشعر بلذة عنيفة قوية ،
هى لذة النجاح ، والانتصار ، والعزة . لا أدري كيف أعبر
لكم عما كان يختلج فى نفسى آنذاك . كان خيال بولينيا
يخطر أمام عيني ، ولم يغب عن بالى أننى كنت ذاهبا
اليها وسألتقى بها وسأقص عليها وسأعرض . . . ولكننى كنت
لا أكاد أتذكر ما قالته لى منذ قليل ، ولا السبب الذى
حملنى على الذهاب الى الكازينو ؛ ان جميع تلك الأحاسيس
الحديثة التى امتلأت بها نفسى منذ ما لا يزيد عن ساعة
ونصف ساعة ، أصبحت تبدو لى الآن متمية الى ماض
قد انقضى وصار عتيقا ومعدلا ، حتى لقد لا نلمع اليه
الماعا ، لأن كل شيء سيبدأ بداية جديدة . وفى نهاية
طريق أشجار الكستناء تقريبا انما استولى على الخوف .
قلت فى نفسى «ماذا لو قتلت الآن وسرق مالى ؟»
وأخذ ذعري يشتد خطوة بعد خطوة . فكنت أسير سيرا
هو بالركض أشبه . وفجأة ، عند نهاية طريق ، تلاتات
واجهت فندقنا على حين بغتة ، ساطعة بألف ضوء . الحمد
للّه لقد وصلت !

صعدت درجات السلم أربعا أربعا حتى وصلت الى
طابقى ، ففتحت الباب فجأة ؛ فاذا بولينا ما تزال هنالك ،
جالسة على ديوانى ، أمام شمعة مشتعلة ، ضامة يديها
احديهما الى الأخرى . نظرت الىّ فى ذهول ، فلا شك
ان وجهى كان فى تلك اللحظة غريبا . وقفت أمامها ،
وبدأت أن أرمى بالمال كله على المنضدة .





الفصل الخامس عشر

حدقت بوليننا الى وجهى باهتمام هائل كما اتذكر ،
دون أن تتحرك ، بل دون أن تغير وضعها . هتفت أقول
لها وأنا أخرج من جيوبى آخر لفة :
— ربحت مائتى ألف فرنك .

ان كومة كبيرة من الأوراق المالية ولفف النقود الذهبية
تغطى المنضدة كلها . كنت لا أستطيع أن أحول نظرى
عنها ؛ حتى لقد كنت فى بعض اللحظات أنسى وجود
بولينا . فآنا تارة آخذ أرتب كدسات الأوراق المالية واجمعها

كدسات كدسات ؛ وتارة أجمع القطع الذهبية على حدة ؛
وتارة اترك كل شيء وأطلق أذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى
سريعة غارقا في أفكارى أو أعود الى المنضدة فجأة أعد
مالى . وانى لفى ذلك ، اذا أنا أعود الى رشدى على
حين بغتة ، فأمضى الى الباب أقفله بالمفتاح دورتين ،
ثم أقف أمام حقيبتى الصغيرة حائرا مترددا .

— هل يجب أن أضع المال فى الحقيبة الى الغد ؟
سألت بولينا وانا التفت اليها فجأة متذكرا وجودها .
وكانت بولينا ما تزال جالسة فى مكانها نفسه لم
تتحرك ، ولكنها كانت لا تحول عنى بصرها . كان فى
وجهها تعبير غريب ساءنى أن أراه . ما أحسبني مخطئا
اذا قلت انه كان تعبيرا عن الكره والبغض .

فاقتربت منها مسرعا أقول :

— بولينا ، اليك خمسة وعشرين ألف فلورين . انها
تساوى خمسين ألف فرنك وتزيد . فخذها وارميها فى وجهه
غدا .

فلم تجب .

— اذا شئت حملتها اليه أنا فى صباح الغد . هل

تريدين ؟

فأخذت تضحك مقهقهة على حين فجأة . وظلت
تقهقه على هذه الحال برهة طويلة .

فكنت أنظر اليها بدهشة موجعة أليمة . ان هذا الضحك
يشبه كل الشبه ذلك الضحك الساخر الهازئ الذى كانت
تستقبل به أحيانا كثيرة فى الماضى القريب ما كنت أعلنه

لها من عواطف حبى اللاهب الجامح . وحبست ضحكها
أخيرا ، وقطبت ما بين حاجبيها ، ونظرت الى نظرة صارمة
من أدنى ، وقالت لى باحتقار :

— لن آخذ شيئا من مالك .

فصحت أقول :

— كيف هذا ؟ ماذا هنالك ؟ لم هذا يا بولينا ؟

— لا أقبل أخذ شيء من مال بلا مقابل .

— ولكننى أقدمه لك كصديق ؛ اننى أقدم لك حياتى

كلها .

فنظرت الى نظرة طويلة فاحصة ، كأنها تريد أن
تنفذ الى نفسى . قالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

— أنت تدفع سعرا غالبا . ان خليعة دى جريو لا

تستحق خمسين ألف فرنك

فهتفت أقول بلهجة العتب :

— بولينا ، كيف تستطيعين أن تكلمينى هكذا ؟

أنا لست دى جريو !

فصرخت تقول وقد أخذت عيناها تقدحان شررا :

— أنا اكرهك ! نعم . . نعم ! . . أنا لا أحبك

أكثر مما لا أحب دى جريو .

قالت ذلك . وأخفت وجهها فى يديها واعترتها نوبة

هستيرية ، فارتميت نحوها .

أدركت أن شيئا قد وقع لها أثناء غيابى ، فانها

لم تكن مالكة رشدها .

وانفجرت تقول من خلال النحيب والتشنج :

— هيا اشترنى ! هل تريد ؟ اشترنى بخمسين ألف
 فرنك ، مثل دى جريو !
 ضممتها بذراعى ، وقبلت يديها ، وقدميها ، وركعت
 أمامها على ركبتى .
 وانقضت النوبة . فوضعت يديها على كفتى ، وأخذت
 تنفوس فى وجهى . لكانها تريد أن تقرأ فيه شيئا . وكانت
 تصغى الى ولكن كان واضحا أنها لا تسمع ما كنت أقوله
 لها . وظهر على قسمات وجهها ما ينبئ عن هم وتأمل .
 كنت خائفا عليها وكان يبدو لى أنها بسبيل أن تجن .
 ها هى ذى تشدنى اليها برفق ، وتبدأ بسمه ثقة تطوف
 على شفيتها ؛ ثم ها هى ذى تدفعنى عنها على حين فجأة ،
 وتعود تنفوسنى بنظرة عابسة .

وها هى ذى تأخذ تعانقنى بغتة وتقول :

— أنت تحبى ، أليس كذلك ؟ ما دمت . . ما
 دمت قد أردت أن تقاتل البارون من اجلى !
 وانفجرت تفهقه فقهقه من خطرت بباله ذكرى مضحكة
 مسلية . كانت تضحك وتبكي فى آن واحد . ماذا كان
 فى وسعى أن أفعل ؟ لقد كنت أنا نفسى كالمحموم .
 أذكر أنها أخذت تكلمنى . . ولكننى لم أستطع أن أفهم
 شيئا تقريبا . كان كلامها ضربا من هذيان . انها تتمم
 متممة كما لو كانت تريد أن تقص على شيئا من الأشياء
 بسرعة . وكان يقطع هذا الهذيان من حين الى حين ضحك
 فرح ينفجر انفجارا فيأخذ يخيفنى .
 كانت تردد :

— لا ، لا ، أنت لطيف ، لطيف ! أنت مخلص
لى !

وتعود تضع يديها على كتفى ، وتعود تتأملنى وتكرر :
— أنت تحبى ، أنت تحبى . . وسوف تحبى ؟
لم أحول بصرى عنها . ما كنت قد رأيتها قبل ذلك
قط فى مثل هذه النوبة من الرقة والحنان والحب . صحيح
أن ذلك كان هديانا ، وها هى ذى تلاحظ نظرتى الولهى ،
فتبتسم ابتسامة مأكرة على حين فجأة . ثم ها هى ذى
تأخذ تتكلم عن مستر آستلى بغتة .

على أنها كانت تدبر الحديث على مستر آستلى بغير
انقطاع (ولا سيما منذ قليل ، حين حاولت أن تقص على
شيئا ما) ، غير أننى لم أستطع أن أفهم ماذا كان يعنى
هذا على وجه الدقة . بل اننى لأعتقد أنها كانت تسخر
منه . وأخذت تردد فى كل لحظة أنه ينتظر . . . وأننى ربما
كنت أجهل أنه ينتظر الآن ، ولا شك ، تحت نافذة
غرفتى .

— نعم ، نعم ، تحت النافذة . افتح النافذة وأنظر .
انظر ! انه هناك ، هناك !

قالت ذلك ودفعتنى نحو النافذة . فما ان هممت
أن أمضى الى النافذة حتى استبد بها الضحك ، فبقيت
قربها ، فاذا هى ترمى علىّ وتحضنى بذراعيها
— سنسافر ؟ غدا نسافر ؟

لقد وافتها هذه الفكرة المقلقة على حين فجأة ،
وأضافت تقول ساهمة الفكر :

— وسندرك الجدة ، ما رأيك ؟ اغلب ظني أنا
نستطيع أن ندركها ببرلين ، ما عساها قائلة ، في رأيك ،
حين نلحق بها فترانا ؟ ومستر آستلي ؟ . . ان مستر آستلي
هذا لن يرمى نفسه من أعلى جبل شلانجنبرج ، أليس
كذلك ؟ (قالت هذا وانفجرت تقهقه) . اسمع : هل
تعلم الى أين يريد أن يذهب في الصيف المقبل ؟ انه
يريد أن يذهب الى القطب الشمالى ليقوم بدراسات علمية ،
وقد دعانى الى مشاركته فى هذه الرحلة . . ها ! ها ! ها !
يقول اتنا معشر الروس ما كنا لنعلم شيئا لولا الأوربيون ،
واننا لا نصلح لشيء . . . لكنه رجل طيب هو ايضا !
هل تعلم ؟ انه يعذر الجنرال : يقول أن Blanche . .
ان الهوى . . لا أدرى لا أدرى ماذا يقول . . (رددت ذلك
مشوشة كأنما أعوزها التعبير) . مساكين ! لشد ما أرثى لحالهم ؛
ولشد ما أرثى لحال الجدة أيضا ! . . اسمع ، اسمع ،
كيف يكون فى امكانك أن تقتل دى جريو ؟ وهل صحيح
أنك فكرت انك ستقتله ؟ يا أبله ! هل صحيح أنك
استطعت أن تفكر أننى سأسمح لك أن تتبارز مع دى جريو؟
ولكنك لن تستطيع أن تقتل حتى البارون (أضافت ذلك
وقد أخذت تضحك) . لشد ما كنت مضحكا فى ذلك
اليوم ، مع البارون ! كنت أنظر اليكما كليكما من على
مقعدى . . ولشد ما ضايقتك أن تذهب اليه حين أرسلتك !
لكم ضحكت يومئذ ، لكم ضحكت !
وفجأة عادت تقبلنى ، وتضمنى الى صدرها ، وتشد
وجهى الى وجهها بحنان قوى وعاطفة مشبوبة . أصبحت

لا أفكر في شيء ، ولا أسمع شيئاً لقد أخذ رأسي
يلور . . .

أظن أن الساعة كانت بلغت السابعة من الصباح حين
ثبت الى رشدي . كانت الشمس تضيء الغرفة . وكانت
بولينا جالسة الى جانبي تجيل بصرها على ما حولها غريبة
النظرة ، كأنها تخرج من الظلمة وتجمع شتات ذكرياتها .
كانت قد استيقظت هي أيضا منذ قليل ، وأخذت تنظر
محدقة الى المنضدة والمال . ان رأسي ثقيل موجه . وأردت
أن أتناول يد بولينا ، فصدتني ، ونهضت عن الديوان فجأة .
كان النهار الذي بدأ يطلع قاتما . لقد أمطرت السماء قبيل
الفجر . اقتربت بولينا من النافذة ففتحتها ، ثم مالت عليها
بنصف جسمها متكئة على مسندها ، ولبثت على هذه الحال
حوالي ثلاث دقائق لا تلتفت نحوي ولا تصغي الى ما
أقول لها . وراودتني فكرة مرعبة : ما عسى يحدث الآن ،
وكيف عسى ينتهي الأمر ؟ وفجأة تركت بولينا النافذة وجاءت
الى المنضدة ، وقالت لي وقد فاض وجهها بكره لا حد له ،
وارتعشت شفتها من شدة الحنق :

— هات الآن الخمسين ألف فرنك التي لي !

قلت :

— ماذا دهاك يا بولينا ؟ أتستأنفين القصة ؟

— اللهم الا أن تكون قد غيرت رأيك ! ها ها ها .

أملك ندمت ؟

كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين التي عددها في
الليلة البارحة ما تزال على المنضدة : فتناولتها ومددها اليها .

سألتنى وهى تمسك المال وتلقى على نظرة ساخطة :
— هى الآن لى ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟
قلت :

— لقد كانت لك منذ البدء .
— طيب . . اذن خذها الآن ، ألوفا الخمسين !
قالت ذلك ورفعت يدها فرمت الحزمة فى وجهى ،
فلطمته لظما موجعا ، وتبعثرت الأوراق على الأرض ، ثم
خرجت بوليننا من الغرفة راکضة .
كنت أعرف أنها لم تكن فى تلك اللحظة مالكة
عقلها ، رغم أننى لم أفهم هذا الجنون العابر . صحيح
أنها ما تزال مريضة حتى الآن ، بعد مرور شهر . ولكن
ما سبب هذه الحالة ، وما سبب هذا الانفجار خاصة ؟
هل أهينت كبريائها ؟ أهو اليأس الشديد من أنها جاءت
الى ؟ ترى هل ظهر على أننى مُدللٌ بسعادتى ، وأننى أريد ،
مثل دى جريو ، أن أتخلص منها باعطائها خمسين ألف
فرنك ؟ ولكن ليس ثمة شىء من هذا وأنا مرتاح الضمير
بصدد هذا . . وما أظن الا أن الذنب ذنب غرورها . ان
غرورها هو الذى دفعها الى أن تمنع عنى ثقتها وأن تهينتى ،
وان لم يكن ذلك كله واضحا فى ذهنها بل مبهما كل
الابهام فى أغلب الظن . فاذا كان الأمر كذلك ، فقد
عاقبتنى بما كان يجب أن يعاقب به دى جريو ، ولعلها
عدتنى مذنبا دون أن يكون لى فى الأمر كبير ذنب . صحيح
أن هذا كله لم يكن الا هديانا . وصحيح أيضا أننى كنت
أعرف أنها تهذى . . وأننى لم أول هذا الظرف انتباها

أتراها لا تستطيع أن تغفر لي ذلك الآن ؟ ولكن اذا صح هذا بالنسبة الى الآن ، فماذا بالنسبة الى أمس ، ماذا بالنسبة الى أمس ؟ ان هذيانها ومرضها لم يكونا من القوة بحيث ينسيانها ماذا كانت تفعل حين جاءت الى حامله رسالة دى جريو ! كانت تعلم اذن ما تفعل .

وأسرعت أدرس جميع أوراقى وذهبى فى السرير كيفما اتفق ، وأسدل عليها الغطاء ، وأخرج من الغرفة بعد خروج بوليننا بعشر دقائق تقريبا . كنت واثقا أنها هربت الى مسكنها ، فأردت أن أتسلل الى شقتهم دون ضوضاء ، أسأل المربية فى المدخل عن صحة سيدتها . فما كان أشد دهشتى حين لقيتني المربية على السلم فقالت لى ان بوليننا لم تعد حتى الآن ، وانها—أى المربية—كانت آتية الى تبحث عنها .

قلت للمربية :

— لقد خرجت من عندى منذ هنيهة قصيرة ، منذ عشر دقائق تقريبا . الى أين تراها ذهبت ؟
فألقت علىّ المربية نظرة عتاب

وفى أثناء ذلك كانت القصة تطوف فى أرجاء الفندق . فالخدم يهمس بعضهم لبعض ، عند حجرة البواب وعند رئيس الخدم ، أن الآنسة قد خرجت راكضة فى الساعة السادسة من الصباح ، تحت وابل المطر ، متجهة نحو hôtel d'Angleterre . فهتمت من أحاديثهم وتلميحاتهم أنهم كانوا يعرفون أنها قضت الليلة كلها فى غرفتى . ثم انهم كانوا قد أخذوا يقصون حكايات عن أسرة الجنرال كلها .



انهم يعلمون أنه قد فقد صوابه في الليلة البارحة فأخذ يبكي
 منتحبا حتى سمع نحيبه كل من في الفندق . وقالوا في
 هذه المناسبة ان الجدة هي أمه ، وانها قد جاءت من
 روسيا خصيصا لتمنع ابنها من الزواج بـ m-Ile de Cominges ،
 فاذا لم يطعها حرمته من ميراثها . أما وأنه رفض الامتثال
 لأوامرها ، فقد ذهبت تبدد ثروتها في الروليت أمام عينيه
 عامدة متعمدة ، حتى لا تترك له شيئا . فكان رئيس
 الخدم يكرر قوله مستاء وهو يهز رأسه : ⁽¹⁾ "Diese Russen!" ؛
 وكان الآخرون يضحكون ؛ وكان رئيس الخدم يهيسُ الفاتورة .
 وكان قد علم أنني ربحت في الليلة البارحة : ان كارل
 خادم الطابق الذي أسكن فيه ، هو أول من هنأني . ولكن
 عقلي كان مشغولا بشيء آخر. فهرعت الى فندق d'Angleterre .

كنا ما نزال في ساعة مبكرة من الصباح ، ومستر
 آستلي لا يستقبل . ولكنه حين عرف أن القادم هو أنا خرج
 يلقاني في الدهليز ، وظل متمسرا أمامي يحدق اليّ بنظرته
 الكايبة ، منتظرا ما سأقوله . سألته في الحال عن أبناء
 بولينا ، فأجاب وهو ما يزال يسدد بصره الى عيني :

- انها مريضة .
- أهي اذن عندك ؟
- نعم هي عندي .
- وهل . . هل تنوى أن تبقىها عندك ؟
- نعم ، أنوى ذلك .

⁽¹⁾ يا لهؤلاء الروس ! (بالألمانية في الأصل) .

— يا مستر آستلى ، سيكون هذا فضيحة . ذلك أمر مستحيل . ثم انها مريضة تماما . . أملك لم تلاحظ ذلك ؟

— بلى ! وقد سبق أن قلت لك انها مريضة . ولو لم تكن مريضة لما قضت ليلتها عندك . — أنت تعرف هذا ايضا ؟

— نعم ، كانت ستأتى أمس الىّ ، ولو قد أتت اذن لنقلتها الى منزل احدى قريباتى ، ولكنها كانت مريضة ، فلذلك ضلت سبيلها فذهبت اليك .

— بالضبط ! أهنتك اذن يا مستر آستلى ! بالمناسبة ، لقد ذكرتني الآن بشيء . ألم تمكث طوال الليلة البارحة تحت نافذتى ؟ كانت مس بوليننا تطلب منى طوال الليل أن أفتح النافذة لأرى أأست تنتظر تحتها : وكان ذلك يضحكها كثيرا .

— أهذا ممكن ؟ لا ، لم أكن تحت النافذة ، غير أننى انتظرت فى الدهليز ، وطفقت أذهب وأجىء على مقربة .

— يجب معالجتها يا مستر آستلى . — نعم ، وقد أرسلت أستدعى طبيبا ؛ فاذا ماتت فلسوف أعرف كيف أقصص منك .

ذهلت . «هلا تكرمت يا مستر آستلى فقلت لى ماذا تعنى ؟»

— هل صحيح انك ربحت البارحة مائتى ألف تالير؟
— بل مائة ألف فلورين فقط

— هكذا . . واذن سافر صباح اليوم الى باريس .
— لماذا ؟
— لأن جميع الروس يذهبون الى باريس متى كان معهم مال .
كذلك اوضح مستر آستلى كأنه يقرأ فى كتاب .
— وما عساي أصنع بباريس الآن ، فى الصيف ؟
اننى أحبها يا مستر آستلى ! أنت تعرف ذلك .
— حقا ؟ أما أنا فأعتقد بعكس ذلك . ثم انك اذا بقيت هنا ستخسر حتما كل ما تملكه ، ولن يبقى معك ما قد يوصلك الى باريس . هيا ، وداعا ، اننى على يقين مطلق من أنك سوف تسافر اليوم الى باريس .
— طيب . وداعا . ولكننى لن أسافر الى باريس .
فكر يا مستر آستلى فيما سيحدث . ان الجنرال . . ثم ان قصة مس بولينا هذه ستنتشر فى المدينة كلها .
— نعم فى المدينة كلها . وأعتقد أن الجنرال لا يفظن الى هذا الموضوع أصلا . فان هناك أشياء أخرى تشغل باله وتستأثر بتفكيره . ثم ان من حق مس بولينا أن تقيم حيث تحلو لها الاقامة . أما هذه الاسرة فلا نعدو الواقع اذا قلنا انها لم يبق لها وجود .
كنت بعد أن انصرفت من عند مستر آستلى أضحك عجبا من هذه الثقة الغريبة التى تبدو فى كلامه حين أكد أنتى مسافر الى باريس . قلت فى نفسى : وهو مع ذلك يريد أن يقتلنى فى مبارزة اذا ماتت mademoiselle بولينا . . .
يا لها من مشكلة ! يمينا لقد كنت أشفق على بولينا . .

غير أن هناك شيئا غريبا هو أنني منذ اللحظة التي دنوت فيها من مائدة القمار وأخذت ألم الأوراق النقدية أكدا سا أكدا سا ، أصبح حبى فى المنزل الثانية ان صح التعبير . وأنا أقول ذلك الآن . أما وقتئذ فلم يكن شعورى به واضحا كل الوضوح . أنا اذن مقامر فعلا ؟ أكان حبى لبولينا . . غريبا اذن هذه الغرابة ؟ لا . . انى ما أزال أحبها ، شهد الله ! . . وحين خرجت من عند مستر آستلى كنت أتألم ألما صادقا مخلصا ، وكنت ألوم نفسى لوما شديدا حين كنت عائدا الى غرفتى . غير أن . . مغامرة من أعجب المغامرات وأشدها حماقة وبلاهة قد وقعت لى عندئذ كنت ذاهبا الى الجنرال مستعجل الخطى ، فاذا يباب يفتح على حين غرة ، غير بعيد عن مسكنهم ، واذا بصوت ينادينى : انها m-me veuve Cominges تنادينى بأمر من m-lle Blanche . دخلت شقة m-lle Blanche انها تقيمان فى شقة صغيرة من غرفتين . وكان ضحك m-lle Blanche وانطلاق صوتها يسمعان صادرين من حجرة نومها . كانت بسبيل النهوض من فراشها :
A, c'est lui!! Viens donc, bêta! —
que tu as gagné une montagne d'or et d'argent?
J'aimerais mieux l'or. ⁽¹⁾
فقلت ضاحكا :

⁽¹⁾ هذا هو ! تعال تعال يا أبله ! أصبح أنك ربحت جبلا من ذهب وفضة ؟ انى أفضل الذهب (بالفرنسية فى الأصل) .

— نعم ربحت

— كم ؟

— مائة ألف فلورين .

أدخل Bibi, comme tu es bête. —

أدخل ! اننى لا أسمع شيئا .

Nous ferons bombance, n'est-ce pas? ^(١)

ودخلت . كانت مضطجعة تحت غطاء من حرير

وردى يكشف عن كتفيها السمراوين المدورتين الرائعتين :

كتفين لا يرى مثلهما الا فى المنام ، قد غطاهما ، على

اهمال ، قميص من نسيج قطنى خفيف يزينه شريط دنتلا

ناصع البياض يبرز جمال جلدها البرونزى .

صاحت تقول وهى ترانى :

* ^(٢) — Mon fils, as-tu du coeur?

وضحكت . كانت دائما تضحك ضحكا مرحا جدا ،

بل ضحكا صريحا فى بعض الأحيان .

قلت معيدا جملة كورنى بصياغتى :

^(٣) — Tout autre...

فأخذت تثرثر قائلة :

— رأيت اذا ، vois-tu . هات لى أولا جوربى

^(١) ما أبلهك يا بيبى . . . لسوف نطلق لأنفسنا العنان ، أليس

كذلك ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) أنت شجاع يا بنى ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٣) كل شخص آخر . . . (بالفرنسية فى الأصل) .

فالبسنيهما ؛ ثم ، je ، si tu n'es pas trop bête,
١) te prends à Paris. أنت تعلم أنني مسافرة توا

— توا ؟

— بعد نصف ساعة .

وكان كل شيء قد حزم فعلا . وكانت الحقائق وكل
أمتعتها مهيأة . وقد شربت القهوة منذ زمن .

— Eh bien! اذا شئت ، Dis ، tu verras Paris.

donc, qu'est ce que c'est qu'un outchitel?

٢) Tu étais bien bête, quand tu étais outchitel.

أين جورباي ؟ ما لك لا تلبسني جوربي ؟

قالت ذلك وأظهرت قدما صغيرة أخاذة الجمال حقا :

قدما سمراء دقيقة ، ليس فيها شيء من ذلك التشوه الذي

تراه تقريبا في جميع تلك الأقدام الصغيرة التي تبدو جميلة

ذلك الجمال كله وهي في أحذيتها . أخذت أضحك ومددت

الجورب الحريري على ساقها . فكانت أثناء ذلك ما تنفك

تثرثر قاعدة على سريرها .

— Eh bien, que feras-tu, si je te prends avec?

أولا je veux cinquante mille francs ستعطيني

١) اذا لم تكن أبله جدا ، اخذتك معي الى باريس (بالفرنسية

في الأصل) .

٢) طيب ! . . رأيت باريس . قل لي : ما معنى كلمة

«أوتشيتل» ؟ لشد ما كنت أبله ، حين كنت أوتشيتلا ! (بالفرنسية

في الأصل)

هذا المبلغ في فرنكفورت. *Nous allons à Paris.* وهناك
et je te ferai voir des étoiles en _____ سنعيش معيش
plein jour. ^(١) لسوف ترى هنالك نساء ما رأيت مثلهن
في حياتك . اسمع . .
— انتظري ! اذا أعطيتك خمسين ألف فرنك فماذا
يبقى لى ؟

— قد نسيت ^(٢) *et cent cinquante mille francs.*
ثم اننى أرضى أن أعيش فى شقتك شهرا ، أو شهرين ،
^(٣) *que sais je!* وطبعاً سننفق فى شهرين هذه المائة
والخمسين ألف فرنك . أرايت ؟ ^(٤) *Je suis bonne enfant*
وأنتك بما سيقع منذ الآن . ولكنك
^(٥) *mais tu verras des étoiles*

— كيف هذا ؟ أنفق كل شىء فى شهرين ؟
— أيفزعك هذا ؟ ^(٦) *Ah, vil esclave!* ألا تعلم
أن شهرا واحدا تعيشه على هذا النحو خير من حياتك كلها ؟
شهر واحد . . *et après le déluge! * Mais tu ne peux.*

^(١) هيه ! ما عساک فاعلا اذا أخذتک معى ؟ أريد خمسين
ألف فرنك . ونذهب الى باريس . . . وسأريك النجوم فى وضح
النهار . (بالفرنسية فى الأصل)

^(٢) المائة والخمسين ألف فرنك (بالفرنسية فى الأصل)

^(٣) هل أدرى ؟ (بالفرنسية فى الأصل)

^(٤) انتنى طفلة طيبة (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٥) ستري نجوما (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٦) يا لك من عبد حقير ! (بالفرنسية فى الأصل) .

comprendre, va! هيا امض فى سيبلك . هيا هيا . .
 انك لا تستحق هذا ! آى ، (١) que fais—tu?
 كنت بسبيل الباسها جوربها الثانى ، ولكننى لم أطق
 أن أقاوم ، فاذا أنا أقبل قدمها ، فسحبتها وأخذت تلطم
 وجهى بطرف القدم ، ثم طردتنى . .
 (٢) “Eh bien, mon outchitel, je t’attends, si tu veux,
 أنا مسافرة بعد ربع ساعة !» — كذلك صاحت
 تخاطبنى .

فلما عدت الى غرفتى كنت كمن اعتراه دوار . قلت
 لنفسى : ليس ذنبى أن m-Ile بولينا رمت كدسة الأموال
 فى وجهى ، وآثرت علىّ مستر آستلى منذ الأمس . وكان
 ما يزال على الأرض بعض الأوراق النقدية ، فجمعتها .
 وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخل رئيس خدم الفندق
 (الذى كان قبل ذلك لا يجب حتى أن ينظر الىّ) ، ودعانى
 أن أسكن تحت ، فى الشقة الرائعة التى شغلها الكونت
 ف . منذ فترة قصيرة .

فلبثت لحظة أفكر ، ثم هتفت أقول له :
 — هات لى فاتورة الحساب ! أنا مسافر بعد عشر

دقائق

(١) وبعده الطوفان ! ولكنك لا تستطيع أن تفهم ! . . ماذا
 تفعل ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .
 (٢) هيه . . أيها الأوتشيتل . . سانتظرك اذا شئت . (بالفرنسية
 فى الأصل) .

ذلك أننى قلت لنفسى : «فليكن . الى باريس !
لا شك أن ذلك كان مقدرًا عليّ ، مكتوبًا لى !»
وما انقضى ربيع ساعة حتى كنا جالسين فعلا فى
عربة عائلية واحدة بالقطار : أنا و m-lle Blanche et m-me
veuve Cominges . كانت m-lle Blanche تضحك ،
وهى تنظر الىّ ، ضحكا شديدا الى حد الهستيريا . وكانت
veuve Cominges تجارها فى الضحك . لن أقول
اننى كنت مرحا حينذاك . لقد كانت حياتى تنشط شطرين .
غير أننى ألفت منذ الليلة البارحة أن اراهن بكل شيء .
قد يكون صحيحا أننى كنت لا أحتمل المال ، وأننى قد
فقدت رشدى . ^١ Peut-être, je ne demandais pas mieux.
وكان يخيل لى ان الديكورات تتغير لوقت ما ، ولكن لوقت
ما فقط . «ولكننى سأعود بعد شهر . . . وستصارع يومئذ . .
يا مستر آستلى !» نعم ، اذا صدقت ذاكرتى ، فلقد كنت
أشعر بحزن رهيب وأنا أضحك ملء حنجرتى مع الغيبة
Blanche هذه .

صاحت Blanche تقول لى مقرعة مؤنبة وقد توقفت
عن الضحك :

— ولكن ماذا تريد ؟ ألا انك لأحمق . . ألا ما
أشد حماقتك ! نعم نعم ، سننفق المائتى ألف فرنك ، ولكنك

^١ قد يكون هذا صحيحا ، ولكننى كنت لا أنشد أكثر من
ذلك (بالفرنسية فى الأصل)

mais tu seras heureux, comme un petit roi. ^(١)

. Hortense سأعقد لك بنفسى ربطات عنقك ، وسأقدمك الى
وبعد أن نبدد كل ما معنا من مال ، ستعود أنت الى
هنا فتدمر الخزانة من جديد . ماذا قال لك اليهوديان ؟
الجرأة هى الأصل وأنت امرؤ جرىء ، وستأتينى الى باريس
Quant à moi je veux مرارا تحمل الىّ مالا
cinquante mille francs de rente et alors... ^(٢)

سألها مقاطعا :

— والجنرال ؟

— الجنرال ؟ أنت تعلم أنه يذهب فى مثل هذه



^(١) ستكون سعيدا كملك صغير (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٢) أما أنا فأريد دخلا مقداره خمسون ألف فرنك ، وعندئذ .

(بالفرنسية فى الأصل)

الساعة من كل يوم يشتري لى باقة من الأزهار . وقد طلبت
منه فى هذه المرة ، عامدة ، أن يجيئنى بأزهار ينذر العثور
عليها . فمتى عاد ، المسكين ، تكون العصفورة قد طارت .
ولسوف يجرى وراءنا . سترى . ها ها ها ! سيسرنى هذا
كثيرا . سيفعنى كثيرا فى باريس . وسيدفع مستر آستلى
عنه هنا . . .
هكذا سافرت الى باريس آنذاك .



الفصل السادس عشر

باريس ؟ ماذا أقول عن باريس ؟ كان ذلك كله هديانا وشذوذا ، ما في ذلك ريب . لم أمكث في باريس الا ثلاثة أسابيع ونيف وخلال هذه الفترة أنهيت على مائة ألف فرنك تماما . أقول مائة ألف فرنك فقط . أما المائة ألف الأخرى فقد أعطيتها m-lle Blanche عدا ونقدا : خمسين ألفا في فرنكفورت ، وخمسين ألفا في باريس ، بعد ثلاثة أيام ، سندات لأمرها ما لبثت أن أبدلتها بعد أسبوع . “et les cent mille francs, qui nous restent .

tu les mangeras avec moi, mon outchitel”^(١)

كانت تسميني دائما أوتشيتل . يصعب على المرء أن يتخيل وجود انسان يبلغ من الحرص ويبلغ من البخل والشح ، ما يبلغه هذا النوع من البشر الذى تنتمى اليه m-Ile Blanche فيما يتصل بالمال الذى لهم . أما المائة ألف فرنك التى بقيت لى فقد صرحت لى فيما بعد ، بكل بساطة ، أنها فى حاجة اليها لتستقر فى البداية بباريس . وأضافت تقول :

— هأنذا وقفت أخيرا على قدمى فى موضع لائق ، ولن ينزلى أحد من هذا الموضع ، الى أمد طويل لقد اتخذت الاجراءات الضرورية ، على الأقل .

ثم اننى لم أكد أرى بعينى لون تلك الآلاف المائة من الفرنكات : فلقد كانت m-Ile Blanche هى التى تتولى الانفاق ، ولم تضم محفظة نقودى التى كانت تتفقدتها كل يوم ، أكثر من مائة فرنك فى لحظة من اللحظات ، بل لم تضم الا أقل من ذلك فى أكثر الأحيان . كانت تقول لى أحيانا وقد ظهرت فى وجهها سلامة النية وحسن الطوية :

— ما حاجتك أنت الى المال ؟

^(١) المائة ألف الباقية لنا ، ستأكلها معى يا عزيزى أوتشيتل .
(بالفرنسية فى الأصل)

فكنت لا أجادلها . وفي مقابل ذلك ، أعدت بهذا المال ، منزلا جميلا جدا ، فلما أخذتني الى منزلها الجديد ، قالت لي وهي تطوف بي في أرجائه :

— انظر ماذا يستطيع التوفير والذوق أن يعملأ بأيسر الأثمان ، وأضعف الموارد .

ومع ذلك فان هذه الأثمان قد كلفت خمسين ألف فرنك . أما الخمسون ألف فرنك الأخرى فقد اشترت بها عربة وخيلا . ثم أقمنا حفلتين راقصتين ، أعنى سهرتين ، حضرتهما Cléopâtre, Lisette, Hortense وهن نساء متميزات من عدة وجوه ، وهن فوق ذلك بغايا طيبات . وقد اضطرت أثناء هاتين السهرتين ان أمثل دور رب المنزل وهو من أسخف الأدوار ، فأستقبل وأحدث تجاراً أغبياء حديثي العهد بالغنى ، كما أستقبل وأحدث ضباطا صغارا لا يطاقون ولا يحتملون من شدة جهلهم وغلظتهم وفضاظتهم ، وأناسا من أذعياء الكتابة المخربشين ، وصحفيين تافهين يجيئون مرتدين أحدث زى وقفافيز بلون القش ، مدلين بأنفسهم مزهوين ، على غرور و صلف و غطرسة لا نستطيع تصورها نحن في بطرسبرج ، وليس هذا بالقليل . حتى لقد بدا لهم أن يسخروا مني وأن يستهزئوا بي ، ولكنني كنت أقبل على الشمبانيا فما أزال أشرب الى أن أسكر ، فأمضى أنام في الغرفة الخلفية . وكان كل هذا مقززا بالنسبة لي للغاية .

وكانت Blanche تقول :

—C'est un outchitel, il a gagné deux cent

١) mille francs. فلو لاي ما عرف كيف ينفقها .
وسيعود بعد ذلك الى مهنته . ألم يسمع أحد منكم عن
وظيفة يعين لها ؟ ان علينا أن نعمل شيئا من أجله .
وكنت ألجأ الى الشمبانيا في أحيان كثيرة ، لأننى
حزين دائما ، ضجر ضجرا رهيبا . كنت أعيش فى بيئة
هى أكثر البيئات بورجوازية وتجارية ، بيئة يُحسب فيها كل
قرش ويعد . وقد ظلت Blanche لا تطيقنى خلال
الأسبوعين الأولين : لاحظت ذلك . صحيح أنها كانت
تعنى بأناقة هندامى ، وكانت تتولى بنفسها عقد ربطة عنقى
كل يوم ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر تحترقنى احتقارا
خالصا . ولم أكن أولى ذلك أى انتباه . وبدأت أخرج
من المنزل من فرط ما كنت أشعر به من حزن وكآبة ؛
فكنت فى أكثر الأحيان أمضى الى ^٢ * "Château des Fleurs"
فأظل أسكر كل مساء بغير انقطاع ، وأتعلم رقصة الكانكان
(التي يرقصونها هنالك على نحو خال من أى احتشام على
الاطلاق) ، حتى لقد صرت مشهورا بذلك . وفهمت Blanche
أخيرا طبيعة هذا الرجل الذى تعامله : كانت قد تخيلت
أول الأمر أننى ، طول مدة العلاقة التى بيننا ، سأتبعها
ممسكا بقلم وورقة ، أحصى ما تنفقه ، وأعد ما تسرقه ،
وما قد تنفقه وما قد تسرقه أيضا ، وكانت مقتنعة ، دون

١) انه أوتشيتل . وقد ربح مائتى ألف فرنك (بالفرنسية فى
الأصل) .

٢) «قصر الأزهار» (بالفرنسية فى الأصل) .

شك ، بأن عليها أن تنتزع مني بصراع مرير كل قطعة من قطع النقود ذات العشرة فرنكات . فكانت تعد جوابا حاضرا لكل هجوم تفترض أنني قد أتناولها به ، فلما لاحظت أنني لا أبادر الى الهجوم ، أرادت أن تسبقني اليه لتمنعي منه . فكانت تشرع في ذلك أحيانا ، فتطلق لسانها العنان ، ولكنها وقد رأت أنني أصمت لا أنبس بكلمة ، بل أظل مستلقيا على التخت محدقا الى السقف ، أخذت تستغرب وتدهش ؛ فاعتقدت أول الأمر أنني امرؤ مغفل لا أكثر من ذلك ولا أقل ، أنني ”un outchitel“ وكفى ، فتكف عن الكلام قائلة لنفسها من غير شك :

«انسان مغفل ، فلا فائدة من استثارته ان لم يفهم من تلقاء نفسه» . وكانت في بعض الأحيان تخرج من المنزل ثم تعود بعد عشر دقائق (كان هذا يحدث حين تنفق مبالغ ضخمة جنونية ، مبالغ لا تسمح لنا ظروفنا المالية بانفاقها ؛ مثلما فعلت يوم أبدلت فرسيها بفرسين آخرين دفعت ثمنهما ستة عشر ألف فرنك)

قالت لي يومئذ وهي تدنو مني :

— ألسنت غاضبا يا Bibi ؟

فقلت وأنا أبعدھا عنى بيدي :

— لا . . . وانما أنت ت . . . ض . . . سجرينتى !

ولكن هذا الجواب بدا لها غريبا كل الغرابة فجلست فورا الى جانبي وقالت :

— اسمع . لقد قررت أن أدفع ثمن الفرسين باهظا الى هذا الحد ، لأنها فرصة . . . فان في وسعي أن أعود

فأبيعهما بعشرين ألف فرنك .

— أصدقك ، أصدقك ، فهما فرسان جميلتان ،
وقد أصبح لك الآن مركبة رائعة تصلح لك ، وكفى .
— اذن لست غاضبا ؟

— ولماذا أغضب ؟ انت تتصرفين بدكاء اذ تتزودين
بأشياء تحتاجين اليها . فهذا كله سيعود عليك بنفع في
المستقبل . اننى لأدرك أنك فى حاجة حقا الى أن تقفى
على قدم راسخة وطيدة ، والا لم تحصلى على المليون .
ان المائة ألف فرنك التى نملكها ليست هنا الا بداية ،
ليست الا قطرة من بحر محيط .

قلت ذلك فاذا بـ Blanche التى لم تتوقع أفكارا
من هذا النوع (بل كانت تنتظر صياحا وعتابا !) ، اذا
بها تبدو كمن يهبط من السحاب . قالت :
— اذن أنت كذلك ؟

Mais tu as de l'esprit pour comprendre! Sais-tu,
mou garçon انك على كونك مدرسا قد خلقت أميرا^(١)
ولا شك ! أنت اذن غير آسف على أن مالنا يهرب بهذه
السرعة ؟

— فليذهب المال الى الشيطان . . . ليهرب بأقصى
سرعة !

— Mais... sais-tu... mais dis donc ، أيمكن

^(١) ان لك فكرا يفهم والحالة هذه ! هل تعلم يا بنى ؟
(بالفرنسية فى الأصل)

ان تكون غنيا ؟ Mais sais-tu ، ولكنك تحتقر
المال وتسرف في احتقاره . Qu'est ce que tu feras
après, dis donc? ^(١)

— Après سأذهب الى هومبورج * ، فأريح هنالك
مائة ألف فرنك أخرى .

— Oui, oui, c'est ça, c'est magnifique! ^(٢)

وأنا واثقة من أنك ستريح حتما ؛ وستجيشني بالمال الى
هنا . Dis donc ، لسوف تبلغ من حسن التصرف على
هذا النحو ، أنني سأحبك آخر الأمر ! Eh bien ،
سأحبك طول هذا الوقت لانك مثل هذا الانسان ، ولن
أخونك مرة واحدة . هل ترى ؟ لقد كنت في هذه الآونة
الأخيرة لا أحبك ، parce que je croyais, que tu
n'est qu'un outchitel (quelque chose comme un
laquais, n'est-ce pas?) ^(٣) ولم أخنك ،
parce que je suis bonne fille ^(٤)

— دعيك من الكذب ! ألم تخونيني مع ألبيرت ،
الضابط الحقير الأسمر ؟ أتظنين أنني لم ألاحظ في المرة
الاخيرة ؟

^(١) ولكن .. هل تعلم .. ولكن قل لي ... ولكن ... ما عسك
فاعلا بعد ؟ قل لي (بالفرنسية في الأصل) .
^(٢) نعم نعم ، هذا رائع ! (بالفرنسية في الأصل) .
^(٣) لأنني كنت أعتقد أنك أوتشيتل وكفى (أى خادم تقريبا ،
أليس كذلك ؟) . . . (بالفرنسية في الأصل) .
^(٤) لأنني فتاة طيبة . (بالفرنسية في الأصل)

—Oh, oh, mais tu es.. (١)

— أنت تكذبين ، أنت تكذبين ، ولكن لا تتخيلي
أن هذا يغضبني . هذا لا يهمني اطلاقا ،
(٢) il faut que jeunesse se passe انك لن
تطرديه على كل حال ، فانه أقدم مني ، وأنت تحبينه ؛
ولكن اياك أن تعطيه مالا ، هل تسمعين ؟
— أنت اذن غير غاضب حتى من هذا ؟

Mais tu es un vrai philosophe, sais-tu? Un vrai
philosophe!

كذلك صاحت تقول متحمسة ، ثم أضافت :

—Eh, bien, je t'aimerai, je t'aimerai—tu
verras, tu sera content! (٣)

ومنذ ذلك اليوم تعلقت بى بعض التعلق فعلا ،
بل أظهرت لى شيئا من الصداقة . فكذلك انقضت أيامنا
العشرة الأخيرة . ولئن لم أر «النجوم» التى وعدتني بها ،
فلقد برت بوعدها من بعض الوجوه . ثم انها عرفتنى
بـ Hortense ، وهى امرأة فذة فى نوعها ، كانوا يطلقون
عليها فى حلقتنا اسم * Thérèse-philosophe...

(١) أوه . . . أوه . . . ولكنك . . . (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) فيجب ان يكون الشباب شبابا . (بالفرنسية فى الأصل) .

(٣) الا أنك لفيلسوف حقا ، هل تعلم ؟ فيلسوف حقا . . .
لسوف أحبك ، لسوف أحبك ، سترى . ستكون راضيا ! (بالفرنسية
فى الأصل)

على أنه لا مجال للافاضة في هذا الآن ؛ فهو يصلح أن يكون موضوع قصة على حدة ، قصة ذات لون خاص لا أريد أن أصبغ به روايتي هذه . والحق أنني كنت أتمنى بكل ما أوتيت من قوة أن ينتهي هذا كله بأقصى سرعة . ولكن المائة ألف فرنك التي كنا نملكها قد دامت قرابة شهر ، فأدهشني ذلك حقا . ان Blanche قد اشترت أشياء مختلفة بثمانين ألف فرنك على الأقل ؛ فلم نفق اذن الا عشرين ألف فرنك . . وكان هذا كافيا . وقد اعترفت لي Blanche ، التي أصبحت صريحة معي تقريبا في آخر الأمر (أو قل على الأقل انها أصبحت لا تكذب عليّ في كل شيء) اعترفت لي بأنني لست مسئولاً ، على كل حال ، عن الديون التي اضطرت اليها . قالت لي : — هناك فواتير وسندات لم أحملك على مهرها بتوقيعك ، لأنني أشفقت عليك . ان امرأة غيري كانت ستفعل ذلك حتما ، فترسلك الى السجن . فهأنت ذا ترى كم أحببتك وكم كنت طيبة القلب ! ان هذا الزواج التعيس وحده سيكلفني مبالغ طائلة جنونية !

ذلك أن هناك زواجا قد تم فعلا ؛ وذلك في آخر الشهر الذي قضيناه معا ، ويجب أن نفترض أن الفتاتان الأخيرة من المائة ألف فرنك قد أنفقت فيه ؛ وبهذا الزواج انتهت القصة ، أعني انتهى الشهر الذي عشنا فيه حياة مشتركة . وبعد ذلك تقاعدت رسميا .

واليكم كيف حدثت الأمور : بعد اقامتنا بباريس أسبوعا وصل الجنرال فجاء الى Blanche رأسا ، وكاد يبقى

معنا منذ أول زيارة . . الحق أنه كان له شقة صغيرة في مكان ما وقد استقبلته Blanche فرحة ، وتلقته بصيحات دهشة وقهقهات ضحك ، حتى لقد ارتمت على عنقه ؛ ودارت الأمور على نحو نستطيع أن نقول معه انها هي التي تشبث به . كان عليه أن يصحبها الى كل مكان : فصحبها متجولةً في الشوارع الكبرى ، وصحبها في نزهاتها ، وصحبها الى المسرح ، وصحبها في زيارتها لمعارفها . ان الجنرال ما يزال في مستوى هذه المهمة . انه رجل مهيب المظهر ، فارح القامة ، زاهى الشاربين والفودين (كان الجنرال سابقا قد خدم في سلاح الفرسان) ، وسيم المحيا ، وان يكن وجهه قد ذبل بعض الذبول ؛ وهو يجيد الآداب الاجتماعية اجادة فذة ، ويعرف كيف يرتدى الملابس الرسمية في يسر وسهولة . وقد أخرج في باريس ما كان يملكه من أوسمة ونياشين . حتى ليتمكن القول ان التنزه في الشوارع الكبرى في صحبة رجل مثله ليس ممكنا فحسب ، بل هو مما يوصى به اذا جاز التعبير . كان الجنرال اللطيف الغبى مفتتنا منتشيا بالغا أوج السعادة . فانه لم يكن يتوقع هذا كله حين جاء الى بيتنا عند وصوله باريس . كان آنذاك يرتجف من الخوف تقريبا ، ظانا أن Blanche سوف تستقبله بصراخ وزعيق ، وسوف تأمر بطرده على الفور ؛ فاذا الاحداث تجرى مجرى آخر ، فسحره ذلك ، وقضى الشهر كله وهو في حالة من النشوة والوجد لا توصف . وقد كان على هذه الحال نفسها حين تركته . وهنا انما عرفت بالتفاصيل أنه بعد سفرنا المباغت



من رولتنبرج ، قد وافته في صباح ذلك اليوم نفسه نوبة او ما يشبهها ، فقد أغمى اليه ، وظل أسبوعا بكامله شبه مجنون ، يقول كلاما لا يربطه رابط . وقد اخذوا يعالجونه ، ولكنه لم يلبث أن ترك كل شيء هنالك ، فركب القطار موليا وجهه شطر باريس . ومن نافل القول أن نذكر أن لقبها Blanche كانت له خير علاج . ولكن أعراض مرضه لبثت تلازمه زمنا طويلا ، رغم كل ما شعر به من غبطة ورضى وابتهاج . أصبح منذ ذلك الحين عاجزا عن التفكير ، بل حتى عن متابعة حديث يتصف بشيء من الجد ، فهو في مثل هذه الحالة لا يزيد على أن يتبع كل كلمة بقوله «هم» ، ويهز رأسه موافقا . فبذلك كان يدبر الأمر ويحل المشكلة . وكان يضحك في كثير من الأحيان ، ولكن ضحكه مضطرب عصبي مريض . وكان في بعض الأحيان يبقى ساعات برمتها قاتما مظلما كالليل ، عابسا مقطبا حاجبيه الكثيفين . هناك أمور كثيرة كان قد نسيها نسيانا تاما ، وأصبح شديد الدهول وتعود أن يكلم نفسه وحيدا . كانت Blanche وحدها تستطيع أن ترده الى الحياة . وما كانت نوبات الحزن والكتابة التي توافيه حين ينطوى في ركن من الأركان الا دليلا على أنه لم ير Blanche منذ زمن طويل ، أو على أن Blanche قد خرجت دون أن تصطحبه ، أو أنها نسبت أن تلاطفه قبل أن تخرج . فلو سألته في مثل هذه الأحوال ما الذي يريده ، لما استطاع أن يجيبك بشيء ، فلقد كان يجهل هو نفسه أنه مكتئب المزاج حزين النفس . حتى اذا ظل

ساكننا على هذه الحال ساعة أو ساعتين (لاحظت ذلك مرارا حين تكون Blanche قد غابت عن المنزل طول النهار ، ساعةً الى ألبيرت في أغلب الظن) ، أخذ ينظر حواليه على حين فجأة ، ويتململ ويتحرك ويضطرب ، ينظر تارة الى هذه الجهة وتارة الى تلك ، كأنه يريد أن يتذكر شيئا أو أن يرى أحدا . ولكنه ، اذ لا يرى أحدا ولا يتذكر ما كان يريد أن يسأل عنه ، يرتد الى خدره ، ويظل على هذه الحال من الخدر الى أن تعود Blanche فرحة مرحة في أبهى حلة وأجمل زينة ، ضاحكة مقهقهة ، فتخف اليه تحركه بل وتقبله ، وتلك نعمة قلما كانت تجود بها عليه . وفي ذات مرة بلغ الجنرال من شدة الشعور بالسعادة والفرح أن أغرورت عيناه دموعا . فأدهشني ذلك . ومنذ وصول الجنرال أخذت Blanche تدافع عنه أمامي حتى لقد استرسلت في كلام كثير وخطب طويلة ، فذكرتني بأنها انما خدعته بسببي ، وأنها كانت خطيبته تقريبا ، وأنها قطعت له على نفسها عهد الشرف ، وأنه في سبيلها انما ترك أسرته ، وأخيرا أننى كنت في خدمته ، فعلى أن أفهم .. اذا كنت على شيء من ضمير .. فكنتم لا أجيها بكلمة واحدة أثناء تدفقها فى الكلام . ولكننى انفجرت ضاحكا مقهقهة فى النهاية ، ووقفت الأمور عند هذا الحد ، ومعنى ذلك كله أنها كانت تعدنى فى أول الأمر امرأاً أبله ، ثم استقر فى ذهنها ورسخ فى عقلها أننى فتى شهم أوتيت طبعا رضيا وخلقا رفيعا . والخلاصة أننى قد سعدت فى النهاية بأن أستحق رضى هذه الفتاة

المحترمة (حقا لقد كانت Blanche فتاة لطيفة جدا . .
في نوعها طبعاً ! ولم أكن قد وفيتها حقها من التقدير في
أول الأمر .)

قالت لي قبيل النهاية :

— أنت امرؤ ذكي طيب . . وانها لخسارة حقاً أن
تكون غيباً الى هذه الدرجة ! لن تجنى شيئاً ما حييت ،
لا لن تجنى شيئاً ! ألا انك ^(١) un vrai russe, un calmouk!
وقد أوفدتني مرارا أنزه الجنرال ، كما كان يمكن
أن توفد خادماً ينزه كلبها في الهواء الطلق . فأخذته الى
المسرح ، ومضيت به الى Bal-Mabile ، وقصدت
معه عدداً من المطاعم . وكانت Blanche تنقذني
بعض المال لأنفق منه في هذه التزهات ، رغم أن الجنرال
كان معه مال ، وكان يجب أن يخرج محفظة نقوده من
جيبه على مرأى من الناس . ولقد كدت ألجأ الى القوة
في ذات مرة لأصده عن شراء دبوس سعره سبعمائة فرنك
أعجبه في متجر المجوهرات بباليرويال ، فكان الجنرال مصراً
أشد الإصرار على شرائه من أجل أن يهديه الى Blanche .

ما قيمة دبوس سعره سبعمائة فرنك في نظر Blanche ؟
ولقد كان كل ما يملكه الجنرال لا يزيد على ألف فرنك ،
لم أستطع أن أعرف يوماً من أين جاء بها ، وأغلب الظن
عندى أنه أخذها من مستر آستلي ، لا سيما وأن مستر
آستلي قد دفع عنهم نفقات الفندق . أما عن اهتمام الجنرال

^(١) روسي أصيل ، كالميكى ! (بالفرنسية في الأصل)

بى طول هذه المدة ، والتفاته الىّ ، فأغلب الظن أنه لم يخطر بباله أن يكون بينى وبين Blanche ما كان بينى وبينها فعلا من علاقات . كان قد سمع بشكل مبهم أنني ربحت فى القمار ثروة ، ولكنه أغلب الظن انه كان يفترض أنني كنت عند Blanche بمثابة سكرتير خاص ، بل ربما بمثابة خادم أيضا . وقد استمر يخاطبني من عل على كل حال ، ويكلمني بلهجة الأمر ، حتى لقد كان يأذن لنفسه بأن يوبخني أحيانا . وفى ذات صباح ، بينما كنا نحتسى القهوة سلك سلوكا أضحكنا كثيرا أنا و Blanche . انه لم يكن سريع التأذى فى العادة . ولكن لا أدري لم ساءه وجودى فجأة فى ذلك الصباح ، (وما زلت أجهل هذا الى الآن ، ومن المحقق أنه كان هو نفسه لا يدري ذلك) ، فاذا هو يشرع فى خطاب لا أول له ولا آخر ، خطاب ⁽¹⁾ à bâtons-rompus ؛ قال اننى صبى غر ، وانه سيعلمني كيف أعيش ، وكيف أفهم . . الخ الخ . . ولكن ما من أحد استطاع أن يفهم عنه شيئا . وكانت Blanche تكاد يغشى عليها من شدة الضحك واستطعنا أخيرا أن نهدي روعه على نحو من الأنحاء ، وصحبناه فى جولة قمنا بها معا . لاحظت عدة مرات أن نوبات من الحزن كانت تعتربه من حين الى حين ، فهو يأسف على شيء ما ، أو على أحد ما ، هو يشعر أن أحدا ما يعوزه ، رغم وجود Blanche.

(1) يخبط خبط عشواء (بالفرنسية فى الأصل) .

وقد كنت نجيا له مرتين أو ثلاثا فى مثل هذه اللحظات ، فأراد أن يفضى الىّ بمكنون نفسه ، ولكننى لم أستطع أن أستخرج من كلامه أى شىء واضح : كان يتكلم عن خدمته العسكرية ، وعن المرحومة زوجه ، وعن أراضيه ، وعن ضيعته . فاذا وقع على كلمة تحلو له ، أخذ يرددّها مائة مرة فى اليوم الواحد ، رغم أنها لا تفصح لا عن عواطفه ولا عن خواطره . وحاولت أن أدير الحديث على أولاده ، ولكنه أخذ يتدفق فى الكلام كما كان يفعل آنفا ، وينتقل الى موضوع آخر :

— نعم نعم ، الأولاد .. أنت على حق .. الأولاد ..

مرة واحدة فقط رق قلبه وظهر حنانه فيما كنا ذاهبين

الى المسرح ، فانطلق فجأة يقول :

— انهم أولاد تعساء ، نعم نعم يا عزيزى ، انهم

أولاد تعساء !

وردت هذه العبارة مرارا فى تلك السهرة : «انهم أولاد

تعساء !» ولما أردت أن أكلمه فى أمر بولينا ثار حنقه

وصاح يقول :

— انها بنت عقوق ! بنت شريرة وعقوق ! لقد

لطخت شرف الأسرة ! ولو كان هنالك قوانين اذن لروضتها

وأدبتها ! نعم نعم ! ..

أما دى جريو فقد كان الجنرال لا يطيق حتى أن

يذكر له اسمه ؛ فكان يقول :

— لقد دمرنى .. جردنى من كل شىء .. ذبحنى

ذبحا ! . كان كابوسى الرهيب ستين كاملتين ! كان يجثم

على صدرى فى أحلامى أشهراً برمتها ! انه . . انه . . دعنا منه ! . . ولا تكلمنى عنه بعد الآن قط !

ولاحظت أن ثمة اتفاقاً كان يتم بينهما ، ولكنى

صمت على عادتى لا أقول شيئاً . ثم بادرت Blanche فأطلعتنى على ما تم اتفاقهما عليه ، وكان ذلك قبل رحيلى بأسبوع على وجه التحديد . قالت لى مثرثرة :

— (١) Il a du chance, babouchka الآن

مريضة حقاً وستموت حتماً . لقد أرسل الينا مستر آستلى برقية بهذا المعنى . والجنرال هو وريثها طبعاً . وبه لم يرثها ، فانه لن يزعجنى فى شيء . فهو أولاً يملك معاشه التقاعدى ، وهو ثانياً سيقبم فى الحجرة التى تقع فى آخر المنزل سعيداً بذلك كل السعادة ؛ وسأكون أنا “madame la générale”

فأدخل المجتمع الراقى (كان ذلك حلم Blanche الدائم) ، وسأصبح فيما بعد من أصحاب الأقطان الروس ،
j'aurai un château, des moujiks, et puis j'aurai
toujours mon million. (٢)

قلت :

— فماذا عسك تفعلين اذا أصبح غيورا ، فأصبح

يقترضك . . الله أعلم ماذا ؟ هل تفهمين ما أعنى ؟

— أوه . . لا . . non, non, non! انه لن يجروا !

(١) انه محظوظ (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) سيكون لى قصر وفلاحون ، ثم يكون لى مليونى . (بالفرنسية

فى الأصل)

وقد اتخذت احتياطاتي ، فلا تقلق من هذه الناحية . لقد حملته على أن يمهر بتوقيعه عدة سندات باسم ألبيرت فما ان يخطر له أى خاطر من هذا القبيل . . حتى يعاقب فوراً . . لا . . لا . . لن يجرؤ !

— اذن تزوجيه . . .

وتمَّ الزواج فعلا بلا أبهة خاصة ، تمَّ بسيطا في جو عائلي ، لم يدع الى الاحتفال به الا ألبيرت وعدد من الأصدقاء الحميمين . واستبعدت Hortense, Cléopâtre والآخرون استبعادا مقصودا حاسما . واتخذ الخطيب وضع الجد . وتولت Blanche عقد ربطة عنقه بنفسها ، ودهنته بالعطر ، وظهر بردائه الاسود وصدرته البيضاء رجلا ¹très comme il faut.

قالت لى Blanche وهي تخرج من غرفة الجنرال ، وكان هذه الفكرة قد فاجأتها هي نفسها :

— ² Il est pourtant très comme il faut.

واذ أننى لم أدخل فى التفاصيل ولم أشارك فى هذا كله الا مشاهداً غير مكترث ولا مبال ، فقد نسيت الآن شطرا كبيرا مما حدث حينذاك . ولكننى أتذكر أنه قد اكتشف أن Blanche لم يكن اسمها de Cominges (لا ولا كان اسم أمها m-me veuve Cominges) ، بل كان اسمها du-Placet. أما لماذا اختارتا كلتاهما اسم de Cominges فهذا أمر أجهله

¹ لائقا جدا (بالفرنسية فى الأصل) .

² انه لائق جدا مع ذلك . (بالفرنسية فى الأصل) .

حتى ذلك اليوم . . . غير أن الجنرال قد سحره ذلك
 سحرا ، حتى أن اسم du-Placet راقه أكثر مما راقه
 اسم de Cominges وفي صبيحة يوم الزواج كان قد
 ارتدى ملابس كاملة ، وأخذ يذرع الصالون جيئة وذهابا
 ويردد بغير توقف قائلا وقد لاح في وجهه الجد كل الجد :
Mademoiselle Blanche du-Placet! Blanche
du-Placet! Du-Placet! آنسة بلانكا ديو بلا سيه ! . . . ؛
 كان يردد ذلك وقد التمعت في محياه معاني الرضا والاكتفاء .
 أما في الكنيسة ، وفي مقر المحافظة ، وفي البيت أثناء
 تناول الطعام ، فلم يكن وجهه يفصح عن السرور والرضى
 فحسب ، بل كان يعبر عن الزهو أيضا . ولقد حصل لهما
 كليهما شيء ما ، فان **Blanche** قد أصبحت تصطنع
 هيئة الوقار والرصانة .

قالت لى وقد لاحت في وجهها كل معاني الجد :
 — يجب أن أنصرف بعد اليوم تصرفا آخر . **mais vois tu**
 هنالك أمر مزعج جدا لم يخطر لى على بال . تصور أنني
 لا أتوصل الى تذكر اسمى العائلى حتى الآن ! زاجوريانسكى ،
madame la générale de Sago-Sago ،
ces diables des noms russes, enfin madame la
générale à quatorze consonnes! **comme c'est**
agréable, n'est-ce pas? ⁽¹⁾

⁽¹⁾ مدام الجنرال دى زاجو . زاجو . تبا لهذه الأسماء الروسية !
 على كل حال . . . سيكون اسمى مدام الجنرال . . . أربعة عشر حرفا !
 شيء لذيذ ، أليس كذلك ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

وافترقنا أخيرا ، فاذا بـ Blanche ، هذه الحمقاء ،
Blanche ، تذرف بعض الدموع حين تودعنى .
قالت لى متباكية :

— Tu étais bon enfant. Je te croyais bête es tu
en avais l'air .^(١) على أن هذا يناسبك .

وبعد أن صافحتنى مرة أخيرة ، صاحت فجأة تقول :
"Attends!"^(٢) وأسرعت الى مخدعها ثم عادت بعد لحظة
تحمل ورتين مالبتين من ذات الألف فرنك . ما كان لى
أن أظن انها ستفعل ذلك !
قالت :

— خذ هذا ، فسيفيدك . قد تكون مثقفا جدا من
حيث أنت outchitel ، ولكنك بليد من حيث
أنت رجل . ولن أعطيك أكثر من هذا ، لأنك ستخسر
كل شيء ، كيف دار الحال . هيا ! وداعا !
Nous serons !^(٣) toujours bons amis فاذا ربحت مرة أخرى ،
فلا يفوتك أن تأتى الىّ ،^(٤) et tu seras heureux!
كان لا يزال معى خمسمائة فرنك . ثم اننى أملك
ساعة جميلة يساوى ثمنها ألف فرنك ، وأملك أزرار أكمام

^(١) لقد كنت ولدا طيبا . . ظننتك غيبا ، وكان يبدو عليك
ذلك (بالفرنسية فى الأصل) .

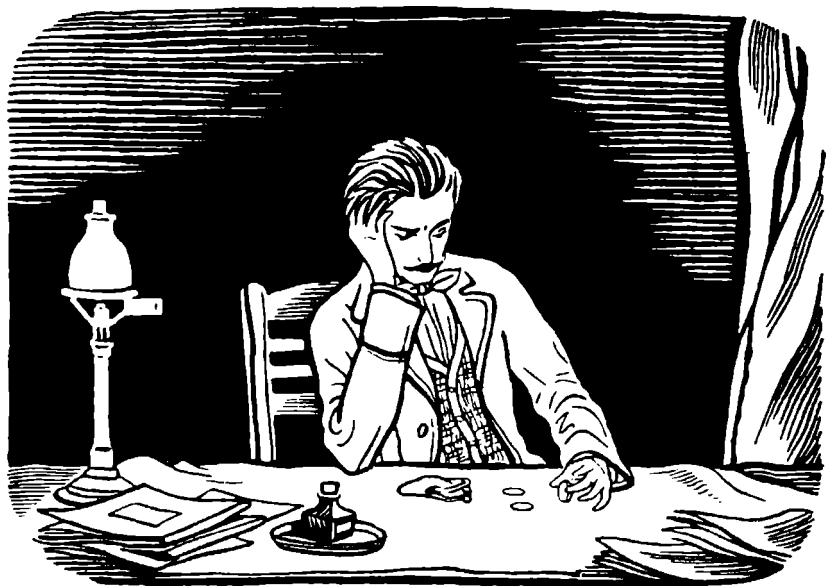
^(٢) انتظر ! (بالفرنسية فى الأصل)

^(٣) سنظل دائما صديقين طيبين . . . (بالفرنسية فى الأصل) .

^(٤) وستكون سعيدا ! (بالفرنسية فى الأصل)

من الماس وأشياء أخرى . فاستطيع اذن أن أعيش بهذا
زمتنا طويلا دون هموم . لقد أقمت في هذه المدينة الصغيرة
المضجرة قصدا ، لأستجمع أفكارى ؛ وأنا أنتظر مستر
آستلى خاصة . فلقد سمعت من مصدر يوثق به أنه لا
بد أن يمر بهذه المدينة ، وأن يمكث فيها أربعاً وعشرين
ساعة لقضاء بعض الأعمال . لسوف أعلم اذن كل شيء . .
وبعدئذ . . بعدئذ . . أذهب رأسا الى هومبورج . ولن أعود
الى رولتنبورج ، قبل السنة القادمة على الأقل . يقال انه
ليس من الخير أن يجرب المرء حظه مرتين على مائدة قمار
واحدة . ثم ان اللعب الحقيقي قائم فى هومبورج بالذات .





الفصل السابع عشر

منذ سنة وثمانية أشهر لم أنظر في هذه المذكرات ؛ ولم يخطر ببالي أن أعيد قراءتها الا الآن ، عسى أن تنسيني قلقي وتخفف من حزني وشجني . لقد وصلت من حديثي السابق الى اليوم الذي قصدت فيه هومبورج رباه ! ما كان أشد طيشي وأخف عقلي حين كتبت تلك الأسطر الأخيرة ! فان لم يكن الأمر أمر طيش شديد وعقل خفيف ، فلا أقل من أن يوصف بأنه ثقة بالنفس ، وأمل لا يتزعزع ! هل كنت أشك في نفسي أى شك ؟ وها قد انقضى على

ذلك الآن أكثر من سنة ونصف ، فاذا أنا أعيش في وضع خير منه وضع أى شحاذ متسول في رأبى ! بل أبى أنا من أى شحاذ متسول ؟ لا تهمنى الشحاذة ! أنا أضعت نفسى وكفى ! ان وضعى لا يمكن أن يشبه بأى وضع البتة . ولا داعى لأن أعظ نفسى ! فلا شىء أسخف من الوعظ فى لحظة كاللحظة التى أعيشها الآن ! آه ، من أولئك الراضين عن أنفسهم ! آه ، من ذلك الزهو المغرور الذى يصاحب كلام أولئك الثرثارين حين يأخذون يطلقون نصائحهم ومواعظهم ! لو علموا مدى شعورى بما تتصف به حالتى الراهنة من ترد وسوء ، لما جرأت الستهم على القاء الدروس علىّ : وهل فى وسعهم أن يقولوا لى أى شىء جديد لا أعرفه من قبل ؟ وهل الأمر يكمن فى هذا ؟ والشىء المحقق الذى لا ريب فيه . . هو أن دوران العجلة دورة واحدة يمكن أن يبدل كل شىء ، فاذا بهؤلاء الواعظين أنفسهم يأتون الىّ أول الآتين (أنا متأكد من ذلك) ليهتوني ممازحين كما يمازح الصديق صديقه ؛ واذا هم لا يتحولون عنى مشيحين كما يفعلون جميعهم الآن . ولكننى أبصق فى وجوه هؤلاء الناس ! ما أنا الآن ؟ zéro ! ماذا أستطيع أن أكون غدا ؟ أستطيع أن ابعث بعد موتى فأستأنف الحياة ! أستطيع أن أكتشف فى نفسى الانسان قبل أن يضع !

سافرت فعلا الى هومبورج آنذاك . ولكننى . . ذهبت بعد ذلك الى رولتنبورج ، والى سبا ، والى بادن أيضا ، أرافق مرافقة الخادم سيده ، المستشار هنزى ، الوغد الذى

كان هنا سيدى ومولاي سابقا . نعم ، لقد لبثت خادما خلال خمسة أشهر ! وقد حدث ذلك بعد خروجى من السجن توا (ذلك أنتى أودعت السجن فى رولتنبورج بسبب دين لم أرده هنا ، ثم سدده عنى شخص مجهول ، لا أدرى أهو مستر آستلى ، أم هو بولينا ؛ لا أدرى ، ولكن الدين قد سدده ، وكان مجموعه مائتى تالير ، فأفرج عنى وأطلق سراحى) . الى أين كان يمكننى أن اذهب ؟ وفى ذلك الوقت انما دخلت فى خدمة ذلك الرجل الذى اسمه هنزى . هو شاب طائش مولع بالكسل ، وأنا أجد الكلام والكتابة بثلاث لغات ؛ فاتخذنى فى أول الأمر سكرتيرا أو ما يشبه السكرتير ، بأجر شهرى مقداره ثلاثون غولدن ؛ ولكننى أصبحت آخر الأمر خادمه حقا : ذلك أن مواده قد قلت ، فأصبح لا يستطيع أن يكون له سكرتير ، فأنقص أجرى ، وكنت لا أعرف مكانا أقصد اليه ، فبقيت عنده ، وبذلك أحلت نفسى بنفسى الى خادم . وكنت لا أنال فى خدمته حظا كافيا من الطعام والشراب ، ولكننى استطعت أن أدخر سبعين غولدن فى مدى خمسة أشهر . وفى ذات مساء ، وكنا أيامئذ فى بادن ، أعلنت له أنتى أريد أن اتركه ، وذهبت فى ذلك المساء نفسه الى الروليت . لشد ما كان قلبى يخفق ! وما كان المال هو ما أحرص عليه ! لا . . وانما كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء الذين يسمون هنزى ، وجميع رؤساء الخدمة فى الفنادق ، وجميع هاتيك السيدات الحسنאות فى بادن ، كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء ، يتحدثون عنى ويروون قصتى ، ويعجبون بى ،

ويزجون الى المديح والاطراء ، ونحنون أمامي اجلالا لما
 أصبت من حظ جديد في اللعب . ولقد كان ذلك كله
 أحلاما ومشاعل من أحلام الاطفال ومشاعلهم . . ولكن . .
 من يدري ؟ فلعلني ألقى أيضا بولينا ، فأقص عليها مغامراتي ،
 وأبرهن لها على أنني فوق جميع ضربات الحظ السخيفة
 تلك . . . نعم لم يكن المال هو ما أحرص عليه ! واني
 لعلى يقين من أنني لو قد جنيت ربحا كبيرا لأعطيته مرة
 أخرى لامرأة ما مثل Blanche ، ولظهرت أعرض نفسي
 مرة أخرى ثلاثة أسابيع بباريس ، يجز عربتي فرسان ثمنهما
 ستة عشر ألف فرنك . أنا أعرف أنني لست بالبخيل . .
 بل اننى لأعتقد أنني مبذر متلاف . ومع ذلك فما كان
 أشد انفعالي ، وما كان أشد انقباض صدري ، حين كنت أسمع
 القيم يعلن : *trente et un, rouge, impaire et passe,*
 او *quatre, noir, pair et manque!* وما كان أشد
 شراحتي ونهمي حين كنت أنظر الى مائدة القمار فأرى القطع
 الذهبية والفرديكات والتاليرات مبعثرة هنا وهناك ، وأرى
 كدسات الذهب تدحرجها مجرفة القيم أكواما متقلبة الألوان
 كالجمر ، أو أرى نقود الفضة ملفوفة اسطوانات تحيط بالدائرة
 من كل جانب . كنت حتى على بعد غرفتين من قاعة
 اللعب أوشك أن أنهار حين أسمع زين النقود .
 كانت تلك الأمسية التي حملت فيها الى مائدة القمار
 غولدناتي السبعين أمسية رائعة . لقد بدأت بعشر غولدنات
 حططتها من جديد على *passé* كان قد استقر في وهمي
 شيء من الايثار لـ *passé*. فخسرت . فبقى معي ستون

غولدا ، نقودا من فضة . ففكرت . . ثم وقع اختياري على zéro . فحطت خمسة غولدانات دفعة واحدة على zéro فاذا بـ zéro يظهر في الحطة الثالثة ، كـدت أموت فرحا وأنا أتلقى مائة وخمسة وسبعين غولدا . لم أشعر بمثل هذه السعادة يوم ربحت مائة ألف غولدن وما لبثت أن حطت مائة غولدن على rouge .. فربحت ؛ ثم حطت مائتين على rouge .. فربحت . . ثم حطت أربعمائة على noir .. فربحت . . ثم حطت ثمانمائة على manque فربحت أيضا . بلغ ما أملكه ألفا وسبعمائة غولدن . . وقد تم ذلك كله في أقل من خمس دقائق ! ان المرء ينسى في مثل هذه الأحوال جميع الاخفاقات الماضية ! لقد حصلت على ذلك مجازفا بأكثر من حياتي . . لقد تجرأت أن أجازف . . فاذا أنا أجد نفسي في عداد الرجال من جديد !

استأجرت غرفة في فندق ، فحبست نفسي فيها مغلقا بابها بالمفتاح ، ولبثت حتى الساعة الثالثة أعد ما آل اليّ من مال . حتى اذا استيقظت ، كنت قد اصبحت رجلا حرا لا خادما ذليلا . وقررت أن أسافر في ذلك اليوم نفسه الى هومبورج . فاني لم أكن هنالك خادما ، ولا أودعت هنالك سجننا . ولكنني قبل موعد سفر القطار بنصف ساعة ذهبت الى الروليت لأقامر مرتين لا أكثر ، فخسرت ألفا وخمسمائة فلورين . ومع ذلك سافرت الى هومبورج التي انقضى على وجودي فيها شهر حتى الآن . اننى طبعا ، أعيش هنا في قلق متصل . فاذا مضيت

أقامر لم أحطط الا أقل مبلغ ، فأنا أنتظر شيئا ما ،
وأجرى حسابات طويلة ، وقد ألبث أياما برمتها قرب مائدة
القمار أراقب اللعب ، وأحلم باللعب حلما . . ومع ذلك
فانه يبدو لى أننى قد تبلدت ، وأننى قد غطست فى الوحل .
اننى أستنتج هذا من الشعور الذى شعرت به حين التقيت
بمستر آستلى . لم نكن قد التقينا منذ ذلك الحين بالذات ،
ثم التقينا فى هذه المرة مصادفة . واليكم كيف وقع ذلك :
كنت سائرا فى الحديقة العامة أجرى حساباتى فأرى أننى
أصبحت خالى الوفاض تقريبا . مع أنه بقى معى خمسون
غولدينا ، وعدا ذلك فقد سددت تماما أول أمس فاتورة
الفندق الذى أشغل فيه غرفة صغيرة . لم يبق فى وسعى
اذن أن أقامر على الروليت الا مرة واحدة ، فاذا ربحت ،
ولو مبلغا ضئيلا ، استطعت أن أوصل اللعب ، أما اذا
خسرت . . فسيكون على أن أعمل خادما من جديد ، الا
أن أجد على الفور أسرة روسية تحتاج الى مدرس . . كانت
هذه الفكرة هى التى تشغل بالى ، فمضيت أقوم بترهتى
اليومية عبر الحديقة العامة والغابة الى الامارة المجاورة . كنت
أظل أمشى على هذه الحال أربع ساعات أحيانا ثم أعود
الى هومبورج متعبا جائعا . وبنى لأدخل فى الحديقة ، اذا
أنا ألمح مستر آستلى على حين فجأة ، جالسا على أحد
المقاعد . انه هو الذى رآنى فنادانى . فجلست الى جانبه .
واذ لاحظت فى وجهه بعض ملامح الرصانة ، سارعت
أطامن فرحى وأهدئى انفعالى . فلقد أظهرت فى الوهلة
الأولى سرورى الكبير بأننى أراه .

قال مستر آستلي :

— أنت اذن هنا ؟ لقد توقعت أن ألتقي بك .

لا تتعب نفسك في أن تقص عليّ شيئا ، فاني على علم بكل شيء ، بكل شيء . أعرف كل ما جرى لك خلال هذه السنة والأشهر الثمانية .

قلت أجييه :

— ها . . . اذن أنت ترصد أصدقاءك القدامى ! ألا

ان هذا ليشفرك . فلست بمن ينسى أصحابه . . . ولكن

قل لي : لقد خطر ببالي الآن شيء : أأنت أنت الذي

أخرجتني من سجن رولتنبورج الذي أودعته بسبب دين مقداره

مائتا غولدن ؟ ان شخصا مجهولا قد سدد عني هذا المبلغ .

— لا ، لا ، ما أنا ، انا لم أخرجك من سجن

رولتنبورج حيث أودعته بسبب دين مقداره مائتا غولدن . .

ولكنني أعلم أنك سجت بسبب دين مقداره مائتا غولدن .

— هل تعرف اذن من الذي سدد عني الدين فأطلق

سراحي ؟

— لا ، لا أستطيع أن أقول انني أعرف من الذي

أخرجك من السجن .

— غريب ! . . ان أحدا من أصحابنا الروس هنا

لا يعرفني . وما كان لأحد منهم أن يسدد عني دينا على

كل حال . وانما هناك ، في بلادنا ، في روسيا ، يفندي

الأرثوذكس اخوتهم على هذا النحو . لذلك قدرت أن الذي

سدد عني الدين لا بد أن يكون انجليزيا عجيبا ما ،

فعل ذلك من قبيل التفرد والشذوذ .

كان مستر آستلي يصغى الى مندهشا بعض الاندهاش ،
فلا شك أنه كان يتوقع أن يرانى حزينا منهارا .
قال وقد لاح فى وجهه شىء من العبوس :
— مهما يكن من أمر ، فانه لعمرا يأخذ بلبسى أن
أراك على عهدى بك من استقلال فى الفكر ، بل ومن
مرح فى المزاج .
فقلت له ضاحكا :

— أى أنك فى قرارة نفسك يحنقك أن لا ترانى
منهك النفس مذل الكرامة .
فلم يدرك معنى ما قلته أول الأمر ، لكنه حين فهم
أخذ يبتسم .

— تعجبني ملاحظاتك . اننى أرى فى كلماتك هذه
صديقى القديم ، الذكى ، الشديد الحماسة والساخر الهازئ
فى الوقت نفسه . الروس وحدهم قادرون على أن يجمعوا
فى أنفسهم كل هذه الأضداد . صحيح أن الانسان يحب
أن يرى خير صديق من أصدقائه مذلا أمامه : فعلى الازلال
انما تقوم الصداقة اكثر الأحيان . تلك حقيقة قديمة يعرفها
جميع الأذكياء من الناس . ولكننى أؤكد لك أننى حين
رأيتك على حالتك هذه متماسكا غير منهك ، قد سعدت
صادقا مخلصا . قل لى : أليس فى نيتك أن تترك القمار؟
— هه . . فليذهب القمار الى جهنم ! . . لسوف
أتركه متى . .

— متى استرددت مالك ، أليس كذلك ؟ هذا
ما كنت أتوقعه . . فلا تكمل . . أنا أعرف . . ولقد أفلت

منك هذا الكلام سهوا . . اذن فقد قلت الحقيقة ، ولكن
قل لى : هل تعمل الآن فى شىء ، عدا القمار ؟
— لا . . .

فأخذ يمتحننى . كنت لا أعرف شيئا ، كنت لا
أكاد ألقى نظرة على الصحف ، لا ولا أمسكت بكتاب
طوال ذلك الوقت .
قال مستر آستلى :

— لقد تبلدت وتخدرت لم تنصرف عن الحياة
فحسب ، لم تدع اهتماماتك الشخصية ، واهتمامات
المجتمع وواجباتك انسانا وموطنا فحسب ، ولم تهجر
أصدقاءك فحسب (ولقد كان لك أصدقاء) ؛ ولم تشح
بوجهك عن كل هدف عدا الربح فحسب ، بل تحولت
حتى عن ذكرياتك . . اننى أتذكر كيف كنت فى فترة
جامحة عنيفة من حياتك ، ولكننى على يقين من أنك
نسيت جميع ما عانته أثناء تلك الفترة من أحسن المشاعر ،
وأصبحت أحلامك ورغباتك الملحة الراهنة كلها لا تمضى
الى أبعد من التفكير فى pair, impair, rouge, noir
والأرقام الاثنى عشر الوسطى ، الخ الخ . أنا على يقين من
ذلك !

هتفت أقول متبرما بل غاضبا بعض الغضب :

— كفى ، كفى يا مستر آستلى ، أرجوك ، أرجوك
أن لا تذكر لى الماضى واعلم أننى لم أنس شيئا .
ولكننى طردت ذلك كله من ذهنى الى حين ، حتى
ذكرياتى . . بانتظار أن أسترد وضعى كاملا . . وعندئذ ،



عندئذ . . لسوف ترى كيف أقوم من الأموات !

قال مستر آستلي :

— لسوف أجدك هنا بعد عشر سنين أيضا . أراهن على أنني سأذكرك بهذا الكلام ، فوق هذا المقعد نفسه ، اذا بقيت حيا

قاطعته أقول نافذ الصبر :

— طيب ، طيب . . كفى ! ومن أجل أن أبرهن لك على أنني لست بمن ينسى الماضي ، فهلا أذنت لي أن أسألك أين هي مس بوليننا الآن ؟ فلئن لم تكن أنت من سدد عني ديني ، فأطلق سراحي من السجن ، فلا بد أن تكون هي من فعل ذلك . لم أسمع شيئا عن أخبارها أبدا منذ ذلك الحين .

فقال بلهجة حازمة بل وغازبة :

— لا . . لا ! لا أظن أنها هي التي دفعت دينك . وهي الآن بسويسرا ، ولسوف تسرنى كثيرا اذا أنت لم تلق عليّ أسئلة عن مس بوليننا .

قلت وأنا أضحك رغم ارادتي :

— اذن فقد جرحتك أنت أيضا جرحا عميقا بالغا !

— ان مس بوليننا خيرٌ من خير مخلوق يستحق الاحترام على وجه الأرض ، ولكنني أعود فأقول لك انك تسرنى كثيرا اذا كفت عن القاء أسئلة تتعلق بها . أنت لم تعرفها يوما ، وعندى أن تحرك فمك بذكر اسمها اساءة الى حسي الأخلاقي .

— حقا ؟ ولكنك مخطئٌ على كل حال . فيم عساي

أكلمك ان لم أكلمك عن مس بولينا ؟ هلا فكرت قليلا ؟
ان جميع ذكرياتنا متصلة بها . وما عليك أن تخشى شيئا ،
فما بسى حاجة قط الى معرفة أسراركما الحميمة . . . وانما
يعينى ، ان صح التعبير ، أن أعرف ما يحيط بمس
بولينا الآن من ظروف خارجية . أريد أن أعرف شيئا عن
وضعها الخارجى ، لا أكثر من ذلك . وهذا يمكن أن
يقال بكلمتين .

— لك ما تريد . ولكن على شرط أن نبقى فى
حدود هاتين الكلمتين . ظلت مس بولينا مريضة زمنا طويلا ،
وما تزال مريضة الى الآن . سكنت بعض الوقت عند أمى
وأختى فى شمال انجلترا . ومنذ نصف سنة ماتت جدتها
(تذكر تلك المرأة المجنونة) تاركة لها ، لها شخصيا ،
سبعة آلاف جنيه . وهى — أى مس بولينا — تقوم الآن برحلة
مع أسرة أختى التى تزوجت . وقد كفلت وصية الجدة أيضا
مصير أخيها الصغير وأختها الصغيرة ، فهما يتعلمان الآن
بلندن . أما الجنرال ، زوج أمها ، فقد مات منذ شهر
فى باريس من نزيف فى الدماغ . وقد عنيت به
mademoiselle Blanche ، ولكنها استطاعت أن تسجل على
اسمها كل ما ورثه عن الجدة . . . هذا كل شىء فيما أظن .

— ودى جريو ؟ ألا يقوم برحلة فى سويسرا هو أيضا ؟
— لا . . ان دى جريو لا يقوم برحلة فى سويسرا ،
ولا أعرف أين هو الآن . على أنتى أنصحك مرة أخيرة
أن تجتنب هذا النوع من التلميحات ، وأن تحاذر هذا
النوع من التقريب بين الأمور تقريبا غير كريم ، والا كان

لى معك شأن ! . . .

— ماذا ؟ أرغم صداقتنا القديمة ؟

— نعم . . . رغم صداقتنا القديمة .

— أستغفرك ألف مرة يا مستر آستلى ، وأسألك الصفح !

ولكن اسمح لى أن أقول لك ان الأمر ليس فيه شيء

من اساءة وعدم الكرامة . اننى لا أتهم مس بولينا بشيء

البتة . وعدا ذلك . . فان التقارب بين رجل فرنسى وآنسة

روسية هو ، على وجه العموم ، أمر لا نستطيع لا أنا ولا

أنت أن نوضحه ايضا كما ملاما أو أن نفهمه فهما تاما .

— لو لم تقرن اسم دى جريو باسم آخر لطالبتك

أن تشرح لى ما تعنيه بقولك «فرنسى وآنسة روسية» ! فما

هذا «التقارب» الذى تعنيه ؟ ولماذا تخصص فتقول : فرنسى

وآنسة روسية ؟

— هل رأيت ؟ ان الأمر يعينك . ولكنها حكاية

طويلة يا مستر آستلى . ان هناك أشياء كثيرة يجب أن

تُعرف أولا . ثم انها مسألة هامة ، مهما بدا هذا مضحكا

للوهلة الاولى . الفرنسى يا مستر آستلى شكل كامل جميل .

قد لا ترى أنت هذا الرأى من حيث أنك بريطانى ؟

ولست أرى أنا هذا الرأى من حيث أننى روسى ، ولو من

باب الغيرة على الأقل . ولكن لعل آناساتنا ينظرن نظرة

أخرى . لقد تعد راسين متصنعاً ، متكلفاً ، مزوّقا* ،

حتى لقد تأبى أن تقرأه حتما . وانى لأعده أنا أيضا

متصنعاً متكلفاً مزوّقا بل باعثا على الضحك منه جديرا بالسخرية

به من احدى النواحي . ولكنه فائن يا مستر آستلى ، وهو

شاعر كبير بخاصة ، شئنا أم أيننا ان الشكل القومى
للفرنسى ، أعنى للباريسى ، قد انصب فى قالب أنيق
حين كنا ما نزال نحن دبية . لقد ورثت الثورة النبالة .
فأنت ترى الآن أنفه الفرنسيين صاحب حركات رشيقة ،
وأوضاع أنيقة ، وتعبيرات جميلة ، بل وأفكار تلبس شكلا
رشيقا كل الرشاقة ، دون أن يكون فى ذلك كله شىء
من مبادرته أو روحه أو قلبه . لقد انتقل اليه هذا كله وراثه .
فقد يكونون فى ذاتهم أكثر المخلوقات فراغا ودناءة . ذلك
من جهة ، ومن جهة أخرى فانه ليس فى الدنيا كلها
(أقول لك هذا الآن يا مستر آستلى) انسان أكبر ثقة وأكثر
انفتاحا من فتاة روسية طيبة ذكية غير مسرفة فى التكلف
والتصنع . لذلك يستطيع رجل مثل دى جريو ، ، أيا
كان الدور الذى يمثله زورا ، وأيا كان القناع الذى يخفى
به وجهه ، أن يغزو قلبها بسهولة لا يصدقها العقل . ذلك
أن له شكلا أنيقا يا مستر آستلى ، والفتاة تحسب أن شكله
هذا هو روحه ، تحسب أن هذا الشكل هو الصورة الطبيعية
لروحه وقلبه ، ولا تحسبه لباسا انتقل اليه وراثه . يجب
أن أعترف لك يا مستر آستلى ، وهذا سيسوءك ، أن الانجليز
فى أغلب الأحيان غير مشذيين محرومون من الاناقة أو
الرشاقة . والروس أناس مفطورون على تمييز الجمال ، مولعون
به ، ظامثون اليه . ولكن تمييز جمال الروح وأصاله الشخصية
يحتاج الى قدر من استقلال الرأى وحرية النفس فضلا عن
قدر من التجربة الحياتية فوق ما يملك منهما نساؤنا ،
فما بالك بالآنسات . ان مس بوليننا (لا تؤاخذنى ، فما

قيل لا تستطيع ان تمحوه) ، ستقضى وقتا طويلا قبل أن تعزم أمرها فتوثرك على وغد مثل دى جريو . انها ستقدرك وتحترمك . وستكون صديقه لك ، وستفتح لك قلبها كله . ولكن ذلك الوغد الكريه ، ذلك المرابى الحقير الثافه الذى يسمى دى جريو سيكون هو سيد ذلك القلب . وسيستمر هذا الأمر ، ولو عنادا أو كبرياء ان صح التعبير ، لأن دى جريو هذا قد ظهر لها ذات يوم تحت هالة مركزيز أنيق لبييرالى خابت آماله ، أفلس (أحقا ؟) لأنه أراد أن يساعد أسرته وأن يساعد ذلك الجنرال الطائش . صحيح أن ألاميه كلها قد افتضحت بعدئذ . ولكن ليس لهذا كبير شأن : ردوا اليها دى جريو القديم : فذلکم ما تريده ! وكلما ازداد الاحتقار الذى تشعر به نحو دى جريو الجديد ، ازداد أسفها وازدادت حسرتها على دى جريو القديم ، رغم أن القديم لم يوجد الا فى خيالها . هل تقوم بانتاج السكر يا مستر آستلى ؟

— نعم ! أنا شريك فى مصنع السكر الكبير ، لول وشركاه .

— أرايت اذن يا مستر آستلى ؟ هناك صاحب مصنع فى جهة ، وهناك فى الجهة الأخرى آبولون بلفيدير . لا يستقيم الأمران معا . أما أنا فلست حتى صاحب مصنع : ما أنا الا مقامر صغير فى الروليت . بل لقد عملت خادما ، وهذا ما تعرفه مس بوليننا حتما ، لأن لها عيونا تحسن تزويدها بالأخبار .

قال مستر آستلى ببرود بعد أن فكر بضع لحظات :

— أنت حائق ، ولهذا انما تقول هذه السخافات .
ثم ان أقوالك خالية من الأصالة .
— صحيح ! لكن الشيء الرهيب ، أيها الصديق
النبيل ، هو أن جميع اتهاماتي ، باللغة ما بلغت من بلي
وتفاهة وسخافة ، صادقة مع ذلك ! ثم اننا لم نتوصل
الى أى شيء على كل حال ، لا أنت ولا أنا !
قال مستر آستلى وقد ارتعش صوته والتمعت عيناه :
— هذا الكلام فحش وحماسة . . ألا فاعلم اذن
أيها الانسان العاق ، أيها الانسان القبيح التعيس الشقى ،
أننى انما جئت الى هومبرج بأمر منها لأراك ، وأتحدث
معك طويلا ، بقلب مفتوح وصراحة تامة ، ثم أنقل اليها
كل شيء . . عواطفك ، وأفكارك ، وآمالك و . . ذكرياتك !
هتفت أقول وقد انبجست من عيني دموع غزيرة :
— أهذا ممكن ؟ أهذا ممكن ؟
لم أستطع أن أحبس دموعى عن الهطول ، وأظن
أنها أول مرة فى حياتى . قال مستر آستلى :
— نعم ، أيها الشقى . لقد كانت تحبك . أستطيع
أن أكشف لك عن ذلك ، لأنك انسان ضاع وانتهى
أمره ! فلو قلت لك انها ما تزال تحبك . . لبقيت . .
لبقيت هنا رغم ذلك ! نعم . لقد ضيعت نفسك .
كان لك بعض المواهب ، وكان لك طبع يتدفق حياة ،
ولم تكن خبيث القلب أو سيئ النفس ؛ حتى لقد كان
فى وسعك أن تنفع وطنك الذى هو فى ميسس الحاجة
الى رجال . . ولكنك سوف تبقى هنا ، وقد انتهت حياتك .

لست أتهمك . وفي رأيسى أن الروس جميعا مثلك ، أو أنهم ميالون لأن يكونوا مثلك . فان لم يقعوا فريسة الروليت وقعوا فريسة شيء يشبهها . وما أندر الذين يمكن استثنائهم من ذلك ! لست أول من يتنكر للعمل ، وأنا لا أقصد شعبك فانما خلقت الروليت للروس . لقد كنت الى الآن رجلا شريفا ، فأثرت أن تكون خادما على أن تسرق . . ولكننى أرتعد حين أتصور ما قد يحدث لك فى المستقبل . حسبنا هذا الآن . وداعا ! أنت فى حاجة الى بعض المال طبعاً ؟ اليك عشرة جنيهات . لن أعطيك أكثر من ذلك ، لأنك ستخسر كل ما قد أعطيك على كل حال . خذ هذا ، ووداعا ! مالك ، لا تأخذ المال ؟

قلت : — لا يا مستر آستلى ، أبعد كل ما قيل . .

فصرخ مستر آستلى :

— خذ ! . . اننى مقتنع بانك ما تزال نبيلاً ، واذا أعطيتك هذا المال ، فكما يعطى صديق صديقاً حميماً . ولو كنت على يقين من أن فى الامكان أن تهجر القمار رأساً وأن تترك هومبورج عائداً الى بلادك ، اذن لكنت مستعداً أن أعطيك ألف جنيه فوراً من أجل أن تبدأ حياة جديدة . ولئن لم أعطك الا عشرة ريالات بدلا من ألف جنيه ، فلأن المبلغين يستويان عندك : ستخسر أيا منهما لا محالة . خذ . ووداعا .

— آخذها اذا رضيت أن تتعاقب وداعا

— أرضى مسرورا !

تعانقنا عناقا وديا ، وانصرف مستر آستلى

لا . . لا . . انه مخطئ ! لئن كنت أنا قاسيا وغبيا
فى حكمى على مسألة بولينا ودى جريو ، فلقد كان هو
قاسيا ومسرعا فى حكمه على الروس لست أدافع عن
نفسى أنا . على كل حال . . على كل حال . . ليس هذا
هو الأمر الهام الآن : فتلك كلها أقوال وأقوال وأقوال ،
والحاجة الآن الى أفعال ! الأمر الهام الآن هو السفر الى
سويسرا ! سأسافر غدا . . آه . . ليتنى أستطيع أن أسافر
غدا : أن ابعث بعثا جديدا ، أن أحيأ حياة جديدة .
يجب أن أبرهن لهم على . . يجب أن تعلم بولينا أننى
ما زلت أستطيع أن أكون رجلا . يكفى أن . . لقد فات
أوان السفر اليوم على كل حال . . ولكن غدا . . آه . . اننى
أوجس شيئا . . ولا بد أن يحدث ما أوجسه ! معى الآن
خمسة عشر ريالا ذهبيا ، وقد بدأت بخمسة عشر غولدا !
فاذا تصرفت بحذر وروية . . أيمكن أن أكون طفلا صغيرا
الى هذه الدرجة ؟ ألم أفهم أننى انسان ضائع ؟ ولكن
لماذا لا أستطيع أن ابعث ؟ نعم ، يكفى أن أكون متعلقا
صبورا ، مرة واحدة فى حياتى . . هذا كل ما أنا فى حاجة
اليه ! يكفى أن أكون قوى الارادة مرة واحدة حتى أغير
مصيرى فى ساعة ! ان قوة الارادة هى الأمر الأهم .
ليس على الا أن أتذكر ما حدث لى منذ سبعة أشهر فى
رولتنبورج قبل خسارتى النهائية . كان ذلك مثلا رائعا على
التصميم : كنت قد خسرت كل شىء . . كل شىء . .
وخرجت من الكازينو ، ونظرت . . ان هناك غولدا ما يزال
يتجول فى جيب صديرتى . قلت لنفسى : «معى ما يكفينى

لتناول غدائي !» ولكنني بعد أن سرت مائة خطوة عدلت
 عن رأسي ، وقفلت راجعا . حططت الغولدن على manque
 (على manque ، في تلك المرة) . حقا ان المرء ليشعر
 باحساس غريب فريد حين يجازف ، وهو وحيد ، في بلد
 أجنبي ، بعيد عن وطنه وعن اصدقائه ، لا يدري هل يأكل في
 يومه ، أقول حين يجازف ، وتلك حاله ، بآخر غولدن
 يملكه ، بآخر غولدن ! وربحت ، وما هي الا عشرون
 دقيقة حتى كنت أخرج من الكازينو بمائة وسبعين غولدنا
 في جيبي . هذا هو الواقع ! هذا ما يمكن أن يكون
 لآخر غولدن من شأن ! فلو قد استسلمت للانهيار ، لو
 لم أملك الشجاعة اللازمة لتنفيذ ما عزمت عليه
 غدا ، غدا ، يتهى كل شيء !



حواش

الصفحة

٢٥ • لقد اختار دوستوفسكى لروايته فى أول الأمر عنوان «روليتنبرج» ثم غيره استجابة لالاح الناشر . ولعله يريد باسم روليتنبرج ان يقصد مدينة فسيبان الألمانية الجنوبية التى قامر فيها بالروليت سنة ١٨٦٢ سنة ١٨٦٣ سنة ١٨٦٥

٢٦ • «ميشا» و «ناديا» هما تصغير اسمى ميخائيل وناديجدا

٢٩ • ان معرض نيجنى نوفجورود (على نهر الفولجا ، مدينة غوركى حاليا) كان أكبر معرض يقام فى روسيا .

٣١ • ... الى مكب السفارة البابوية ...

كانت مقاطعة روما (البابوية) دولة مستقلة فى ايطاليا حتى عام ١٨٧٠ . وكان لبابا روما ، بصفته رئيس المقاطعة البابوية ، ممثلوه الدبلوماسيون فى الدول الأخرى .

٣١ • «Opinion nationale» («الرأى العام») . كانت هذه الجريدة الليبرالية الفرنسية كثيرا ما تشجب سياسة القيصر الروسى ازاء بولنده

٣٤ • ... «مذكرات» الجنرال بيروفسكى ...

فاسيلى اليكسييفتش بيروفسكى (١٧٩٥—١٨٥٧) هو كونت وجنرال—ياور ، شارك فى الحرب الوطنية عام ١٨١٢ . وفى فقرة من «مذكراته» يروى أن الفرنسيين ، عند انسحاب نابليون من موسكو عام ١٨١٢ ، ساقوا طابورا من الأسرى الروس ، وكانوا يطلقون الرصاص على كل من يتخلف عن السير بسبب الاعياء والضعف . وقد نشرت

تلك الفقرة في مجلة «الأرشيف الروسى» العدد الثالث عام ١٨٦٥ .

٣٧ * «بابولنكا» ، تصغير بابكا ، أى الجدة ؛ وتقال توددا وتحببا

٥٠ * «خمسة فريدريكات» : قطع نقدية ذهبية ألمانية من ذلك العصر تساوى كل منها ١٠ — ١١ تالير (فلورين)

٦٨ * كلمة Vater الألمانية معناها أب ، وقد استعملها المؤلف بالتلفظ الألماني فى الأصل .

٧٠ * روتشيلد . . . «هوب وشركاه» أصحاب مصارف مشهورة

٧٢ * «المركيز دى جريو» ؛ ان دوستوفسكى يطلق هنا على ابن عم مدموازيل بلانش اسم بطل رواية «مانون ليسكو» ، وهذه اشارة الى أن المركيز المزعوم هو خليل بلانش وعشيقها .

٨٠ * . . . ديكاً من ديوك بلاد الغال .

ديك الغال هو الشارة الوطنية لفرنسا والفرنسيين .

٩٣ * . . . بلغت الامارة الأخرى . . .

كانت المسافة من فسادن حتى حدود امارة هسين — دارمشتادت لا تزيد عن بضعة كيلومترات

١٢٤ * . . . ذى اسم تاريخى ، باربيرينى . . .

باربيرينى — عائلة أمراء رومانيين عريقة

١٣٥ * كثيرا ما ينادى الأطفال الروس الذين يتربون تربية أجنبية بأسماء فرنسية أو انجليزية تقارب أسماءهم . وقد أصبح اسم براسكوفيا هنا بوليننا

٢٠١ * ...Du lait, sur l'herbe fraiche

«لبن على العشب النضير» (بالفرنسية) . فى مؤلف «ملاحظات شتوية عن انطباعات صيفية» (١٨٦٣) الذى وضعه دوستوفسكى عن أول رحلة قام بها الى الخارج ، يشرح الكاتب هذه العبارة هازئا ، باعتبارها المثال الأعلى المحدود لبرجوازي المدينة المنقطع الصلة بالأرض

٢٠١ * “Nature et la vérité!” — “Homme de la nature et de la

vérité” «انسان الطبيعة والحقيقة» (بالفرنسية) — تشخيص ذاتي للكاتب والفيلسوف الفرنسى المعروف جان جاك روسو (Rousseau) (١٧١٢ — ١٧٧٨) ورد فى «اعترافاته» . وكان دوستوفسكى كثيرا ما يستخدم هذا الوصف بصورة ساخرة للتعبير عن وجهة نظر الشخص البرجوازي الفعلى الذى آل اليه عمليا «الانسان الطبيعى» المثالى لدى منورى القرن الثامن عشر وذلك بعد انتصار البرجوازية فى فرنسا وغيرها من البلدان الغربية .

٢١٩ * . . . بول دى كوك . . .

بول دى كوك شارل (١٧٩٤ — ١٨٧١) كاتب فرنسى ، كتب روايات مغامرات ووصف للأخلاق المستهترّة للقراءة المسلية

٢٢٩ * . . . ايفان بالاكيريف . . .

ايفان الكسندروفتش بالاكيريف (١٦٩٩ — ١٧٦٣) — خادم القيصر الروسى بطرس الأكبر ومضحك الامبراطورة آنا ايوانوفنا وقد ذاع اسمه بفضل النكات التى نسبت اليه

٢٤٦ • "m-me Blanchard" ماري بلانشارد (١٧٧٨ — ١٨١٩) الملاحه الجويه وزوجه الملاح الجوى الذى اخترع المظلة (الباراشوت) ، هلكت بباريس سنة ١٨١٩ على متن منطاد كانت تطلق منه أسهما نارية فانفجر المنطاد .

٢٥١ • بود—وحدة الوزن الروسيه القديمه زنتها ١٦,٣٨ كيلوغراما .

٢٦٨ • Mon fils, as-tu du coeur?

عبارة حماسية لأب يدعو ابنه الى العطف عليه والانتقام له ، ورد الابن المحوّر : كل شخص آخر Tout autre ، وذلك من مسرحية «سيد» للشاعر والمسرحى الفرنسى بيير كورنى (١٦٠٦ — ١٦٨٤) . ويكتسب هذا الاستشهاد من مأساة كورنى على لسان الغانية مدموازيل بلانش لونا ماجنا يحتمل التأويل .

٢٧٠ • ...et après le déluge!

ومن بعد الطوفان ! (بالفرنسية) تحوير لعبارة «ومن بعدى الطوفان !» المنسوبة الى ملك فرنسا لويس الخامس عشر (١٧١٠ — ١٧٧٤) ، والتي اصبحت من الاقوال المأثورة .

٢٧٨ • "Château des Fleurs" : أحد المقاهى التى تعترف فيها الموسيقى بباريس ، فى ذلك الأوان .

٢٨١ • هومبورج هى المدينة الرئيسيه فى دوقية هيسين — هومبورج فى ألمانيا (حتى ١٨٦٦) . كانت فى تلك الفترة منتجعا عصريا يضم نوادى للقمار وتجرى فيه مراهنات كبيرة فى لعب الورق والروليت .

٢٨٢ • Thérèse-philosophe : اشارة الى الرواية الشائكة العسيرة

التي لا يعرف مؤلفها ، وعنوانها : «تيريز الفيلسوفة» ، أو مذكرات
لقصة السيد ديفرى والآنسة ايروديس» ، وقد ظهرت هذه الرواية في
لاهاى سنة ١٧٤٨

٣٠٨ * . . . لقد تعد راسين متصنعا ، متكلفا ، مزوّفا . . . جان
راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) مسرحى فرنسى من كتاب المذهب الكلاسيكى.

فهرست

۵	۲۶	یوما من حیاة دوستوفسکی
۲۵	الفصل	الاول
۴۳	الفصل	الثانی
۵۳	الفصل	الثالث
۶۲	الفصل	الرابع
۷۲	الفصل	الخامس
۸۸	الفصل	السادس
۱۰۳	الفصل	السابع
۱۱۶	الفصل	الثامن
۱۳۲	الفصل	التاسع
۱۴۹	الفصل	العاشر
۱۷۵	الفصل	الحادی عشر
۱۹۴	الفصل	الثانی عشر
۲۱۷	الفصل	الثالث عشر
۲۳۷	الفصل	الرابع عشر
۲۵۴	الفصل	الخامس عشر
۲۷۵	الفصل	السادس عشر
۲۹۶	الفصل	السابع عشر
۳۱۶	حواش	.

